

أول دورية أكاديمية - محكمة - ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

كلية التاريخ

تأسست في ١٤ جمادى الثاني ١٤٣٠ هـ

ISSN: 2090 - 0449 الترخيم الدولي المعياري للدورية

السنة الثالثة - العدد العاشر | ديسمبر (كانون الأول) 2010م / ذو الحجة ١٤٣١

Historical Kan Periodical



الراعي الرسمي



والمستودع الإلكتروني



الأرشيف العالمي



والمستودع الإلكتروني

www.historicalkan.com

مباحث للقرأة والتحميل عبر

يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم
منه خلاله مستقبلها، لذا كان من الأهمية
بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله
إلى الأجيال نقلاً صحيحاً، بحيث يكون نبراساً
وهادياً لهم في حاضرتهم ومستقبلهم.

الواقع أن الشعوب التي لا تاريخ لها لا
وجود لها، إذ به قوام الأمم، تحيي بوجوده
وتموت بانعدامه. ولهذا كانت فكرة تأسيس
دورية علمية إلتدوننية تاريخية عربية
أكاديمية موجهة لأساتذة وطلبة الجامعات
العرب و الباحثين وأصحاب الدراسات العليا
في فرع التاريخ وهواة القراءات التاريخية في
كل أنحاء العالم.

بهاء الدين ماجد

المشرف العام على دورية كان التاريخية
مدير إدارة الخرائط بدار الكتب المصرية



علاقات تعاون



معهد سيراكون



الجامعة العربية المفتوحة لشمال أمريكا



شبكة ومنتديات حكماء للآثار والتراث



مركز المقريري للدراسات التاريخية



معهد المناهج



رابطة الأثريين بالإسكندرية



مدرسة محمد بن عبد الوهاب
المستقلة (قطر)



المعهد العالي
لحضارات الشرق الأدنى القديم



الإتحاد العالمي للمدن



الجامعة الاسكندنافية (النرويج)

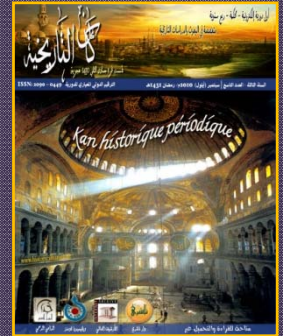


جمعية الأثريين المصريين



جمعية المحافظة على
التراث المصري

العدد العاشر



المشرف العام

بهاء الدين ماجد

المستشارون

أ.د عبد العزيز غوردو
أ.د عائشة محمود عبد العال
د.خليفة مصطفى غرايبة
د. نهلة أنيس مصطفى
د. خالد بلعربي
د. فتحي عبد العزيز محمد
د. بشار محمد خليفة
د. محمد عبد الرحمن يونس
أ.ريهام عبد الله المستادي
أ. أنور محمود زنتاتي
أ. نواف نهار طبيشات
د. أيمن المنسي
د. وليد سامي
أ. أمل محمد أمين
أ. هشام سمير شاهين

رئيس التحرير

أشرف صالح

هيئة التحرير

إسراء عبد ربه
محمد حمدي سعودي
عماد البهراني
محمد محمد زكي
حسن علي سالم
إسلام طه
إيمان محي الدين
حسين علي علام

الإشراف اللغوي

محمد عبد ربه
هند سمير فرج

الإشراف الفني

أسماء صلاح

سكرتير التحرير

نشوى عادل

دورية كان التاريخية

تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء هذه الدورية بالموضوعات التاريخية.

ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والطلاب ، والباحثين ، والكتاب ، والمتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.



حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.



موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب وأصحاب الدراسات العليا والباحثين في الدراسات التاريخية والمهتمين بالقراءات التاريخية.



الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



موقع الدورية على شبكة الإنترنت

www.historicalkan.co.nr

ISSN: 2090 - 0449 Online



جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والإلكتروني محفوظة © دورية كان التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٠

الرأسي الرسمي
سلسلة المؤرخ الصغير
سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف
إلى توفير المعلومة العلمية التاريخية



دورية كان التاريخية
متاحة للقراءة والتحميل عبر
دار ناشري للنشر الإلكتروني
www.nashiri.net





ترحب الدورية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة ذات الصلة بالدراسات التاريخية، مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وأن تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح، مع الالتزام بالضوابط التالية:



نشر البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية التي سبق نشرها أو التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع.
- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر. وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، أما إذا كانت تعديلات طفيفة فتقوم الدورية بإجرائها.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أو القديمة.
- أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.



- أن يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور.

- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.



عروض الأطاريح الجامعية

- يُراعى في الأطروحات (الرسائل) الجامعية موضوع العرض أن تكون حديثة وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد الموضوعات التاريخية.
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث.
- ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته.
- خاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.



تقارير اللقاءات العلمية

- تنشر الدورية التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات ذات العلاقة بالدراسات التاريخية التي تعقد في دول الوطن العربي، ويشترط أن يغطي التقرير فعاليات الندوة أو المؤتمر مركزاً على الأبحاث العلمية وأوراق العمل المقدمة ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.



Posting Rules

Historical Kan Periodical

ISSN:2090 - 0449

A specialized journal devoted to historical studies and research. Issued quarterly by: Junior Historian Series.

Kan exists to bring together people of all communities who have an interest in the past. It promotes and supports the study and teaching of history at all levels: teacher, student, amateur and professional.

Our Mission is Promote, develop and support the study of history at all levels. We publish a range of material for a wide variety of readers with regard to:

- Historical studies and research.
- Books Review.
- Thesis review.
- Reports of seminars and conferences.

Editorial Board invites all those interested in preserving the history of the Arab world to the enrichment of this periodical historical topic.

They also invite people who are interesting in historical studies to publish their useful writings.

Remark

- Receiving research "Word format "
- Memoir About the author is required include : Name, Degree, specialization, e-mail, personal site, personal blog, a personal image for publication with the article "if possible".
- Correspondence, advertisements and questions should be addressed to chief editor e-mail: mr.ashraf.salih@gmail.com



هيئة التحرير

- تعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية، للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي.
- الحقوق المتعلقة بالأعمال العلمية المنشورة تعود إلى الدورية، ويحق لأصحاب المقالات والأبحاث والعروض والتقارير إعادة نشر أعمالهم في أي دورية مطبوعة أو إلكترونية أخرى.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال بصيغة برنامج "Word".
- يرفق مع العمل نبذة عن الكاتب تتضمن: الاسم، الدرجة العلمية، التخصص الدقيق، البريد الإلكتروني، الموقع الشخصي، المدونة الشخصية، صورة شخصية للنشر مع المقال "إن أمكن".
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر على البريد الإلكتروني لرئيس التحرير mr.ashraf.salih@gmail.com





معالم تاريخية للمحاسبة المالية

٥٨ - ٥١

أدونيس والفكر
الهدمي الاستشراقي

١٤ - ٦

السمك والتغذية
في المغرب الوسطى

٦٥ - ٥٩

الجوسسة الفرنسية في الجزائر في
العصر الحديث والمعاصر:
الجاسوس ليون روش

١٥ - ١٨



تاريخ الأمـازيغ

٧٠ - ٦٦

البناء بالتراب في بلاد المغرب
الإسلامي: تقنية الطابية
نموذجاً

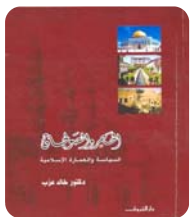
١٩ - ٦٦

عرض كتاب ..
الزخرفة على الخشب
في المعمـار الفاسسي

٧٥ - ٧١

البنيان مدينة جزائرية
من العالـم القديم

٧٦ - ٦٠

عرض كتاب ..
الحجر والصولجان ... السياسة
والعمـارة الإسلامية

٧٧ - ٧٦

العلاقات التجارية بين بلاد
المغرب والسودان الغربي
خلال ق ١٠ هـ / ١٠ م

٦١ - ٦٧

عرض أطروحة ..
كبار ملاك الأراضي الزراعية
ودورهم في المجتمع المصري

٧٨ - ٧٩

قمح بلاد المغرب القديم بين
المادة الغذائية والسياسة

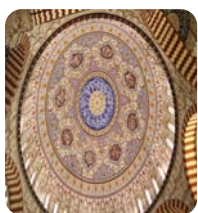
٧٨ - ٦٢

ملف العدد ..
في الطريق إلى مكة المكرمة

٨٠ - ٩٥

دور شعر القعاء التميمي في
تجلية فتوحات الشام

٩٦ - ٩٣

Conceptual Approach
To Architecture

٩٦ - ١١٨

أدب وادي الرافدين وأثره
في نصوص أدبية متأخرة

٩٧ - ٥٠

ما جدوى الاهتمام بالتاريخ ..؟

قد يتساءل البعض من القراء عن جدوى الاهتمام بالتاريخ بوجه عام ، خاصةً في عصرنا الذي كثرت فيه المتغيرات والاضطرابات ، هذا العصر الذي نحياه حيث تغير فيه كل شيء ، وستتغير أشياء وأشياء وبالذات مع القرن الواحد والعشرين الذي دخلنا سنواته الأولى ، فلا شيء ثابت ، الكل متغير ، إلا الله سبحانه وتعالى. هذا العصر الذي وصل فيه الإنسان إلى القمر ، وصارع الكواكب والنجوم ، وأعلن ثورة الاتصالات والمعلومات والانفجار المعرفي ، وتفوق في مجال الطب والهندسة الوراثية والاستنساخ ، وفك شفرة الجينوم البشري ، في هذا العصر الذي يذهلنا كل يوم بمكتشفاته ومخترعاته .. في هذا العصر يتساءل الناس: أليس من الأجدى أن ننسى الماضي ، وننظر إلى الحاضر ، ونستشرف المستقبل ؟ !!

أقول لكم: نعم ، نحن نعيش عصر جديد في كل شيء ، عصر له إيجابياته وسلبياته ، والدنيا تتغير من حولنا وتتحرك ، وسيحصل الندامة كل من يغمض عينيه عن هذه الحقيقة ، متمسكاً بأهداب القديم ، ويستوي في ذلك الذي كان يؤمن بالماركسية إيماناً راسخاً يجعله في حالة تحسر دائم على أيام ستالين (الزعيم الروسي الحديدي) ، وعلى أيام الشيوعية التي هي أعلى مراحل الاشتراكية ، وما زال في ملته واعتقاده أن من ينتقد تلك النظرية خائن وابن خائن ، وأن كل من يعترض على المينفستو اللينيني فهو عميل أصيل للمخابرات المركزية الأمريكية ، أو ذلك الذي يفضل البكاء على الأطلال والديار ، ناسياً أو متناسياً أن العالم يتغير ، وواجبنا نحن أيضاً أن نتغير ، لأن الله لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم. وقد يعود السائل للسؤال قائلاً: وكيف يكون التغيير ؟ أقول: لن نتغير إلا بالتاريخ !! ، هنا سوف يندهش من يسمع ، وقبل أن يخرج من دهشته أقول: أعلم أن الاضطرابات والمشاكل والمتاعب التي نعاني منها في واقعنا المعاصر ، أو المعاش على أرض الواقع ، لن يتم علاجها والتخلص منها إلا بالنفاذ إلى جذور المشكلات العميقة التي تجابهنا ، والسعي إلى استئصال أسبابها البعيدة ، ومعرفة العلل والأسباب وطبيعتها ومداه ، أعلم أن كل مشكلة من المشكلات التي تعترض البشرية في مسيرتها لها جذورها وأسبابها المغروسة في التراث الذي ورثته من الأجيال السابقة. ونحن العرب أحرص الناس على تلك الحقيقة ، لأن التاريخ يطل علينا من نوافذ متعددة ، والتاريخ العربي بأمجاده وتقاليده وبطولاته من أهم مقومات ودعائم الوحدة والقوة ، المهم أن نفهم التاريخ جيداً ، ونعي أحداثه وعياً علمياً سليماً ، لنأخذ منه الدروس والعبر. لقد آن الأوان لأن ندرس التاريخ بعيداً عن التفاخر والتباهي ، بعيداً عن العنتريات الكاذبة التي لا تجدي ولا تفيد ، ومن هنا تحتم علينا أن ندرك كل الإدراك أنه عندما نتساءل عن أسباب وعلل النكبات والمآسي والأخطاء التي حدثت لنا ومازالت تحدث ، هنا تحتم علينا أن نرجع وعلى الفور إلى التاريخ ، وإلى كتب التراث ، من أجل أن نقرأ فيه ، فنفهم ، ونستنتج ونتعلم.

ولعل أبلغ دليل على ذلك أن العالم الفيلسوف / عبد الرحمن ابن خلدون ، رائد علم الاجتماع (العهوان البشري) كتب مقدمته الرائعة ، والتي تعد من أبرز آثار التفكير التاريخي والاجتماعي والإنساني ، كتب هذه المقدمة عندما وجد العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي قد اقتسم إلى دول متناحرة يرثى لها ، تغير عليها دون هودة جحافل الغزاة من الشرق والغرب ، فأثار ذلك في نفسه تساؤلات كثيرة عن نشوء الأمم وتطورها وتداعياها ، ويجدر بالذكر هنا أن ابن خلدون كتب فصلاً قيماً في مقدمته تحت عنوان: (فصل في علم التاريخ ، وتحقيق مذهبها ، والإلهام لها يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام ، وذكر شيء من أسبابها) ، واعتقد أن العودة إلى هذا الفصل تفيد القارئ والباحث ، وبمعنى آخر فهي تجيب عن سؤالنا المطروح: ما جدوى دراسة التاريخ في عصرنا الراهن ؟

وقبل أن نواصل كلامنا أحب أن أؤكد على أن مقدمة ابن خلدون هي فكر أصيل من عندياته ، كان خلاصة تجاربه الفكرية والثقافية والحياتية ، وقد اعترف بفضلته وريادته القاصي والداني ، فلم يتأثر بأحد مما سبقه من المفكرين أو الكتاب ، فكل عصر له ظروفه وملابساته ، فلا داعي لأن يأتي من يزعم دون دليل واضح موثق أو برهان دامغ ليقول لنا إن ابن خلدون نقل محتويات المقدمة من رسائل (إخوان الصفاء وخلان الوفاء) ، أو يحاول أن يصف ابن خلدون بالميكافيلية والبرجماتية ، فأخلاق وسلوكيات المبدع أو المفكر أمر شخصي خاص به ، لا يصح بأي حال من الأحوال أن نقترّب منه أو نتكلم عنه ونحن نتصدى لفكره ، الذي يهمننا في المقام الأول ماذا كتب ؟ ، وماذا أضاف ؟ ، وماهو منهجه ؟ ، غير ذلك لا يصح تناوله من جانبنا. نعود لنقول: لكي ندرك أهمية الماضي ، وضرورة دراسة التاريخ ، والاهتمام الجاد بتحقيق التراث التاريخي المحفوظ أو المبعثر في مكتبات العالم من المخطوطات النفيسة ، فلننرض جدلاً أننا استطلعنا بطريقة أو أخرى أن نقطع صلتنا بالماضي قطعاً تاماً (كأن تحرق الكتب ، وتدمر كل آثار العهوان القديم) ، ثم ننظر إلى حال الإنسان ، ومصير الحضارة بعد ذلك !!؟

بقلم

يسري عبد الغني عبد الله

باحث ومحاضر في الدراسات
العربية والإسلامية والتاريخية
وخبير في التراث الثقافي

القاهرة - جمهورية مصر العربية
Ayusri_a@hotmail.com

الحقيقة التي لا جدال فيها أن الإنسان سوف يحاول عندئذ أن يعود لكي يبدأ من جديد بعد أن فقد خبرات الماضي التي هي تراث الأجداد منذ آلاف السنين. ولهذا فلا غنى للإنسان في أي عصر من العصور عن دراسة ماضيه، ومعرفة تاريخ تطوره وأيضاً التعمق في أعمال وآثار الأجداد، والوعي بأوجه أنشطتهم الإنسانية، ومقومات حضاراتهم، أملين أن يكون كل ذلك من منطلق منهج علمي سليم، نبدأ فيه من حيث انتهى الأجداد، فمن المحال أن تكون البداية من نقطة، الصفر مهما روح الكثيرون لهذه الفكرة الغير منطقية. نقول: إن كل عالم أو أديب أو فنان لا غنى له في عمله أو فنه - لو كان جاداً صادقاً- من أخذ الماضي بعين الاعتبار، والتأثر به إلى حد قريب أو بعيد. والطبيب عندما يعالج الداء، وقبل أن يصف الدواء، يبدأ بسؤال مريضه عن تاريخ مرضه، وعن نشوئه، وعن تطوره، وعمّا اعتزى المريض من علل سابقة. والكيميائي عندما يخضع مادة من المواد لتجربة معينة، فإنه يدرس تاريخها، أي تغيرها من حال إلى حال، من ماضٍ إلى حاضر، أو من حاضر إلى مستقبل. وعالم الاجتماع لا يستطيع دراسة المشكلات الاجتماعية التي يعالجها دون النظر إلى الجذور التي نشأت منها هذه المشكلات، والتغيرات التي طرأت عليها، وبذلك يحدد الأسباب، ويصف الحلول المناسبة.

وهكذا الحال في كل العلوم الأخرى، سواء كانت هذه العلوم طبيعية أو عقلية أو إنسانية، فكلها تهتم بالماضي، وصدق الأقدمون عندما قالوا: من لا ماضي له، لا حاضر له. حتى الأديب والفنان لا يستطيع أن يتجرد تماماً من خبراته السابقة، ومشاعره الموروثة أو المكتسبة، وكذلك الجو الذي نشأ فيه وترعرع، والتقاليد والعادات والأعراف التي عاش في ظلها، وبمعنى آخر فهو نتاج بيئته وعصره الذي عاش فيه.

معنى هذا كله أن التاريخ مناسب في شتى أنواع العلوم والفنون والآداب، مرتبط بها، متفاعل معها، ولكنه يتميز عنها من حيث اهتمامه بالماضي بالذات، بينما تتجه العلوم والفنون والآداب الأخرى إلى أغراض وغايات أخرى غير أنها تستخدم التاريخ أو تستفيد منه في سبيل تحقيق هذه الأغراض. كان الناس في سالف الزمان- والمؤرخون في مقدمتهم- يوجهون جل عنايتهم إلى الوقائع الحربية، والاضطرابات والتقلبات السياسية، وإلى القادة والزعماء والحكام والملوك والأمراء، ويعتبرون أن هذه الأمور هي لب الماضي، وجوهره الجدير بالاعتبار. غير أن التاريخ في أيامنا الراهنة أصبح يشمل الحياة البشرية الماضية بجميع مظاهرها، فأصبحت دراسة التاريخ الآن تهتم بالنظم الاقتصادية والسياسية، والعلاقات الاجتماعية، والمعتقدات الدينية، والأساليب الأدبية والفنية، مثل اهتمامها بالأحداث السياسية والوقائع الحربية.

التاريخ سيظل دائماً في عقولنا ووجداننا هو ذلك الشيخ الحكيم الجليل المجرب، القوي الذاكرة، الذي لا يخاف سوى المولى جل علاه، يقول الحق ولا يخشى في الحق لومة لائم، ومهما حاول البعض أن يجبره على الكذب أو على تزيف حقائق التاريخ، فهو يرفض ذلك في إباء وشمم، فليسجنوه أو يعذبوه، أو فليصادروا ممتلكاته القليلة، أو فليمزقوا ريشته وأوراقه، فليلفقوا له التهم ظلماً وبهتاناً، يزعمون كذباً أنه من اللصوص، أو من المزورين، أو من قطاع الطريق، أو من الإرهابيين المطلوب اعتقالهم أو التخلص منهم، أو من الذين يعييون في ذات الحكام، أو من الذين كونوا تنظيمًا هدفه قلب نظام الحكم، فينصبون له محاكمة أساسها الظلم والعدوان، والهدف معروف هو أن يتوقف عن الكلام المباح لأن الحق أضحى أمراً غير مباح، وإذا أراد السلامة والنجاة فعليه أن يتصالح أو يهادن أو يستسلم أو يبيع القضية برمتها أو يصبح من حملة مباخر السلطان. ولكن التاريخ لا يخضع، لا ينافق، لا يتزحزح عن موقفه في قول الحق، لأنه سيقول كل شيء وأي شيء، ولن يرحم أي طاغية وقف ضد الحرية والحق والخير والعدل والجمال.

وأخيراً فإن التاريخ لا يريد منا أن نعود القهقري إلى الوراء، يريد منا أن نستفيد من كل أحداث الماضي، كي نبني أسس الحاضر والمستقبل، يطلب منا أن نتلاشى سلبيات الماضي، ونتنقي إيجابياته من أجل واقع ومستقبل أفضل وأحسن لنا ولدوينا، التاريخ لا يريد منا أن نبكي على الأطلال والديار، ومنتظر الذي لا يأتي أبداً، بل يطلب منا أن ننظر باستمرار إلى الأمام، إلى المستقبل، فإله سبحانه وتعالى خلق لنا العينين في وجهنا، ولم يخلقها خلف الوجه من أجل أن ننظر دائماً للأمام لا للخلف، من أجل أن نأخذ من الماضي العبرة والعظة، والإدراك السليم، والوعي المستنير، بغية ألا نكرر أخطاء الماضي.

ملخص

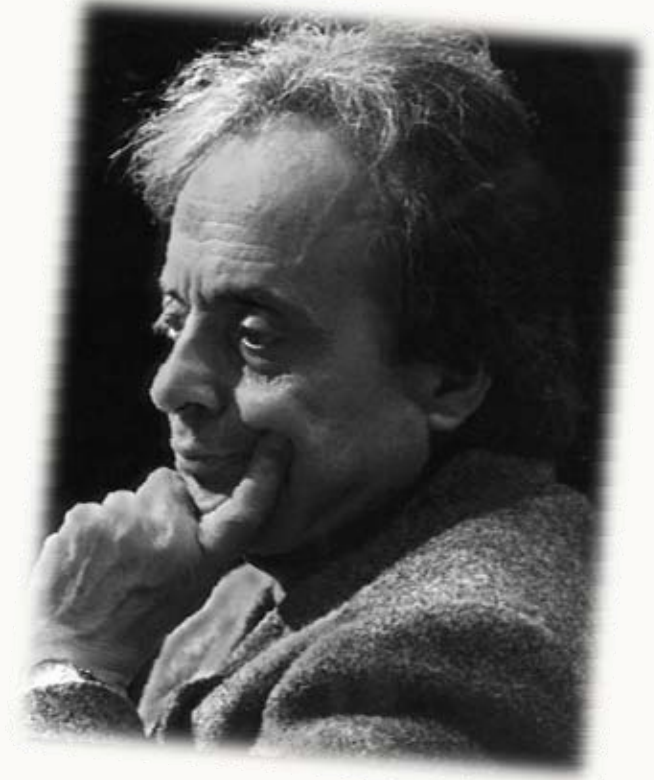
يسعى هذا البحث إلى تبيان مرجعيات أدونيس في تناولاته للنقد العربي ، ذلك أن نقده أسهم في تشكيل رؤية هدمية تجاه التراث العربي القديم عامة ، والإسلامي خاصة ، لما لهذه الرؤية من تعالقات نصية وفكرية مع المنتج الحداثي الغربي ، ثم أن هذا الناقد — أدونيس — أثار جدلاً واسعاً فيما يطرحه من أفكار في الساحتين الشعرية والنقدية في الأدب العربي ، وهذا ما حمل كثيراً من المفكرين على الوقوف على نتاجه ، فبعضهم ذهب إلى التعاطف معه ، لتوجهه إلى التغريب وبعضهم حارب أطروحاته الهدمية بشدة ، وبرزت فئة ثالثة حائرة بين بين ، وهذا ما حملتا على البحث في أفكار أدونيس النقدية ، في محاولة منا لإحداث مقاربة تجاه أطروحاته ، وصولاً إلى تجلية بعض الأمور ، وقد تبين للباحث أن أدونيس مهما حاول التملص من بعض المرجعيات التي تشير إلى مسارات إنتاجه السلبية تجاه الفكر العربي ، وتجاه تراث الأمة ، ستبقى هناك مزالق له لا يمكن تجاوزها ، والمرور عليها دونها الإشارة إلى أثرها السلبي ، الذي نرى وجوب الاحتراز منها .

يبدو من المفيد العودة لتصدير الأب "بولس نويبا" للثابت والمتحول/الأطروحة ؛ إذ يقوم على هذا التصدير كثير من التساؤلات التي يمكن اعتبارها مشروعة إلى حد بعيد ، إضافة إلى أن هذا التصدير صادر عن ذهنية استشراقية بالدرجة الأولى .

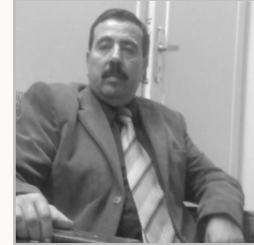
لماذا يشعر "بولس نويبا" بالحرج أمام طالب يسجل لأطروحة دكتوراه ؟ هل مرد ذلك توافق ما في البنية الذهنية لكليهما ؟ هو يحاول تصريحاً الإجابة عن ذلك ، لكن هذا التصريح قد يحتمل ما ورائيات ما ، تتوضح من خلال العرض التقديمي للأطروحة ، حيث تنهاس ذهنية "بوليس نويبا" مع طالبه فكرياً ، حول موضوع الدراسة ، يجسد تحقيقاً لمشروع — حلم — يود إنجازه ، وقد تم هذا بالفعل فيما بعد .

إن مثل هذه المشاريع (الحليمية) ، بالنسبة لمستشرق متخصص في الفلسفة والدراسات الإسلامية تمس التراث العربي ، باعتباره مركزاً قاعدياً يتأسس عليه بنية العقل العربي ، إضافة لكونها بنية تحتية "للكون الإنساني العربي" . مثل هذه الدراسات تكون لها أهمية خاصة ، لما لها من أثر ليست لدى الشعوب موضوع الدراسة حسب ، وإنما للذين يفيدون بإطلاق من مثل الموضوع . كانت مضامين الأطروحة الأساسية — كما سلف — حلماً من أحلام "بولس نويبا" وربما لدى غير واحد من المستشرقين ، وهو لم يتحمس له (المشروع) لولا فهمه الماورائي والعمقي لماهيته ، والأهداف التي قد يتمخض عنها ، بنتيجة الرحلة الاستكشافية المتوقعة في بحر التراث العربي ، إن جاز التعبير .

يشعر الأب ، أو على الأصح ، يستشعر تحقيق الحلم بطريقة منجزة من الآخر ، لاسيما وأن هذا الآخر (شاعر) له تجربة ليست باليسيرة في الشعر العربي ، وهو باحث موسوعي مطلع ؛ من هنا انبثق تحقيق الحلم على أرضية الواقع ، ولهذا نجد "بولس نويبا" يقول لطالبه (إنك ستحقق حلماً حلمته في شبابي مرتين) ^(١) ويضيف الدارس — لا بل مرات — بقدر الإلاحاحية النفسية والذاتية ، وحتى الإيديولوجية الفكرية على الموضوع .



أدونيس والفكر الهدمي الاستشراقي



د. عبد الرحيم عزام مراشدة

رئيس قسم اللغة العربية
كلية الدراسات الأدبية - جامعة جدارا
مدير تحرير مجلة جرّش الثقافية
المملكة الأردنية الهاشمية



abd_marashdeh@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الرحيم عزام مراشدة ، أدونيس والفكر الهدمي الاستشراقي .- دورية كان التاريخية .- العدد العاشر ديسمبر ٢٠١٠ . ص ٩ — ١٤ .

(www.historicalkan.co.nr)



الجيد، بل يراه مثلاً صالحاً للتابع. وكان أدونيس من التابعين لهذا اللون من الأشعار.

٣. اقتراب أدونيس من الأب في بحثه (في بنية العقل العربي)، ليؤسس لجديلة "الثابت والمتحول" في تاريخ الفكر العربي، مع تبنيه — أدونيس — للمنهج الديكارتي^(٥)، (مبدأ الشك) وهو المبدأ ذاته الذي اتكأ عليه من قبل طه حسين، في بحثه المهم في الشعر الجاهلي، الذي يضارع منهج (الأب) الهيجلي (نسبة إلى هيجل) الذي يقوم مذهبه على أساس الجدلية أيضاً.
٤. يقول "بولس نوي": (فعندما قرأت كتاب هيجل "تجليات الفكر"، لاحظت أن هيجل لم يعط أهمية للتجربة الإسلامية العربية، في مراحل تطور الفكر البشري، مع أنه لم يكن يجهلها، فتساءلت ماذا يا ترى سيكون كتاب عنوانه: تجليات الفكر العربي الإسلامي عبر تاريخه؟ وما الطريقة كتابته؟ وهل يمكن أن نفهم شيئاً من التاريخ العربي الإسلامي إذا لم يكتب هذا الكتاب؟^(٦)، هل هذا يعني أن (الأب المحترم) يود إنجاز ما لم ينجزه هيجل في طروحاته وأبحاثه حرصاً على تبيان تطورات الفكر العربي عبر تاريخه، ولماذا؟، مع أنه في نية هيجل، لم يلتفت إليه حسب "بولس نوي".

يعتقد الدارس أن القضية أبعد من ذلك بكثير، إذا ما علم المرء أن (الباحثة الأب) وجد ضالته هنا، ليتكئ عليها، ويؤسس من خلالها مشروعاً استشراقياً مهماً في الثقافة العربية، لا حرصاً على الثقافة الفكرية والتراث العربيين، بل حرصاً على مرجعيات كامنة في بنيتها العقلية الاستشراقية... وقد ظهرت الفرصة في توازي رغبة باحث آخر /وهو الطالب أدونيس/ في إتمام المشروع/ المهمة/ نيابة عن الأب وبتوجيهاته، وبذلك يكون قد تحقق أمران:

- إنجاز البحث بالكيفية (الحلم) لدى المستشرق.
- تحقيق البحث في بنية الثقافة العربية عبر تاريخها بواسطة بنية عقلية عربية، وفي ذلك تدعيم للبحث، معنوياً وفكرياً، وتنتفي بالتالي عنه ما يراه العقل العربي ك(بحث استشراقي).

الفكر الأدونيسي والتراث

يتخذ أدونيس في توجيهاته النقدية، من الرؤية الدينية وسيلة للولوج إلى الثقافة العربية، وبالتالي إلى فهم البنية العقلية العربية، وهنا ينتج التساؤل التالي: إلى أي مدى أسهمت الذهنية العربية في تثبيت المعيار الجاهلي، باعتباره المرجعية المثال لتبعية راحته تنجذب إليها على مدى عصور متتالية؟ وهذا التساؤل قد ينتج قول "بولس نوي": (إنها — يعني الرؤية الدينية — ظاهرة إنسانية لو غابت لكانت نتائجها وخيمة بالنسبة إلى التوازن الذهني، لا أقول هذا لكي أنكر دور الرؤيا — كذا — الدينية في تغلب الاتباع في الشعر، لكن ربما لم تتوصل هذه الرؤيا من فرض ما فرضته، إلا لأنها صادفت في بنية الفكر العربي ما ساعدها على تحقيق ما حققته...)^(٧)، ثم إن هذه السطور الالتفاتية للأب تثير لدى الآخر قلقاً تساؤلياً على مستوى الذهن العربي، لا سيما في عملية البحث عن العوامل الأخرى المساعدة في ترسيخ الاتباع بشكل سلطوي في الشعر.

إن أول ما يقفز إلى الذهن من العوامل، (ظاهرة القبول بالارتداد) إلى الماضي، وهي متجاوزة لظاهرة القبول للساند، التي يراها أدونيس

جاء أدونيس لإنجاز مهمة، أو على الأقل، ليسهم في إنجاز هذه المهمة (الحلم لدى الأب)^(٨) وكان أدونيس الابن الأكثر نشاطاً في حضرة أبيه، وهنا قد يبدو مناسباً التعريف "بولس نوي"، لعل ذلك يشكل مفتاحاً ما يسهم في توضيح ما نذهب إليه حول الثقافة العربية، من وجهة نظر أدونيس.

"بولس نوي" عالم استشرقي اهتم بالفكر الإسلامي، ولا سيما الأبعاد الصوفية منه، وبدأت اهتماماته هذه بعد التقائه بالمستشرق "ماسينيون" حيث كان لهذا اللقاء الأثر الفعال في توجيه "بولس نوي" نحو الحركات اللافتة في تاريخ الفكر الإسلامي، إذ كان قبل ذلك يهتم بالنقد الشعري عند العرب، ويتضح ذلك من قوله (كان حلمي أن أحاول التخصص في دراسة الشعر العربي لأميز ما فيه من الفصاحة والبلابة، ولكن لقائي بـ "ماسينيون" غير مجرى حياتي، فترك الشعر وانصرف إلى التصوف).^(٩)

انزياحات "بولس نوي" هذه وشغفه بالصوفيات لم يأت اعتباراً أو عبثاً، وإنما كان يتكئ على خلفية ثقافية، وحلم ثقافي، ينبعان من مرجعيات أيديولوجية إستشراقية؛ وبهذا يكون الانحراف عن دراسة الشعر ونقد الشعر من زاوية بلاغية له ما يبرره. لا يفوت الدارس انتماء الأب "بولس نوي" إلى (السوعية) كفرقة — إن جاز التعبير — وهي من الفرق النصرانية اللافتة في الفكر النصراني، تتجاوز الظاهر في فهمها للنصوص، وتهتم بالباطن (الماورائيات)، وكما هو معروف يوجد في الفرق الإسلامية ما يتوازي وهذا التوجه، فأهل الباطن (الباطنيون) معروفون في الإسلام، والتعلق بالتصوف، هو في الواقع يشكل انسجاماً مع البنى الفكرية التي تأسست لدى "بولس نوي"، فإذا كانت السوعية تجسد شكلاً من أشكال التصوف في الفكر النصراني، فالتصوف في الإسلام فكر واضح، وله أثر فعال في بنية العقل العربي، وبشكل ركيزة أساسية فيه، ولو حاول المرء تلمس هذا الاتجاه (الباطن — الفكري) لوجد أن أدونيس التلميذ ذهب في المنحى ذاته، بيد أنه كان الأكثر اقتراباً من الموضوع لعلاقاته البحثية، وبتوجيهاته هذه اقتراب من الأب في قضايا عدة منها:

١. حين حاول أن يسهم في كشف تحولات بنية القصيدة العربية، وتتبع مساراتها المضمونية والشكلية، وتمكن من الوقوف على بعض المفصلات المهمة عبر التراث الشعري، والفكري، لفترات تمتد منذ انبثاق الإسلام وحتى مراحل متقدمة من هذا القرن.
٢. ونتيجة لاطلاعه الواسع، وإفادته من هذه الرحلة الاكتشافية، اسهم في تحريك القصيدة العربية، والنقد العربي، باتجاه خلافي للسائد في الساحة الأدبية، ومن هنا مثلاً جاءت إسهاماته في القصيدة الحدائية والنقد الحدائي، ومهدت مع آخرين، قبل ذلك، للشعر الحديث — إن جازت التسمية — الذي سباه "بولس نوي" (المحض) فأدونيس كان يكتب القصيدة غير التقليدية — على الأقل — لكنه تعلق بها كثيراً فيما بعد^(١٠)، وربما يكون للأب دور ما في ذلك لاطلاعه على كتاب "هنري بريمون عن (الشعر المحض)، وقرآته لأشعار "مالارمي" و"بول فاليري" وآخرين، وفي المقابل كان قد اطلع على كثير من الشعر العربي؛ لهذا التفت إلى التحري عن مقاربات ما بين الشعر الغربي والعربي، وتتبع جذور مثل هذا الشعر — المحض — إن وجد ليسهم في دفعه خطوات أخرى للأمام؛ فكان يتخذ من أشعار مالارمي وفاليري ... معياراً مهماً للشعر

عند إحساس الإنسان باجترار هذا الماضي ، حتى الاجترار حالة تعويضية لأحشاء جائعة تتحرك متجاوزة السكون.

وإعادة البعث هي بمثابة إحياء بشكل أو بآخر ، وتحتاج إلى جهد لا يقل عن جهد الإبداع / وهو تأسيس الإبداع. وقد أحس غير واحد من النقاد العرب عندما أطلقوا مصطلح (الإحياء) على مرحلة "شوقي وحافظ وآخرين" ... (قالوا: إن شعر شوقي وحافظ هو من صميم مرحلة الإحياء التي تزعمها محمود سامي البارودي ، والتي قامت لتستهدف ربط حلقات التاريخ ، كانت قد انفصلت عندما نصب الشعر العربي بعد عصور العباسيين)^(١٥) ؛ ولهذا يبدو التقليد منتجا وفاعلا ، ويسهم في عملية الخلق والإبداع ؛ لأنه يتخذ بعد التحفيز ، الذي هو تجاوز للمرحلة الآن - الخاوية - وتعلق بالماضي الأقوى ، وبذا يمكن الانطلاق أو التهيؤ - على الأقل - حتى مع تأكيد "بولس نوبا" على الانقطاع عن الماضي / التراث لتأسيس الشخصية ، حيث يقول: (نحن نعلم منذ فرويد أن الابن لا يستطيع أن يكتسب حريته ويحقق شخصيته إلا إذا قتل أباه. على الإنسان العربي أن يميّز تراث الماضي في صورة الأب لكي يستعيد في صورة الابن...) ^(١٦) ، إذا كان التراث بمثابة الأب عند أدونيس ، ويجب قتله عند نوبا ، فكيف يكون شكل الانبعاث إذا؟ هل يكون من فراغ ، من غيبه؟ هل يكون من ركام مهدم؟ حتى مقولة "بولس نوبا" تتضمن فعل الاستعادة لا شعوريا ، وكأنها تحركت على لسانه (فرويديا - نسبة إلى فرويد -).

لا يكون البعث من عدم ، من غيب ، ولا بد من استعادة له: (لكل أمة في التاريخ تراث واحد لا أكثر ، كما للإنسان رأس واحد ولسان واحد ، لا يمكن الاستغناء عن أحدهما إلا في حالات الجنون والانتحار)^(١٧) ، وإذا كان لا بد من الاستعادة فإنه يمكن أن يتصور بقاء الجدلية في كيفية هذه الاستعادة... وبذا تضعف مقولة الانقطاع التام ، وبالتالي تكون المقارنة ممكنة مع ما ذهب إليه أدونيس من مراحل متقدمة من نقوده ، كقوله: (إن تجاوز الماضي لا يعني تجاوزه على الإطلاق دائما ، يعني تجاوزا لأشكاله ومواقفه ومفاهيمه ، وقيمه التي نشأت كتعبير عن الحالات والأوضاع ، الروحية والثقافية والإنسانية الماضية ، والتي يجب أن يزول فعلها بزوال الظروف التي كانت سببا في نشوئها)^(١٨).

الإنسان العربي في قتله لأبيه / التراث واستعادته في صور الابن ، يظهر وكأنه يريد التنكر للماضي ، لأنه لا بد أن يتشكل هذا المولود بعروق وراثية لأنه يمتلك شعورا جمعيًا ، من الصعب تجاوزه... حتى هذه الشخصية المنجزة ستتحول زمنا إلى تراث قابل للاستعادة ، هذا الحديث أو شبيهه سيقود إلى الطرائق التي استند عليها أدونيس ، ولاقت ارتياحا لدى أستاذه ، وربما تتضح هذه الطرق من خلال منهج أدونيس البحثي.

يظهر مسار الحداثة عند أدونيس ، منذ طروحاته الأولى والمبكرة في مجلة شعر ، على الصعيدين ، النقدي و الشعري ، فقد جاءت إسهاماته لافتة ، وكانت تبدو مختلفة إلى حد بعيد عند قياسها بغيرها من الطروحات ، ومن هنا كانت تلقى العناية والاهتمام ، من غير واحد من النقاد. وأصبحت طروحاته النقدية ، خاصة ، تتخذ أسلوبية أكثر وعيا وعمقا ، في مرحلة ما بعد شعر ، (لقد مثلت فترة ما بعد شعر ، برأي عدد من الدارسين تغييرا جوهريا في فكره أدونيس)^(١٩) ولعل مرد

في (مقدمة للشعر العربي)^(٨) ، وهذا يفترض حسب "الأب" قابلية بنية العقل العربي للتمحور حول ما كان... ثم يشي السياق بأن البعد الديني تدعم واكتسب قوته الهيمنة لوجود خلل ما في البنى العقلية السائدة ، كون هذه البنى العقلية تبدو وكأنها مهيأة بنتيجة (الفراغ الديني) - إن جاز التعبير - ويرى الدارس في المنحى الأبوي ما ينقض هذه التوجهات لدى الأب نفسه ، عند قوله بعمومية الظاهرة الارتدادية ، من حيث النكوص إلى الماضي ، بحيث تشتمل الظاهرة الإنسانية بعامه ، إذ هي ليست ظاهرة خاصة بالعالم العربي ، ثم إن الارتداد للماضي يؤدي إلى عدم التوازن في بنية العقل الإنساني. والعقل الإنساني ظاهريا - على الأغلب - محكوم بالتماس والتعلق بما كان والاتصاف بما هو كائن ، إذ ربما يجد في ذلك راحة ما ... إضافة إلى أن الساحة قبل مجيء الإسلام لم تخل تماما من (السلطوية الدينية)^(٩) ، مع التحفظ على كلمة السلطوية بهذه الصرامة.

إن الذهنية الإنسانية لا يمكن لها الابتداء علميا بما هو كائن فقط ، وهي غير منطقية بتاتا... لأن الانبثات يعني الابتداء من فراغ ، وهذا لا يستقيم والواقع ، لأن الانقطاع عبر عنه أدونيس في قوله: (لسنا من الماضي. هذا هو الخيط الأول في نسج الظل. الماضي هو سرنا. الإنسان عندنا ملجوم بالماضي. نعلمه أن يكسر اللجام...) ^(١٠) ، ثم يتراجع أدونيس بعض الشيء عن هذا القول ، ربما لإدراكه خطورة هذا الانقطاع ، وذلك في قوله في مراحل متقدمة: (إن الشعر العربي الحديث ، أيا كان كلامه أو أسلوبه ، وأيا كان اتجاهه إنما هو تموج في ماء التراث ، أي جزء عضوي منه)^(١١).

المنحى ذاته يتضح في أشعاره ، فتارة يشعر المتلقي كأنه إزاء شخصية متعلقة بالماضي ، كما في قوله:

(أكنس العيون في غباري)

أستل في ألياف الماضي فاتحا ذاكرة الأولين

أنسخ ألوانها وألوان الإبر

أعجب وأرتاح في الزرقة

يشمس تعبي ويقمر في لحظة واحدة)^(١٢)

وتارة ينسى الماضي ويتعلق بالمستقبل كما في قوله:

(قادر أن أغير لغم الحضارة - هذا هو اسمي)^(١٣)

وقوله:

(سيدتي أنا اسمي الغد الذي يقترب - الغد الذي يبتعد)^(١٤).

إن العودة للماضي ليست دائما عودة سلبية بإطلاق ، ولا تشكل ثباتا أو سعيا نحو الثبات بإطلاق ، كما يرى "الأب بولس نوبا" ، و "أدونيس" بالنسبة لها يسمى بعصر النهضة ، فالارتداد للماضي على مستوى الشعر والنقد في هذه الفترة بالذات ارتداد إيجابي لانهاية البنى القاعدية الأساسية الصالحة للانطلاق ، والبعث والعودة هنا تكون تأسيساً وبناءً ، ولا عودة نكوص وهدم ، وحتى المفهوم الأدونيسي للهدم ينطبق على هذا العصر ، فالهدم هنا (هدم انبناء) - إن جاز التعبير - لا هدم انحاء ، هدم فينقي تموزي. وهذا ما حصل بالنسبة لعصر النهضة (من وجهة نظر الدارس).

يتجلى الحنين إلى الماضي في غياب الحاضر المنتج الدافع ؛ فالإنسان في طبيعته يحن للماضي وهي ظاهرة إنسانية - حسب نوبا وعلماء النفس - لا سيما إذا كان الحاضر / الزمن دون الماضي خاصة

ذلك إلى تركيز بحثه في التراث العربي بأسلوبية لم يعتدها آخرون من النقاد، مما حملت غير واحد من النقاد على تناولها، سلباً أو إيجاباً، تبعاً لوجهات النظر لكل منهم.

يبدو أن أهم هذه الطروحات ما جاء به أدونيس في كتاب "الثابت والمتحول" الذي نشر شيء منه قبل الستينات، فهذا علي الشرع يقول: (والحقيقة أن جزءاً كبيراً من هذا العمل قد نشر في فترة الستينيات، أي قبل انتظام أدونيس في برنامجه الأكاديمي للحصول على درجة الدكتوراه).^(٢٠)

هذا الكتاب جاء في فترة هامة، لعلها تكون بداية إطلالة المثقف العربي على الحداثة بمعناها الواسع والتي وفدت إلى المنطقة من الغرب، فكان طرح الكتاب في الساحة النقدية العربية، بهذه الكيفية المنصبة على دراسة التراث العربي النقدي، خاصة، مثار جدل واسع، حرك معه الساحة النقدية وحفزها لإفراز العديد من الدراسات والنقود الهامة، نذكر منها على سبيل المثال، مقالات رفعت سلّام في كتابه "بحثاً عن التراث العربي"^(٢١)، ونبيل سليمان في كتابه الموسوم "مساهمة في نقد النقد"^(٢٢) وكاظم جهاد في كتابه الموسوم "أدونيس منتحلاً"^(٢٣) الخ.

إن تناول مسألة الحداثة عبر التراث النقدي العربي، جاءت عند أدونيس في مرحلة بالغة الحساسية، حيث طرحت مسألة التراث في الساحة العربية بقوة، وراح النقاد يتناولونها بطرق مختلفة، ولكن وفق ما يبدو، ضمن خلفية أيديولوجية وسلطوية على الأغلب، فبعضهم وقف إلى جانب التراث متمسكاً بأصوله وقداسته، نظراً لخلفيتهم الإسلامية، واعتقادهم أن التمسك بالأصول التراثية واجب ديني، ومثال هذا التوجه نجده عند فكتور سحاب مثلاً، في كتابه الموسوم "ضرورة التراث" الذي يبدو منه النفس الإسلامي ولهذا انبرى للدفاع عن "التراث الإسلامي، وبعضهم حاول أن يواجه الفكر المعاصر، تماشياً مع مستجداته الحضارية، ومثال ذلك محمد عابد الجابري في كتابه الموسوم: "في بنية العقل العربي" الذي أثار جدلاً واسعاً حول الطريقة التي تناول بها التراث.

يبدو أن أدونيس كان من أوائل الباحثين في التراث العربي: النقدي، الشعري، الفكري، بهذا الأسلوب الجديد. صحيح أن هناك من تناول التراث بطرق مختلفة في هذه المرحلة مع هذه البدايات لأدونيس، لكن دراساتهم كانت تبدو وكأنها تسير وفق أيديولوجية مسبقة، فدراسات حسين مروه، تقوِّح منها الروح الاشتراكية، نظراً لخلفيته السياسية وكذلك الحال يبدو محمد دكروب ومثله حسن حنفي... الخ، من هنا، تبدو دراسات أدونيس الأكثر توفيقاً على الصعيد النقدي، لصدورها عن باحث له خلفية شعرية ونقدية عميقة ومتمثلة لفكرة الحداثة.

لاشك في أثر المرجعية الغربية في فكر أدونيس النقدي، والتي تتضح أحياناً بشكل واضح في تسييره لخطاب الحداثة النقدية "وحتى الشعرية" لديه، هذا إضافة إلى مخزونه من القراءات في التراث العربي، حيث لا يمكن استبعاد المصادر الغربية نهائياً في مقولاته وطروحاته، وهو يصرح بذلك في غير مكان، فهذا هو يقول: (لا أظن أحداً يمكن أن يقول إن ربنه شار، مثلاً، أو سان جون بيرس، أو ميشو، أو جوف، أو تولج، أو بريتون أو بونفوا، أو دوبرشية، أكثر

حداثة من هيراقليطس، أو نيتشه، أو هولدرين، أو غوته، أو رامبو، أو بودلير، أو مالارميه، أو لوتر يامون، إلا بالمعنى الزمني، وهذا الذي أقوله فيما يتعلق بالكتابة الشعرية الفرنسية، (وأقوله قصدياً لأن هذه الكتابة هي مرجعيتنا الحداثية الأولى وهذا ينطبق تماماً على الكتابة الشعرية العربية، فليس أبو نواس، أو أبو تمام... أكثر حداثة من جلجامش أو امرئ القيس إلا بالمعنى الزمني)^(٢٤)، ثم إن أدونيس يؤمن بأن الحداثة نتاج اندماج ثقافات، والحداثة العربية هي: (لقاء ديالكتيكي بين ثقافتين عربية وغربية)،^(٢٥) هذا الحشد من الأسماء الغربية، التي ترجم لها أدونيس، أو اطلع على كتاباتها، على الأقل، هي التي أسهمت في حداثته، وأفاد منها الحداثيون العرب، ومن وجهة نظر غير واحد من النقاد العرب، وأدونيس منهم، وقد كان أكثرهم اتهاماً بهذه الإفادة والاتكاء على الثقافة الغربية، حتى أن بعض النقاد عابوا عليه هذا المنحى، وذهبوا إلى رصد ما يتعلق بالطروحات الغربية في كتاباته، وعابوا انزياحاته إلى الحداثة الغربية، بهذه الكيفية الواضحة، وبعضهم اتهمه بانتحال أفكار النقاد الغربيين، أو على أقل تقدير صياغتها بلغة عربية.

يقول جهاد كاظم: (ثمّة نادرة بصدد أدونيس المهتم بالشعر العربي مفادها: أن الرجل يعيد طبعاً ما لغيره، تلخص هذه الصيغة بالطبع ما يقعون عليه من شعره، هنا وهناك، من أصداء لأعمال الآخرين، يعيد هو معالجتها أو يذيبها في نسج لفته)^(٢٦)، ولم يكتف الناقد بذلك، بل راح يعرض لنصوص أدونيس، التي راح يقابلها بنصوص لكتاب غربيين لإثبات ما أسماه "انتحالا"، ولا يود الدارس أن يدحض بعضها تحت ما يسمى "التناس" إلا أن ذلك يشكل إشارة واضحة إلى خلفية أدونيس ومرجعياته الحديثة المستقاة من الغرب، وإن كان من الصعب لمهمة خيوط هذه المرجعية في طروحاته النقدية، خاصة، إلا نادراً والسبب في ذلك عدم الإشارة إلى مصادره.

وهذا ما لاحظته، أيضاً، نقاد آخرون؛ فهذا سامي مهدي يقول: (ولا يفوتنا أن نشير، قبل التوغل في هذا البحث — يعني دراسة لمجلة شعر — إلى إحدى الصعوبات التي واجهتنا أثناء ذلك، وهي: أن أدونيس لا يشير على الإطلاق إلى مصادره الأجنبية، أي مصادر المفاهيم التي يقتبسها، وكأنه يعتمد أن يقطع على الباحثين سبيل الوصول إليها)،^(٢٧) إن تعيب مثل هذه المصادر وتوثيقها قد يكون معيياً لكن هذا لا يلغي دور أدونيس في تلمس الحداثة والاسهام بها عربياً، فهي أن لم تكن نقلت بعض المفاهيم للحداثة الغربية، فهي، على أقل تقدير قد عرّفت القارئ العربي بها، ودفعته للتفكير في مضامينها وممارستها.

ويرى الدارس مع غيره، أن أدونيس من أوائل النقاد العرب الذي أسهموا في الحداثة العربية وفي تأسيسها، مصطلحاً ومفهوماً، وجهده في ذلك يصعب نفيه إن لم يكن مستحيلاً. وهذا ما يشته بعض النقاد أيضاً، رغم معارضتهم لبعض أفكاره الحديثة. يقول سامي مهدي: (إذا لم يكن أدونيس أول من أدخل مصطلح الحداثة بمفهومها الشائع اليوم إلى الأدب، فانه أكثر من شغل به، ومن حاول إيجاد معادل نظري له، وذلك يصح القول، مع بعض التحفظات، بأن "الحداثة" في الأدب العربي، من حيث هي مفهوم شامل لمصطلح محدد، أطروحة أدونيسية)^(٢٨).

يبدو أن أدونيس عاش في محيط عائلة متواضعة ، أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى ، وربما لهذا السبب تأخر عن اللحاق بالمؤسسات التعليمية ، كما رأى بعض الدارسين^(٣٣) ، حيث لم يلتحق بالتعليم إلا في الرابعة عشرة من عمره ، وهو يصرح بذلك في قوله: (أنا لم أدخل المدرسة إلا في سن الرابعة عشر ، وقبل ذلك كنت في الكتاب أقرأ القرآن وأتعلم الخط .. وكنت قوياً جداً في قواعد اللغة العربية ، رغم أنني كنت طالبا متفوقاً ومحبوباً ، فإني كنت أشعر بالوحدة وبأنه علي أن أقوم بشيء ما يكون مختلفاً).^(٣٤) وكذلك في قوله: (لقد لفتني والذي منذ الصغر الكثير عن كبار الشعراء العرب ، كامريء القيس ، والمتنبي ، وأبي تمام ، وكثيرين غيرهم).^(٣٥) ومثل هذه المقولات تكشف عن:

- أثر البيئة الريفية في تكوين شخصيته ، لاسيما البيئة المتواضعة الفقيرة ، التي تجعله متحفزاً للتغيير. وقد يبدو تأخر التحاقه بالتعليم حافزاً للتعويض والعمل بألية مكثفة ليشق طريقه في الحياة.
- كان لمرجعيات الأب دور واضح في الرغبة بتوجيه الابن باتجاه الأدب ، لكن الشعور بالوحدة على حد قول أدونيس حملته على الالتفات لمسألة الاغتراب وإظهار نفس التحدي لديه.

لم يكتف أدونيس بما تعلمه في بيئته ، وبما يتلقنه تلميذ في مدرسة ، بل حاول السعي لأكثر من ذلك بكثير ، فهي هو يحاول تعلم لغة أخرى تعينه على تنمية الحس الاغترابي وتعينه على كشف كثير من المجاهيل ، لاسيما في محاولته للتعرف على أدب الغرب اللغة الفرنسية يقول: (بدأت بديوان "أزهار الشر" لبودلير ، ليتني احتفظت بالنسخة التي استخدمتها ، لأرى فيها العناء الذي كابدته ، استخرجت معاني كلماتها كلها تقريباً من المعجم...)^(٣٦) هذه الممارسة جعلته يتمكن من الفرنسية في زمن قياسي ، فكان وكأنه يسابق الزمن ليعوض ما فاتته من انقطاع عن المدرسة.

بعد أن تمكن من اللغة راح يفكر في السفر إلى خارج القطر السوري ، فكانت المحطة الأولى في لبنان ، وقد أصاب في تفكيره هذا لما حصل عليه من نتائج ، وقد ظهرت حصيلتها فيما بعد حيث انطلق بوهج لافت من بيروت ، حيث كانت بيروت إحدى عواصم الثقافة العربية ، على الأقل ، يقول أدونيس عن بيروت لحظة الوصول: (أذكر أنني ذهلت وفوجئت ولأحسست وكأنني ضائع تماماً).^(٣٧)

أما التحول الجذري لدى أدونيس فقد ظهر بعد انخراطه في الأجواء الأيدلوجية في عوالم بيروت ، حيث التحق بالحزب القومي السوري ، وأعجب بفكر أنطون سعادة ، وآمن بفكرة سوريا الكبرى التي قادته إلى أول تغريب فكري والتأثر بفكرة البعث والتجديد التي شاعت في أساطير الفينيقيين واليونان ، وما إلى ذلك ، تلك الأفكار التي عزف على أوتارها كثير من الشعراء من أمثال السياب والبياتي .. الخ ، إضافة لذلك كانت الأجواء السياسية مهيأة لانطلاق مثل هذه الأفكار فقد كان الفكر الشيوعي والإشتراكي شائعاً على مدى الساحة العربية ، وكانت بيروت تعج بتلاقح كثير من الأفكار الأيدلوجية.

لم يخف أدونيس تأثره بهذه الأجواء ، وقد صرح بذلك عند عرضه لكتاب أنطون سعادة بقوله (قد أطلقت نسبياً في عرضه — يعني الكتاب

الحدثا التي تسعى إلى إثباتها أدونيس ، وحاول بثها في العالم العربي ، جاءت مشبعة بروافد من الفكر الاستشراقي ، وقد بدت آثار هذه الروافد من خلال معالجة أدونيس للحركات الإسلامية ، لاسيما المتمردة منها على الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية ، حيث رأى فيها المحرك الفعلي لعجلة التغيير والتطور.

إن الاستشراق بمفهومه الغربي خاصة ، جعل من المقولة الأدونيسية في الفكر العربي مقولة هدمية وبنائية في آن ؛ فحركة الهدم في هذه المقولة ، سعت إلى خلخلة السائد والقار لدى الكثيرين من المتلقين والقارئ للتراث العربي ، والسبب في ذلك تركيز أدونيس على السلبيات وعلى مواقع الضعف في التراث ، وكان يكمن وراء هذا التركيز إيمان هذا الباحث بأفكار المستشرقين وبفكرة الشك التي نادى بها ديكرات ، ولم يكن أدونيس هو الباديء بهذا التوجه ، في العالم العربي ، فقد سبقه إلى ذلك طه حسين وأستاذه المستشرق مارغليوث.

أما الجانب البنائي والإيجابي في المقولة الأدونيسية ، في الفكر العربي ، فقد أفادت من حركة النقد في العالم ، لاسيما الجانب المتعلق بالشعر الحديث ، إضافة إلى تطور حركة الترجمة في العالم العربي ، التي أسهم فيها أدونيس ، حيث ظهر إلى جانب آخرين بوصفه ناقداً وشاعراً دافعاً لحركة الشعر والنقد في العالم العربي ، فهذا أنسي الحاج يقول: (يبقى أدونيس هو المثال الأبرز على الحدثا العربية).^(٣٨) يبدو هذا صحيحاً إذا ما أخذ بعين الاعتبار الطروحات الفكرية والنقدية والمقالات المنشورة حول الحدثا في النتاجات العربية حتى المترجمات المهمة.

ملحق: (نشأة أدونيس)

يرتأي الباحث الحالي هنا أن يقدم موجزاً لحياة أدونيس ، ويتوقع أن يسلط بذلك الضوء على بعض الجوانب التي يمكن لها أن تكون مؤثرة في مسيرته الإبداعية ، وتحولات البنية الفكرية لديه.

جاء في العدد الثاني من مجلة شعر: أدونيس ، أو علي أحمد سعيد ، ولد في "جبله" بسوريا ، عام ١٩٣٠ ، وترجم له غير واحد من النقاد ، وأفاد معظمهم أنه قد ولد في قرية (قصابين) ؛ فهذا الدكتور علي الشرع مثلاً يذكر في ترجمته: (ولد أدونيس ، علي أحمد سعيد أسبر ، الشاعر السوري في قرية قصابين القرية الجبلية التي تقع بين اللاذقية وطرطوس في سنة ١٩٣٠).^(٣٩)

وفي مقابلة مع أدونيس أجراها نوري فيلتر يقول: (ولدت في ١٩٣٠ في قرية بالغة الفقر ، بالغة الانعزال اسمها قصابين قرب اللاذقية ، في سوريا. موضع فقير على أنه ثري بالنور ، مادام يبعد مسافة سبعة كيلو مترات عن شواطئ المتوسط. ومع هذا فلئن كنت في إدراكي للناس والأشياء ، أظن ذلك الريفي الصغير من قصابين أقصد إذا كانت رابطتي الأصلية بـ "لحم" الأشياء تظل في جوهرها ريفية ، فإن الأرض لا يمكن في نظري اختزالها إلى مجال الطفولة وحده. إنني أمتح الأرض بعداً ممتافيزيقياً ، هي في آن الملكوت الأخير للإنسان وهي فضاءه الأول)^(٤٠) ، ويبدو أن المجلة "شعر" حدث لديها لبس فيما يتعلق ببلد المولد ، حيث أشارت إلى البلدة المجاورة لقرية قصابين ، كما وضع أدونيس من خلا رسالة موجهة للباحث الحالي^(٤١).

— لأنه هو الذي كان صاحب الأثر الأول في أفكاري وفي توجهي الشعري ، ولأنه بالإضافة لذلك أثر تأثيراً كبيراً في جيل كامل من الشعراء ، بدءاً من سعيد عقل وصلاح لبكي ويوسف الخال وفؤاد سليمان ، وانتهاءً بخليل حاوي ، لكي لا أسمى غير الشعراء الأكثر تمثيلاً للمرحلة الشعرية التي نشأت فيها^(٣٨). هذه الأرضية الفكرية أثرت كثيراً في سحب أدونيس باتجاه الاستشراق والدراسات التي تتعلق بفهم فكر الشرق ، ومن خلال اطلاعه المتواصل على الآداب الغربية والترجمة منها تمكن من شق طريقه المختلفة في الساحة الأدبية العربية ، وهذا ما أعطاه خصوصية لافتة.

ومع دراساته وتحضيره لأطروحة الدكتوراه بدا وكأنه وجد ضالته القصوى بتعرفه على أستاذه بولس نوبيا المستشرق الذي كان مشبعاً بالفكر الإستشراقي المستقى من ماسينيون ، كما هو موضح في متن البحث. لقد شكل هذا الجو التعليمي في الجامعة الانطلاقة القصوى في تكوين فكره الحدائي والمتأثر بشكل واضح بالأبعاد الإستشراقية والتي راحت تتوضح فيما بعد من خلال طروحاته النقدية والفكرية وحتى الشعرية.

الحواشي

- ١- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول ، ج ١ ، بيروت ، دار العودة ، ط ٤ ، ١٩٨٣ ، ص ٩.
- ٢- لا أعني هنا البعد الديني لكلمة أب فقط ، بل يضاف إليها ما أمكن من المفهوم العرفي والاجتماعي والفكري.
- ٣- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول ، ج ١ ، ص ٩.
- ٤- راجع ما صدر عنه من أشعار حيث ضمن كثيراً في المجموعة الكاملة ، الصادرة عن دار العودة (!) ، ١٩٨٨.
- ٥- يقول ديكاوت : (أنا أشك إذا أنا موجود) ويبدأ من هذه الجدلية لفهمه للحياة والوجود.
- ٦- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول ، ج ١ المقدمة.
- ٧- المصدر السابق.
- ٨- أدونيس (علي أحمد سعيد) مقدمة للشعر العربي ، بيروت ن دار العودة ، ١٩٧٩ ، ص ٣.
- ٩- عبادة الأصنام هي لون من ألوان الدين ، إضافة إلى وجود النصرانية وبقايا اليهودية ورواسب من ديانات أخرى شائعة في حينها.
- ١٠- أدونيس (علي أحمد سعيد) زمن الشعر ، دار العودة ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٢٥.
- ١١- أدونيس (علي أحمد سعيد) في الشعرية ، مجلة الكرمل ، ع ٣ ، ١٩٨١ ، ص ١٤١ ، وقد أقيمت هذه المقالة في المركز الثقافي الدولي بالحمامات في تونس ، وأضافها أدونيس إلى كتابه الشعرية العربية الصادر عن دار الآداب عام ١٩٨٥.
- ١٢- أدونيس (علي أحمد سعيد) الأعمال الكاملة ، ج ١ ، بيروت ، دار العودة ، ط ١٩٨٨ ، ص ٥٠ ، ص ٤٠٥.
- ١٣- المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٣.
- ١٤- المصدر السابق ، ص ١٦٨.
- ١٥- العشماوي (محمد زكي) دلائل القدرة الشعرية عند شوقي ، مجلة فصول ، مجلد ٣١ ، ع ١ ، ١٩٨٨ ، ص ١١.
- ١٦- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول ، ج ١ ، ص ١٦.
- ١٧- الماغوط (محمد) قضايا الأدب والأدباء ، ع ١ ، ١٩٦٢ ، ص ٧٥.

١٨- أدونيس (علي أحمد سعيد) مقدمة للشعر العربي ، ص ١١٥.

١٩- المصدر السابق ، ص ٤١.

٢٠- الشرع (علي) بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٨٧ ، ص ٢٢.

٢١- المصدر السابق ، ص ٢٦.

٢٢- سلام (رفعت) بحثاً عن التراث العربي ، بيروت ، دار الفارابي ، ١٩٨٩. وبعض المقالات المنشورة له في المجلات العربية لاسيما ما تعلق منها في الأدب والتراث في مجلة الآداب.

٢٣- سليمان (نبيل) مساهمة في نقد النقد ، الللاذقية ، دار الحوار ، ١٩٨٦.

٢٤- كاظم (جهاد) أدونيس منتحلاً ، المغرب ، دار أفريقيا الشرق ، ١٩٩١.

٢٥- أدونيس (علي أحمد سعيد) النص القرآني وأفاق الكتابة ، دار الآداب ، ١٩٩٣.

٢٦- أدونيس (علي أحمد سعيد) فاتحة لنهايات القرن ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٥.

٢٧- كاظم (جهاد) أدونيس منتحلاً ، ص ٢٧. لمزيد من المعلومات يمكن مراجعة النصوص النقدية والشعرية لأدونيس ، والمقابلة بينها وبين الأصول الغربية. وهناك غير ناقد قد أشار لهذه القضية ، منهم على سبيل المثال: المنصف الوهابي ، وعادل عبد الله ، وسام مهدي.

٢٨- مهدي (سامي) أفق الحداثة وحداثة النمط ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٨ ، ص ١٥٧ ، ويفرد سامي مهدي في هذا الكتاب نصوصاً لأدونيس يقابلها بنصوص لكتاب غربيين ، ولكن بحدية أقل من جهاد كاظم.

٢٩- المصدر السابق ، ص ٢٩.

٣٠- الشرع (علي) بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس ، دمشق اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٨٧ ، ص ٩.

٣١- جهاد (كاظم) ، أدونيس منتحلاً ، الدار البيضاء ، دار أفريقيا الشرق ، ١٩٩١ ، ص ١٦٣.

٣٢- في رسالة من أدونيس موجهة للباحث ، جاء فيها (ولدت في قصابين ، وهي قرية مجاورة لجلبة / المدينة- والإلتباس يعود إلى هذه المجاورة ، الرسالة مؤرخة في ١٩٩٢/١٢/٢٨. راجع الرسالة في صدر كتابنا: أدونيس والتراث النقدي ، اربد ، دار الكندي ، ١٩٩٥.

٣٣- راجع مثلاً الشرع ، بنية القصيدة القصيرة ، ص ٩ وما بعدها.

٣٤- المصباحي (حسونة) حوار مع أدونيس ، مجلة فكر وفن ، ع ٤٥ ، ١٩٨٧ ، ص ٤٥.

٣٥- أبو كف (أحمد) حوار مع أدونيس ، مجلة الهلال ، ع ٩ ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٥.

٣٦- أدونيس (علي أحمد سعيد) ها أنت أيها الوقت ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٣ ، ص ٢٤.

٣٧- المصباحي (حسونة) حوار مع أدونيس ص ٤٥.

٣٨- أدونيس (علي أحمد) سعيد هانت أيها الوقت ١٠٧.



من مؤلفات الدكتور عبد الرحيم مرashed:

- الفضاء الروائي / الرواية في الأردن أنموذجاً ٢٠٠٢ ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية وصدر ضمن سلسلة كتاب الشهر.
- منازل النص / خالد الكركي ناقدًا وأديبًا صدر عام (٢٠٠٧) صدر بدعم من وزارة الثقافة الأردنية .
- (شفيق ارشيدات حياته وفكره الثقافي- جمع وتحرير بدعم من وزارة الثقافة) ، منشورات ملتقى أربد وبدعم من وزارة الثقافة الأردنية عام ١٩٩٧ .

الجوسسة الفرنسية في الجزائر في العصر الحديث والمعاصر "الجاسوس ليون روش"



جيدل عبد العزيز

ماجستير التاريخ الإسلامي الحديث

جامعة الإمام الأوزاعي

بيروت - الجمهورية اللبنانية

Aziz.16@live.com

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

جيدل عبد العزيز ، الجوسسة الفرنسية في الجزائر في العصر الحديث والمعاصر: الجاسوس ليون روش - دورية كان التاريخية - العدد العاشر ؛ ديسمبر ٢٠١٠. ص ١٥ - ١٨. (www.historicalkan.co.nr)



ليون

روش الذي سنتناول جانباً من حياته في الجزائر قبل التحاقه بجيش الأمير (١٨٣٢ - ١٨٣٧) هو شخصية مغامرة يمتلك ذكاءً حاداً وجراً في نشاطه المستمر ، ومما سهل له الأمر هو معرفته الجيدة للغة العربية التي تمكن من خلالها من فهم ذهنيات وعادات المسلمين ، وأن يكون من ألمع الذين مروا على هيئة المترجمين العسكريين ، والذين ساهموا في تقديم خدمات جليلة للجيش الإفريقي ، وزيادة على تلك الخدمات التي قام بها في مجال الدبلوماسية في المغرب على أحسن وجه .

ولد ليون روش في مدينة غرو نوبل بفرنسا في ٢٧ سبتمبر ١٨٠٩م / ١٢٢٤هـ من أبوان فرنسيين وتوفي في نفس المدينة في ٢٦ جوان ١٩٠١م / ١٣١٩هـ بدأ دراسته في ثانوية غرو نوبل ، وأتمها في ثانوية تورنون التي نال منها شهادة البكالوريا سنة ١٨٢٨م / ١٢٤٤هـ كما دخل معهد الحقوق في غرو نوبل لمدة ستة أشهر وكان واسع الطموح ميالاً إلى المغامرة بعد أن انقطع عن الدراسة واتصل بأحد التجار بمدينة مرسيليا ، الذي كان صديقاً قديماً لأبيه ، وقد كلفه هذا التاجر بمهمة تجارية مكنته من زيارة كل من كورسيكا وسردينيا وجنوه ، وقد كان عمره آنذاك واحد وعشرين سنة كما زار جل أنحاء إيطاليا الشمالية.^(١)

وكان أبوه روش الفونس ملحقاً بخدمات العتاد العسكري في الجزائر وذلك منذ الحملة الفرنسية في شهر جويلية ١٨٣٠م / ١٢٤٦هـ وقد اهتم بالعمل الفلاحي في ضواحي الجزائر وكون مزرعة في سهل متيجة ، ونظراً لتعدد مهامه كتب إلى ابنه ليون يطلب منه الحضور إلى جانبه ليساعده في الفلاحة بعد أن غاب عنه مدة أربع سنوات ، وقد لبى روش رغبة أبيه وغادر مدينة مرسيليا في منتصف سنة ١٨٣٢م / ١٢٤٨هـ على متن باخرة فرنسية تحت قيادة السيدان "ماريون" و"لوقراند" وقد وصل بعد رحلة دامت اثني عشر يوماً إلى ميناء مدينة الجزائر.^(٢)

واستقر في منزل أبيه في منطقة إبراهيم راييس وسط الأهالي الجزائريين وبقايا الأتراك ، والحضر على بعد ستة كيلومترات من مدينة الجزائر تقريباً ، وكانت مزرعته تتسع إلى ٢٠٠ هكتار يقوم بخدمتها بعض الأهالي ولكي يساعد والده كان لابد على روش أن يتعلم اللغة العربية ، يقول روش أنه اندفع إلى تعلم اللغة العربية ليستطيع التكلم مع فتاة جزائرية كان قد عشقها ، والأرجح أنه كان مجبوراً على تعلمها للاتصال مع الذين يعملون في مزرعة أبيه ، فقد كان ملزماً بذلك قبل التعرف على هذه الفتاة التي تدعى خديجة.^(٣)

ولم يتأقلم روش مع البيئة الجزائرية إلا بعد مرور قرابة نصف سنة ، تعرف خلالها على إحدى النساء الحضريات ، تدعى نفيسة يقول روش أنها أرملة وكيل الحرج (وزير البحرية) ، ما قبل الأخير لدى آخر دايات الجزائر.^(٤) وكانت تملك المقاطعة المجاورة لأبيه كان عمرها ستين سنة ، يقول روش أنها كانت تربطها علاقة حب قديمة مع أحد الأوربيين فأحسن استقباله ، فأصبح يزورها باستمرار ، كما كانت تحتضن أبناء وكيل الحرج.^(٥) الذي خلف ابنة من امرأة جرجية واسمها خديجة ، وهي تحسن القراءة والكتابة باللغة العربية ، هنا تعرف عليها روش وأحبها هذا بالنسبة لأول اتصالات روش بالأهالي. أما عن اتصالاته بالأوربيين فيذكر أنه قضى كل الفترة الواقعة ما بين شهر نوفمبر ١٨٣٢م / ١٢٤٨هـ ، وشهر أوت ١٨٣٣م / ١٢٤٩هـ في الخروج

الاحتلال كانت فرنسا تستقدم المترجمين من الجيش المصري (مثل ديلا بورت ، والأب زكار).^(١٤)

ويبدو أن عدم وجود مترجمين يحسنون اللغة العربية بلسان الجزائريين ، قد ساعد على تعيين روش ترجمانا محلّفا للجنة من طرف السيد لورنس ، وذلك زيادة على أن القانون كان لا يعترف بأية اتفاقية أو تعهد يقع بين الأهالي والأجانب بدون حضور مترجم محلف بينهما ، كما كانت مهمة روش تقضي بشرح مصطلحات الملكية في الإسلام وتفسير الشروط المقترحة من الطرفين ، غير أن ما تعلمه من اللغة العربية لم يكن كافيا لأداء هذه المهمة على أكمل وجه ، فعمل على زيادة جهوده في تعلمها وإتقان مصطلحاتها ، وصار يقضي الليالي الطوال في فك ألغاز الأسماء العربية القديمة ، والمصطلحات الاقتصادية القارية وغيرها ، ومما ساعده أكثر هو مساعدة أستاذه عبد الرزاق الذي سهل عليه تناول المفردات اللغوية المتعلقة بعلم القانون والخصومات في الإسلام.^(١٥)

وهنا تجدر الملاحظة : أن روش لم يكن جدياً في تعلم اللغة العربية وذلك ليكون هدفه الأول منها مغالطة عشيقته كما ذكر ، إلا بعدما عرف فوائدها المختلفة إذ فتحت له باب رزق لم يكن يحلم به أو يخطر على باله من قبل ، وأغلب الظن أنه كان يدرك جيداً مدى حاجة البلاد إلى مترجمين قادرين وأكفاء على أن يكونوا الخيط الرابط بين الفرنسيين والأهالي ، فحرص على إبراز شخصيته أمام عضوي اللجنة الإفريقية السابقين الذكر ، كما أنه كان يتقاضى ما يزيد على ألف فرنك شهرياً في مقابل المهام المريحة التي يقوم بها.^(١٦)

حيث أنه كان يقوم عادةً بترجماته والخدمات التي أسندت إليه ، فاستطاع حينئذ مساعدة أبيه في الناحية المالية أيضاً لانجاز مشاريعه الفلاحية^(١٧) ، وقد كان الجيش الفرنسي كله سنة ١٨٣٢م/ ١٢٤٨هـ عند وصول الدوق دي روفيقو إلى الجزائر يضم أربعة مترجمين لا غير جديرين بأداء مهمتهم ، ولما تم إحضار قنصل فرنسا من طنجة ، السيد "دي لا بورت" ليشغل منصب المترجم الرئيسي الأعلى في جيش إفريقيا في الجزائر ، ويعطي دروس للمترجمين ومراقبة تقدم مستواهم ورفعهم ، لاحظ لسيد دي لا بورت أن أغلبية المترجمين لا يعرفون القراءة والكتابة.^(١٨)

ويبدو أن الضرورة والحاجة الماسة والملحة ، قد أدت إلى تعيين ليون روش في منصب مترجم رئيسي محلف في الجيش الإفريقي من طرف المارشال كلوزيل نفسه سنة ١٨٣٥م/ ١٢٥١هـ وذلك لكونه ضابطاً في فرقة الحرس الوطني وإتقانه للغة العربية أحسن من غيره ،^(١٩) وقد اصطحب روش المارشال كلوزيل في حملته على المدينة ١٨٣٦م/ ١٢٥٢هـ وهو ترجمان عسكر محلف ، وما إن بدا المارشال يتأخم ثنية موزاية حتى باغت العرب جيوشه ، فتصدى لهم النقيب قاستي (رئيس فرقة الصبايحية) ، فتغلب عليه العرب وهزموا جنوده ، وسقط حاستي أو قاستي جريحاً بين العرب ، فأغتاز المارشال من هذا الوضع وأمر ضباطه السبعة عشر الذين يكونون موكبهم ، بالهجوم عليهم وفك النقيب جاستي من قبضتهم ، وكان روش ممتطياً جواده الأسود أول من وصل إلى النقيب جاستي فوجده ممدوداً على الأرض وسيف أحد العرب على رقبته ، وهو دامي الوجه لأن أحد الرصاصات اخترقت خديه فكسرت فكه ، فلما انشغل العرب عنه بالحرب أردفه روش على حصانه ، ورجع به إلى المارشال ، فشكره هذا الأخير ورفع من شأنه.^(٢٠)

إلى الصيد مع عدد من الضباط الفرنسيين ينتمون إلى فرقة القناصة كان قد تعرف عليهم بواسطة السيدين ماريون ولوجراند السابقين الذكر ، كما تعرف على بعض ضباط البحرية أيضاً.^(٢١)

وفي منتصف سنة ١٨٣٣م/ ١٢٤٩هـ قدمه والده إلى كل من الدوق دي روفيقو^(٢٢) حاكم الجزائر العام آنذاك ، والسيد "حانتي" مسؤول المصالح المدنية ، والسيد "كوتان" رئيس بلدية الجزائر ، وفي هذا الوقت تم إنشاء هيئة الحرس الوطني ، فعين ليون روش برتبة ملازم في فرقة الفرسان الخيالة ، وكانت هذه الفرقة ترافق الجنرال في الحملات القصيرة التي كان يقودها في منطقة هضاب متيجة.^(٢٣)

وحسب ليون روش فقد تعرف على رئيس مجلس قضاء الجزائر حين ذاك فدعا هذا الأخير لتناول وجبة الغداء معه ، فخرج روش من عنده متحمساً لتعلم العربية لهدفين أساسيين بالنسبة له: الأول ، هو التمكن من مساعدة أبيه في الاتصال بأجرائه في المزرعة ، والثاني هو التحاور مع عشيقته خديجة ، فدلته العجوز نفيسة على أستاذ مسلم جزائري الدار أندلسي الأصل كان صديقاً قديماً لزوجها ، واسمه عبد الرزاق ابن بسيط ، ورغم أن الأستاذ لا يعرف اللغة الفرنسية ، وليون يجهل العربية ، فقد استطاع هذا الأخير وفي مدة ثمانية أشهر حسب قوله أن يتكلم مع أستاذه باللغة العربية فأحبه لفطنته وسرعة ذكائه. ولم يكتفي ليون بدروس أستاذه فقط ، بل راح يمرن لسانه على التكلم بالعربية في المقاهي الشعبية وحضور جلسات قضاء المسلمين والخروج مع الفلاحين أجراء أبيه إلى الصيد ، فانطلق لسانه وصار يتكلم لغة الأهالي ويفهمها ، فقد عمت علاقته بهم. ويقول روش أنه راسل خديجة عن طريق أستاذه وزوجته ، بالاتصال مع مسعودة خادمة خديجة ، وحسب رأي الدكتور يوسف مناصربه الذي يقول: "أنه يستبعد تدخل الأستاذ في الموضوع لأن اختراق حرمة رجل مسلم محرم في الإسلام خاصة إذ كان الأستاذ مسلماً كما أكد روش بنفسه".^(٢٤)

ولم ينقطع روش عن زيارة العجوز نفيسة لعله يسمع عن أخبار عشيقته ، فتعرف في بيتها على أحد الجزائريين يدعى سيدي محمد بن عمر باشا.^(٢٥) وكان هذا الرجل (محمد بن عمر باشا)^(٢٦) في حاجة ماسة إلى وساطة لقضاء حاجة له عند الحكام الفرنسيين ، فساعده روس ونال بذلك صداقته وإخلاصه ، حتى أن ابن الباشا عرفه على زوجته "عائشة" وذكر روش أنها قريبة الحاج احمد باي قسنطينة ، ومن كثرة محبتهم واحترامهم له كانت ابنتهم تناديه (عمي ليون).^(٢٧)

وتوطدت العلاقة حتى أن روش صار يقضي ليلاته كلها ساهراً وإلى ساعات متأخرة من الليل مع سيدي محمد بن عمر باشا وعمر أخيه ، ولما توفي عمر باشا وترك زوجته حاملاً ، حيث عند وضعها الحمل أطلقت عليه اسم عمر ، ولما قدمت اللجنة الأفريقية الأولى^(٢٨) إلى الجزائر سنة ١٨٣٣م/ ١٢٤٩هـ لتبحث أحوال الجزائر وتقدم تقريراً للحكومة الفرنسية بعد عودتها ، وقد تلقى روش الأب زيارة بعض أعضائها وعلى رأسهم السيدان "بيسكاتوري" و"لورانس" ، وكان هذا الأخير مكلفاً بتنظيم شؤون العدالة ، وحضر هذا الاستقبال الذي جرى في منزل ألفونسو روش بإبراهيم رايس ، عدد من الجزائريين ربما أن المناقشة كانت تدور باللغة الفرنسية ، فقد كلف روش نفسه مهمة القيام بالترجمة بين أعضاء اللجنة والعرب الحاضرين ، ونظراً لطلاقة لسانه فقد اعتقد أعضاء اللجنة أنه قدم من المشرق ، وذلك لأنه في بداية

والجيش الفرنسي من جهة ثانية، وتذكر المصادر أن والده روش ألفونسو قد استطاع أن يلغي تعاقده ابنه مع الجيش الفرنسي.^(٢٦) وهنا تنبأ إلى الذهن الأسئلة التالية: إذا كان أبوه قد استطاع أن يمنعه من أن يصبح ضابطاً في الجيش الفرنسي لماذا لم يقدر على رده عن الالتحاق بدولة الأمير عبد القدر، هل كان لا يريد الخير لفرنسا، ويفضله للأمير فوافق أو سكت على الأقل، على أن يلتحق ابنه ليون روش بجيش أو دولة الأمير ليدمه بدل فرنسا، أم هل كان التحاقه بالأمير في ظل سلم معاهدة تافنا أنفع للبلاد فيجلب المعلومات عن أحوال الأمير السياسية والعسكرية والاقتصادية بدل من أن يلتحق بالجيش الفرنسي فقتل أو يقتل.^(٢٧)

وللإجابة على هذه الأسئلة يجب العودة إلى مراسلاته (روش) من معسكر الأمير في واد نوغة، وتلمسان، والمدينة، ومعسكر، ومن اتصالاته مع القنصل الفرنسي في معسكر، واتصالاته مع الفارين الفرنسيين الذين كانوا في خدمة الأمير فيها بين سنوات ١٨٣٧-١٨٣٩م / ١٢٥٣ - ١٢٥٥هـ وهي الفترة التي أقام فيها روش عند الأمير.

المراجع والمصادر

- (1) Léon roches. Trente deux ans a travers l'islam. t1 et 2. paris (1884. 1885) pp (79)
- (2) Marcel. Emerit ، (la légende de Léon roches)، revue africaine .t91, 1947 pp (81. 105)
- (3) Narcisse. Faucon. Le livre d, or d'Algérie. 1830 - 1889 paris .1889. pp (473. 475)
- (٤) ربما اختلط الأمر على روش ما بين وكيل الحرج والأغا ولذلك اعتقد انه يقصد إبراهيم ١٨٢٩م إلى ١٨٣٠ م صهر الدي حسين آخر دايات الجزائر ١٨١٨م إلى ١٨٣٠ م عينة الداوي خلفا ليحيى أغا الذي شغل منصب الأغا مدة ١٢ سنة ونفاه الذي بتهمة التدبير للاستيلاء على الحكم وكان إبراهيم أغا ضعيفا لا يعرف خداع الحرب ففشل أمام القوات الفرنسية بقيادة دي بور مون في معركتي سيدي فرج وسطوا لي سنة ١٨٣٠ م فعزله الداوي حسين وعين مكانه بأي التيطري (منصب الأغا يعادل منصب رئيس القوات المسلحة) انظر: حمدان بن عثمان خوجة ، المرأة ، تعريب العربي الزبيري ، الجزائر ١٩٧٥م ص: (١٨٣. ١٩٩)
- (٥) الظاهر أنها ابنة بأي التيطري الذي خلف إبراهيم أغا ويستبعد أن تكون ابنة يحيى أغا، لأن هذا الأخير لما عزل نفى إلى البليدة فمن الطبيعي أن يكون قد اخذ عائلته معه وذلك لكثرة أعدائه من كبار المسؤولين.
- (6) Emerit (la légende de Léon roche ...) pp (81.105) Roches. Op. Cit. .t.i pp (16. 20)
- (٧) سياسي وعسكري فرنسي، ولد سنة ١٧٧٤م في مارك استوفريار (إقليم الأردن)، شغل منصب الحاكم العام في الجزائر ما بين ١٨٣١ م و ١٨٣٣ م، وتوفي سنة ١٨٣٣م اثر مرض أصابه بباريس تميز حكمه بالعنف العسكري وسفك الدماء.
- (8) Roches. Op. Cit. t1. Pp (22. 27)
- (٩) تزوجت خديجة من أحد أثرياء مسلمي الجزائر فاخذها معه إلى مدينة ملبانة، أنظر:
- Léon. Roches. Dix ans à travers l'islam (1834. 1844) préface de mcarraby. Paris. 1904. pp (22 - 23)
- (١٠) حمدان بن عثمان بن خوجة ، المرأة ص (١٥١ ١٥٢)
- (١١) كان أبوه عمر باشا قد حكم الجزائر في ١٨١٥ إلى سنة ١٨١٧ م خلفا للخز ناجي الحاج عمر باشا حكم هذا الأخير يوما واحدا إثر مقتل الباشا علي

وقد جاء في كتاب السيد نرسيس فوكون (كتاب الجزائر الذهبي) حديث للسيد جاستي ، الذي أصبح جنرالاً فيما بعد يقر فيه بجميل روش وماله من فضل عليه بعدما أنقذ حياته ، كما يقول ليون روش أن المارشال كلوزيل أمره بأن يصحب الجنرال ديمشال إلى المدينة ، كترجمان عسكري محلف فامتثل لأوامره ودخلوا المدينة ولم يباشروا أية معركة ضد الأهالي ، فالتقى روش بأحد أصدقائه الجزائريين^(٢١) ، كان قد تعرف عليه في الجزائر عند محمد بن عمر باشا ، وكان يدعى سيدي محمد قائد البويرة فدعاه هذا الأخير لتناول العشاء معه ، ولما إستئذن روش الجنرال في ذلك وافقه شريطة اغتنام الفرصة لجمع المعلومات حول محمد بن حسين الذي رشحه الجنرال بايا مواليا لفرنسا في المدينة ، خاصة وإن كان سيدي محمد قائد البويرة نائباً لهذا الباي ، ولما حضر محمد بن حسين في بيت قائد البويرة ، تحدثا في شأن تعيينه على المدينة وكان ذلك في حضور روش.^(٢٢)

ومن هنا يثبت لدينا أن روش كان قد مارس الجوسوسة قبل التحاقه بالأمير عبد القادر في شهر نوفمبر ١٨٣٧م / ١٢٥٣هـ، ولما عاد إلى الجنرال أخبره أن فكرة تنصيب محمد بن حسين بايا على المدينة لا تخدم مصالح فرنسا ، ولا يتغير بمقتضاها الوضع السائد في هذه المنطقة أو الإقليم ، لأن الأهالي كلهم ساططون عليه بل ستنتج عن هذه الإجراءات أتعاب كثيرة للباي نفسه ، كما سيتسبب ذلك في مخاطر للكراغلة حلفاء فرنسا في المنطقة ، وكان الباي محمد بن حسين كثير الاتكال على القوة الفرنسية لحمايته ، حتى أن الجنرال نفسه أحس بهذا الشعور ، ولما خلت المدينة من سكانها ولم يبق فيها إلا الكراغلة واليهود ، بذل الجنرال واسع جهده في إقناع الفارين وطمانتهم فلم يفلح رغم القوات التي كانت معه والأسلحة التي وزعها على الكراغلة.^(٢٣)

ولما فشلت كل محاولات الجنرال ، فوض ليون روش للاتصال بأحد قادة قبيلة وزرة الذين أتوا للقائه ، وعرف روش من القائد أن القبائل لا تريد لا الفرنسيين ولا الباي الذي عينوه ، ولما عاد المارشال كلوزيل إلى الجزائر ألغى مشروع تنصيب الباي محمد بن حسين على المدينة وكذلك باي ملبانة ، ثم أن المارشال كتب تقرير إلى وزارة الحربية ضمنه قائمة خاصة بضباطه الذين شاركوا في الحملة وكان اسم ليون روش موجوداً فيها وذلك حسب قول روش ، ولكن هذه القائمة ليس لها وجود ضمن مراسلات المارشال كلوزيل التي جمعها السيد جابريال ايسكيرفي (جزائري)، وأغلب الظن أنها تكون قد أرسلت كملحق لتقرير المارشال وهو ما دفع إلى عدم نشرها.^(٢٤)

وقد واصل ليون روش مهمته كترجمان محلف في الجيش الإفريقي ، وكانت أحداث الحملة على المدينة قد رسخت في ذهنه خاصة حادثة النقيب جاستي ، التي شارك بسببها لأول مرة في معركة ضد الأهالي ، فخلفت لديه طموحات جديدة تجاه الحياة العسكرية ، وكانت أمنيته الوحيدة أن يكون ضابطاً في الجيش ، وزادته تشجيعات الكولونيل ماري^(٢٥) اندفاعاً لتحقيق أمنيته وبلوغ مرامه. وهو ما يثبت نيته في القضاء على الأهالي الجزائريين (روش)، وليس كما يزعم لها ألتحق بدولة الأمير أنه رجل سلم يريد حضارة بلاده في الجزائر ، وصار روش يتساءل إذا كان سيدخل كضابط في فرقة الصبايحية التي تأثر بها وفنتته مغامراته مع النقيب جاستي ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه عجلة الحرب تدور بين جيش الأمير والأهالي الجزائريين هذا من جهة

من إصدارات ٢٠١٠ كتيب

الممالك والقبائل الآرامية في الجزيرة السورية

المؤلف: الأستاذ خليل اقطيني

مدير مكتب صحيفة تشرين بالحسكة

الجمهورية العربية السورية

الناشر: الإصدارات الشخصية الخاصة

دمشق ٢٠١٠ (٢٤٠) صفحة من القطع الكبير

ويضم الكتاب بين دفتيه أحد عشر فصلاً، تسلط الأضواء على الشعب الآرامي ذي التاريخ العريق والحاضر المشرق (!؟). والذي تجاوزت حضارته منطقة الجزيرة السورية، إلى جميع مناطق الجزيرة بأقسامها الثلاثة الأعلى والأوسط والأسفل، ومعظم مناطق الشرق الأدنى، في وادي الفرات وبلاد ما بين النهرين وصولاً إلى دولة البحرين على الخليج العربي. وامتد إشعاعه الحضاري إلى ما هو أبعد من ذلك، من خلال أبرز نتاج قدمه للبشرية وهو اللغة الآرامية، التي وصلت واستعملت في بلاد فارس وأشور وحتى مصر وغير ذلك من البلدان. ولأن الشعب الآرامي من أكثر الشعوب غموضاً وإثارة للجدل، فإن هذا الكتاب يحاول الإجابة عن العديد من الأسئلة التي تثار حول هذا الشعب. فمن هم الآراميون ومن أين جاؤوا وأين انتشروا واستقروا وما هي الدول والممالك والإمارات التي أنشئوها في الجزيرة السورية، وكيف كانوا يعيشون ويمارسون حياتهم في السياسة والاقتصاد والثقافة والعمارة والدين وما إلى ذلك، وما هي المجالات التي برعوا فيها؟. ولا ينسى في النهاية أن يحاول الإجابة عن أهم الأسئلة، وهو هذا الشعب أين ذهب وماذا حل به وما هو مصيره وهل هو مستمر في الوجود حتى الآن. وبالتالي من هم خلفاؤه في المنطقة؟. ومن خلال الإجابات التي يقدمها عن هذه التساؤلات، يحاول المؤلف الإحاطة بواقع الشعب الآرامي وحضارته الموعلة في القدم.

غسول الذي دام حكمه من سنة ١٨٠٩ إلى ١٨١٥م والذي قتله في أول يوم من حكمه وفي عهد عمر باشا تعرضت الجزائر لحملة إكسموث سنة ١٨١٦م انظر: عثمان خوجة ، المرأة ص ١٥١ ، ١٥٢

(12) Roches, op. cit. t1, pp22-27

(١٣) وصلت اللجنة الإفريقية الأولى إلى الجزائر في ٢ ديسمبر ١٨٣٣م (١٢٤٩) وكان هدفها هو جمع المعلومات التي تنير الحكومة الفرنسية عن حالة الجزائر الحاضرة وعن مستقبلها بالإضافة إلى الوفود المدنية والعسكرية في الجزائر والمستوطنين ، وقد استقبلت اللجنة الإفريقية وفود أعيان العرب الحضريين ، لتوضيح أهم مهمتها وكان رئيسها هو الجنرال بوني وكاتبها هو السيد بكساتوري النائب في البرلمان انظر : أبو القاسم سعد الله ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال الطبعة الثانية القاهرة ، ص ٩٧

(14) Roches, op. . Cit, pp48-51

(15) Ibid., pp 50_51

(١٦) يوسف مناصرية ، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب ١٨٣٢ ، ١٨٤٧م (بدون طبعة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٩٠) ص ١٧

(17) Roches, dix ans, pp 22,27

(١٨) كان أغلب المترجمين العسكريين في بداية الأمر (سنة ١٨٣٢م) لا يرغبون في مواصلة هذه المهمة وكان عددهم واحدا وعشرين مترجماً ، واحد منهم فقط يعرف الكتابة باللغة العربية ، ويتكلم قليلاً اللغة الفرنسية ولما عجز دي لا بورت أن يكون فكرة مهم ، قرر الجنرال دي روفيقو أنه ابتداء من أول جانفي ١٨٣٣م أن المترجمين سيخضعون إلى امتحان عسير أمام لجنة تكون تحت رئاسة هيئة الأركان العامة ، فتم إبلاغ وزارة الخارجية التي أبلغت قناصل المشرق (فرنسا) أن يبلغوا النداء إلى كل من يريد الدخول في هيئة المترجمين في جيش إفريقيا أنظر:

Féraud, op. Cit

(19) Faucon K le livre d, or t1, pp473-475

Emerit, (la légende) pp81-105

(20) Roches, dix ans, pp 22 -27

(٢١) يوسف مناصرية ، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب ١٨٣٢ ، ١٨٤٧م ، ص ١٨

Faucon, le livre d, or, pp473-475

(22) Roches, 32ans, t1, pp 52-58

(23) Ibid. , pp 52-58

(٢٤) يوسف مناصرية ، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب ١٨٤٧ ، ١٨٣٢م ، ص ١٩

(25) Marey —Monge

جنرال فرنسي ولد في نويتش (فرنسا) في ١٧ فيفري ١٧٩٦م ومات في بومارد (فرنسا) في ١٣ جوان ١٨٦٣م وقد كان ضابطاً في المدفعية الفرنسية حتى سنة ١٨٣٠م وشارك بعدها في الحملة الفرنسية على الجزائر هذه السنة انضم إلى فرقة الخيالة ، ونظم أول فرقة الصباحية في الجزائر وترقى في رتبة جنرال سنة ١٨٤٨م ، كما شغل منصب الحاكم العام للجزائر مابين جوان ونوفمبر من نفس السنة ، ولم يوضح روش نوع التشجيعات ، والظاهر أنه يكون قد شجعه معنوياً على الدخول في صفوف الجيش الفرنسي ووعده بتقديم يد المساعدة.

(26) Roches, 32ans, t1, pp52-58

(٢٧) يوسف مناصرية ، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب ١٨٣٢ . ١٨٤٧م ، ص ٢٠ ، ١٩.

المخلص:

يمثل التراب مكانة كبيرة في منشآت الكثير من المدن الإسلامية ، فهو يستعمل في حالته الطبيعية بعد خلطه مع مواد أخرى كثيرة أهمها الماء ، فتنج أنواع مختلفة من مواد البناء ، منها الملاط والطوب المجفف في الشمس ، والتراب المدكوك في قالب خشبي (الطابية) . وكثر استعمال الطابية في بلاد المغرب الإسلامي حتى أصبحت التقنية الأكثر حضورا في معظم المباني خلال بعض الفترات التاريخية ، وخصها الكثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين المسلمين بالحديث في سياق وصفهم لمنشآت المدن . وتعتمد هذه التقنية على رص التراب ومواد أخرى بين لوحين خشبيين ينقلان أفقيا وعموديا إلى غاية إتمام بناء الأسوار ، وللتغلب على تأثير العوامل الطبيعية عليها كالماء والرطوبة استعملت الحجارة في بناء الجزء السفلي من السور المنجز بها ، وغطيت الأسطح الخارجية لها بصف من الآجر .

اكتسب التراب مكانته كمادة أساسية في البناء عبر العصور لسهولة الوصول إليه والحصول عليه باعتباره يشكل نسبة ٧٤% من القشرة الأرضية ، فهو يتوفر في أقرب موقع من البناء ، فنادرا ما تكون الحاجة لشرائه أو جلبه من مناطق بعيدة^(١) . ويستعمل في حالته الطبيعية بعد خلطه مع مواد أخرى كثيرة أهمها الماء ، فتنج أنواع مختلفة من مواد البناء ، منها الملاط للربط بين مواد البناء وتكسيته ، والطوب المجفف في الشمس ، والتراب المدكوك في قالب خشبي (الطابية) .

والطابية هي تقنية تنجز بقالب يملء بالتراب المضاف له الجير ومواد أخرى ، اختلفت تسميتها من منطقة لأخرى ، ففي المغرب الإسلامي عموما كانت تسمى بالطابية وجمعها طوابي ، وتحرف تسميتها في بعض المناطق منه حسب اللغة المحلية السائدة بين سكانها مثل تاطبيت في منطقة القبائل في الجزائر^(٢) ، وتغير تسميتها تماما في مناطق أخرى منه ففي بعض مدن المغرب الأقصى سميت باللوح أو تلوح^(٣) نسبة للقالب الخشبي الذي يستخدم في البناء بها ، أو بالركز^(٤) نسبة إلى طريقة البناء بها التي تعتمد على الركن أو الدك . أما في إسبانيا فقد كانت تسمى بـ Tapia و Tapial ، وفي البرتغال تسمى بـ Taipa^(٥) ، وفي فرنسا يطلق عليها اسم Pisé^(٦) .

وهي من أقدم التقنيات التي استعملها الإنسان في مبانيه ، والأكثر حضورا في مباني شمال إفريقيا والأندلس منذ العصور القديمة^(٧) ، وساد استخدامها أكثر عند المسلمين وشملت كل أنواع العمارة بما فيها العسكرية والمدنية والدينية^(٨) ، وفي المغرب الإسلامي زاد الاعتماد عليها أكثر في العهد المرابطي ثم الموحدي حتى أصبحت التقنية الأكثر حضورا في البناء ، إلى جانب تقنيات الإنجاز بالحجارة والآجر ، التي انحصرت استعمالها في أماكن قليلة جدا من المبنى ككل^(٩) .

ويمكن الاستدلال عن كثرة وأقدمية استعمالها في بلاد المغرب الإسلامي بأوصاف بعض الجغرافيين والمؤرخين للمدن كما يلي:

- ابن حوقل (توفي ٣٨٧هـ/٩٧٨م): عدد مدن كثيرة استعملت فيها تقنية الطابية^(١٠) ، منها:

* سرت (ليبيا): "وسرت مدينة ذات سور صالح كالمنيع من طين وطابية ..."



البناء بالتراب في بلاد المغرب الإسلامي تقنية الطابية نموذجا



د. إسماعيل بن نعمان

أستاذ محاضر في الآثار الإسلامية

جامعة بوزريعة (ولاية الجزائر)

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



bennamane69@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إسماعيل بن نعمان ، البناء بالتراب في بلاد المغرب الإسلامي: تقنية "الطابية" نموذجا - دورية كان التاريخية - العدد العاشر ديسمبر ٢٠١٠ ص ١٩ - ٢٦ (www.historicalkan.co.nr)



انتشر استعمالها في مناطق واسعة من هذه البلاد حتى أصبحت التقنية الأساسية في بناء العمارة العسكرية ، خاصة خلال القرنين ١١م و١٢م^(٢٣).

١- وسائل البناء بهذه التقنية:

يتطلب البناء بها توفر عدة عناصر أساسية مترابطة هي القالب والخليط الذي يملأ داخله والمركز الذي يدك به الخليط والبناء ومساعديه ، ووسائل أخرى تزيد وتنقص حسب خصوصيات الموقع وكذا مراحل البناء والتقاليد المطبقة في المنطقة المستعملة فيها.

١-١- القالب:

عن: A.BAZZANA, L'Architecture ..., p.199.



شکل 01: قالب تقنية الطابية بعد تركيب أجزائه

عن : معرض أقيم في قصبية الأردنية
باليارات خلال
سنة 2006



الصورة 01: قالب تقنية الطابية في المغرب الأقصى

القالب هو مكعب مستطيل الشكل مفرغ من أعلى وأسفل ، تتراوح مقاساته بين الأربعة أذرع طولاً والذراعين عرضاً^(٢٤) ، أي ما يساوي تقريباً المترين طولاً والمتر عرضاً ، وتختلف هذه المقاسات من منطقة لأخرى ففيمما يخص طوله في الأندلس مثلاً يتراوح بين ١.٨٠م إلى ٤.٠٠م^(٢٥) ، وفي المغرب الأقصى بين ١.٤٠م إلى ١.٨٠م^(٢٦) ، وفي بلاد القبائل في الجزائر يصل إلى حوالي ٢.٥٠م^(٢٧) ، في حين يتباين العرض من مكان لآخر حسب نوع المبنى ، ففي المنشآت المدنية يكون أقل مما ذكره ابن خلدون ويتراوح بين ٠.٤٢م إلى ٠.٥٢م وهو ما يعادل ذراع واحد تقريباً ، ويصل في المنشآت العسكرية إلى ١.٣٠م في الأسفل ويتقلص إلى ما بين ٠.٤٢م و٠.٤٦م في الأعلى^(٢٨) . وبينما جاء الارتفاع - الذي أهمل ابن خلدون ذكره - متغيراً من منطقة لأخرى ، ففي المغرب الأقصى مثلاً لا يتجاوز الـ ٠.٧٠م^(٢٩) ، أما في الأندلس فقد بقي ثابتاً طيلة الفترة الإسلامية بين ٠.٨٢م و٠.٩٦م وهو ما يعادل الذراعين^(٣٠) ، وهي نفس مقاسات العلو المستخدمة في مدينة تنس

* قصر الفلوس (غرب الجزائر): "... وقصر الفلوس وإن كانت مدينة محدثة فلها سور وهي لطيفة جداً ، وسورها من تراب طابية ...".
* مجانة (شرق الجزائر): "... ومنها إلى مجانة مدينة ذات سور من طابية ...".

* طبنة (شرق الجزائر): "... ومنها إلى طبنة مدينة قديمة ... ولها سور من طابية ...".

- ابن حيان (٣٣٧هـ-٤٦٩هـ/٩٨٧-١٠٧٦م): ذكرها أثناء حديثه عن مدينة بطليوس^(٣١): "وقام في ذلك أهل بطليوس كبرى مدائنهم ... وكان سور قصبتهن إلى ذلك الوقت مبنياً بتراب الطابية المرزوم بالمداموس ...".

- ابن حماد (٥٤٨-٦٢٦هـ/١١٠٥-١٢٣٠م): أشار إليها عند ذكره مدينة صبرة التي سماها المنصورة (قرب مدينة القيروان التونسية) المبنية سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥-٩٤٦م ، حيث قال في هذا الصدد: "وفي سنة ٣٣٤هـ بنى صبرة ... وبنى سورها بالطواي وجعل لها أربعة أبواب..."^(٣٢)

- الإدريسي (٥١٠هـ/١١٧م): ذكرها بصيغة الجمع طواي ، وبمادة بنائها التراب^(٣٣):

* مراکش (جنوب المغرب الأقصى): "مدينة مراکش ... وإنما بناؤها بالطين ، والطوب ، والطواي المقامة من التراب ...".

* طبنة: "... وعليها سور من تراب ...".

- ابن عذاري المراكشي (توفي بعد ٧١٢هـ/١٠٧٦م):

تكلم عن سور مدينة رقادة (قرب مدينة القيروان التونسية) بقوله: "وبنى زيادة الله سور مدينة رقادة بالطوب والطواي ..."^(٣٤).

وأهمل ذكرها كل من البكري وصاحب كتاب الاستبصار ، وقد يكونا لا يفرقا بينها وبين الطوب باعتبار مادتهما واحدة وهي التراب.

- أبي عبيد البكري (٤٨٧هـ/٩٤م): ذكر بعض المدن معروفة بسورها المنجز بالطابية^(٣٥) ما يلي:

* سيرت سورها من طابية وقال عنها: "مدينة سرت وهي مدينة كبيرة على سيف البحر عليها سور طوب ...".

* مدينة فكان (غرب الجزائر) سورها من طابية وقال عنه طوب: "وعلى مدينة فكان سور طوب وبها جامع وحمامات ...".

- صاحب كتاب الاستبصار (ق.١٢هـ/١٢م): قال عن سور مدينة طبنة الذي هو من طابية "وهي مدينة كبيرة قديمة عليها سور من طوب..."^(٣٦).

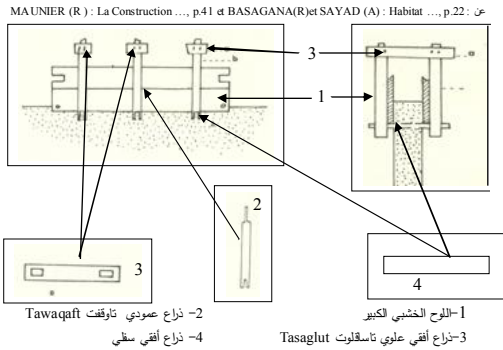
- عبد الرحمن بن خلدون: هو الأكثر اهتماماً بها وقد خصها بالوصف والتحليل في مقدمته وبين تقنية استخدامها في البناء^(٣٧).

وبترتيب هذه الأوصاف زمنياً فإن أقدم تاريخ لاستعمال هذه المادة البنائية في بلاد المغرب الإسلامي يعود للقرن ٤هـ/١٠م ، حسب أقوال كل من ابن حوقل وابن حماد وابن حيان ، وما زالت أمثلتها مجسدة في الكثير من مدن المغرب الأوسط كهنين^(٣٨) ، وتلمسان^(٣٩) ، وتنس (تأسست سنة ٢٦٥هـ/٨٧٥م)^(٤٠) ، ومدن المغرب الأقصى كمراكش وفاس والرباط^(٤١) ، وسجلماسة (تأسست حوالي سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م)^(٤٢) وغيرهم كثير ، وهذه المدن تبين أن أقدم استعمال لها في المغرب الأقصى هو القرن ٢هـ/٨م ، وفي المغرب الأوسط هو القرن ٣هـ/٩م.

ويعتقد أن الأندلسيون يمثلون المصدر الأساسي لقدمها إلى بلاد المغرب ، حيث استخدموها في بعض المدن التي استقروا فيها ، ثم

يفتحان ولا ينفلقان أثناء ملء الحيز المحصور بينهما بالخليط ، طولها يفوق طول اللوحين الجانبيين بقليل ليتسنى ربط كل اثنان منها إلى بعضهما في الأعلى بالحبال ، وهي أقل سمكا في الأجزاء السفلية حتى يسهل إدخالها في الثقب الموجود في الأذرع الأفقية ، وأكثر سمكا في الأعلى لتمنع صعود الحبل الرابط بين الذراعين ، وتسمى في منطقة سكورة المغربية بـ **تَامَنْضُوتْ** ^(٣٧) ، وفي بلاد القبائل بالجزائر يختلف شكلها عما ذكر سابقا ، فهي قليلة السمك في الأعلى ومحفورة في وسطها طوليا في الأسفل حتى يتم ربطها بالأذرع الأفقية العلوية والسفلية ، وتسمى فيها بتاوقفت **Tawqaft** ^(٣٨) .

- **الأذرع الأفقية**: يقدر عددها بثلاثة توضع فوق السور مباشرة وطولها يفوق عرض القالب ، وسمكها واحد مع وجود ثقبين طويلين في الجزأين الجانبيين البارزين منها خارج القالب ، وهذان الثقبان كافيان لإدخال الأذرع العمودية وأكثر حتى يتسنى الزيادة والتقليل من عرض السور وتثبيت اللوحين الخشبيين الجانبيين في وضع واحد من الأسفل . بينما انفردت بلاد القبائل بوجود ستة أذرع أفقية ، ثلاثة منها توضع أسفل القالب فوق السور مباشرة شكلها بسيط وغير مثقوبة وسمكها يساوي الفراغ الناتج عن حفر الأذرع العمودية في الأسفل وهو ما يسمح بتثبيتها مع بعض ، والثلاثة الأخرى مثقوبة الطرفين ومخصصة لربط الأذرع العمودية في الأعلى عن طريق إدخال الجزء العلوي منها داخل الثقب وتستعمل عوضا عن الحبل الذي سيذكر لاحقا ، وتسمى هذه الأخيرة في منطقة القبائل بالجزائر بتاساقلوت **Tasaglut** ^(٣٩) ، وفي منطقة سكورة المغربية بالشكل ^(٤٠) .



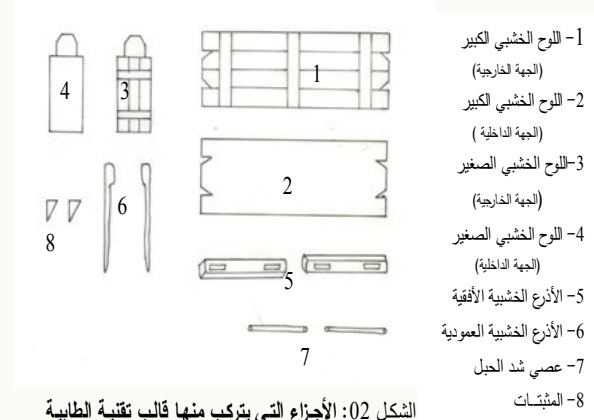
الشكل 02: الأجزاء التي يتركب منها قالب نكتية الطابية

* **المثبتات**: أهمل ابن خلدون ذكرها وهي قطعة خشبية صغيرة مثلثة أو مخروطية الشكل توضع في المكان المتبقي من الثقب الموجود في الأذرع الأفقية بعد وضع الأذرع العمودية ، وتساعد على التحكم في زيادة وإنقاص عرض القالب وذلك بإدخالها جزئيا أو كليا في الثقوب المشار لها سافا.

* **الحبال**: وهو العنصر الوحيد الذي لا يصنع من الخشب تتركز وظيفته في ربط الأذرع الخشبية العمودية إلى بعضهما في الأعلى ، ولحسن تثبيت هذا الحبل حفر حوز عميقة في كل ذراع خشبي فوق نهاية القالب بقليل ، ليزيد سمك هذا الجزء من الذراع أكثر فيمنع الحبل من الخروج إلى الأعلى بعد ربطه في مكانه ، ويسمى هذا الحبل في منطقة سكورة المغربية بـ **بازيكر** ^(٤١) ، ويعوض في منطقة القبائل في الجزائر بذراعين خشبيين مثقوبان كما سبقت الإشارة إليه.

الواقعة في غرب الجزائر ^(٣١) ، بينما وصل إلى ٠.٧٥ م في بلاد القبائل في الجزائر ^(٣٢) .

ويتركب القالب من عدة قطع أغلبها مصنوع من مادة الخشب ، وصفها ابن خلدون بقوله "ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقداران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير ، وأوسطه أربع أذرع ، في ذراعين فينصبان على أساس ، وقد بوعد بينهما على ما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر ، ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين" ^(٣٣) ، ويمكن ذكر قطع القالب سواء التي ذكرها ابن خلدون أو لم يذكرها فيما يلي:



الشكل 02: الأجزاء التي يتركب منها قالب نكتية الطابية

* **اللوحين الخشبيين الكبيرين**: وهما اللوحان المحددان لطول القالب ويثبتان بشكل متوازي على الامتداد الطولي للسور ، ويتكون كل واحد منهما من ترتيب مجموعة ألواح خشبية ذات سمك صغير وارتفاع قصير فوق بعضها أفقيا ، وتشد بثلاثة أو أربعة ألواح من نفس سمكها وأقصر منها مرتبة في وضع عمودي ، وهو ما ينتج عنه سطح خارجي غير مستو بسبب بروز الألواح العمودية ، وسطح داخلي مستو وأملس يمنع الخليط من الالتصاق به ويسهل عملية سحبها بعد جفافه ، ويسمى كل لوح منهما في منطقة القبائل بالجزائر بـ **تيووكفين** **Tiou'afine** ^(٣٤) ، وفي منطقة سكورة المغربية بـ **أفرون** ^(٣٥) .

* **اللوحين الخشبيين الصغيرين**: وهما اللوحان اللذان يحددان عرض القالب ويسدان الفراغ الجانبي الناتج عن تثبيت اللوحين السابقين ، ويشكلان بنفس طريقة اللوحين الكبيرين مع تغيير المقاسات لتناسب مع العرض والطول المطلوب ، ويمدد ارتفاعهما في الوسط أكثر من ارتفاع القالب للحصول على مقبض يسهل به تركيبهما في مكانهما وسحبهما منه ، كما يتميزان بنفس خصائص اللوحان الكبيرين من حيث السطح الخارجي والداخلي ، وفي غالبية الأحيان يستعمل لوح واحد فقط منهما ، نظرا لكون إحدى الجهتين مسدودة بالجزء المنجز سابقا من السور ، وتسمى في منطقة سكورة المغربية بالجهة الأولى والجهة الثانية ^(٣٦) .

* **الأذرع الخشبية**: اكتفى ابن خلدون بذكرها وتوضيح مكانها بأنها تثبت عموديا مع السطح الخارجي للقالب ، ولم يبرز أنواعها وطريقة تثبيتها في القالب ، وهي على نوعين:

- **الأذرع العمودية**: يبلغ عددها ستة موزعة عند طرفي اللوحين الخشبيين وفي منتصفهما ، وتشدهما إلى بعضهما في وضع ثابت فلا

ما ، وبمزجه بالماء تنتج طينة قليلة المرونة ، لكنها تميل إلى التماسك دون تفتت^(٥٥).

ومن خلال ما ذكر فإن الخليط يتربك من التراب كمادة أساسية وغالبة وتضاف له مواد أخرى تزيد من فاعليته البنائية ، منها النباتية (قطع صغيرة من التبن والأعشاب) أو الخشب المحروق الذي يساعد على التماسك السريع للخليط^(٥٦) ، ومنها الطين الغريني ورمال الوديان والحصى ، التي تعمل على التقليل من تأثير الانكماش على التراب بعد التجفيف وتزيد من مقاومة المواد أثناء دكها^(٥٧)، ويضاف له كذلك الجير الذي يعمل على ربط مختلف مواد الخليط إلى بعضها بعد دكها بالمركز ، ويتسرب السائل منه أثناء الدك إلى الأسطح الداخلية للقالب فيشكل طبقة سطحية رقيقة كثيرة الصلابة ، تعمل على حماية الأجزاء المركزية من السور من التفتت والتآكل بفعل تأثير العوامل الطبيعية^(٥٨).

ويكون هذا الخليط أكثر فعالية وأشد مقاومة لعوامل التعرية كلما زادت كمية الجير المضافة للطينة المستعملة أو كمية الكلس الموجودة في الطين ذاتها^(٥٩) ، وهي الطريقة التي لجأ إليها المرابطون لتقوية أسوارهم^(٦٠) ، ثم بعدهم الموحدون الذين تميزت مبانيهم المتأخرة بزيادة نسبة الجير في تركيب الخليط ، ووصلوا إلى درجة كبيرة من الصلابة مثلها هو مجسد في أسوار مدينة رباط الفتح ومراكش^(٦١).

وهذا التركيب هو الأكثر استعمالا في المدن الإسلامية التي استخدمت فيها تقنية الطابية ، وفي نفس الوقت كانت بعض المنشآت تجز بخليط مختلف قليلا عما ذكر سابقا ، وحسب بعض الدراسات الميدانية التي خضت بها مدن أندلسية فإنه يمكن حصر أنواعه في ثلاثة ، كلها تتميز بوجود التراب كمادة أساسية وتختلف فيما بينها في المواد المضافة وهي^(٦٢) :

* **خليط ترابي**: يتميز بوجود ما نسبته ٧٥% من المواد الدقيقة ذات سبك أقصاه ٢ ملم ، منها أكثر من ٤٠% سمكها لا يتجاوز ٠.٥ ملم ، وكمية الجير فيها قليلة.

* **خليط ملاطي**: يتربك من مواد أكبر من السابق (شظايا ، حجارة صغيرة ، قطع حجرية صغيرة كلسية) وهو أكثر مقاومة للعوامل الطبيعية ، ويتميز بلونه الرمادي الغامق.

* **خليط حجري**: يحتوي في تركيبه على قطع حجرية كبيرة غير مصقولة يصل حجمها في الخليط أحيانا إلى الثلثين ، إضافة إلى الحجارة الصغيرة والرمل والجير.

٤-١- البناء ومساعدته:

وهم الأشخاص المكلفين بتركيب القالب في موضعه المقصود وإعداد الخليط ونقله ثم تفرغه في مكانه ودكه ، وكلهم يعملون تحت إشراف البناء الذي يسميه ابن خلدون بالطواب^(٦٣) ، ويسمى منطقة سكورة المغربية بالركاز^(٦٤).

٥-١- وسائل أخرى:

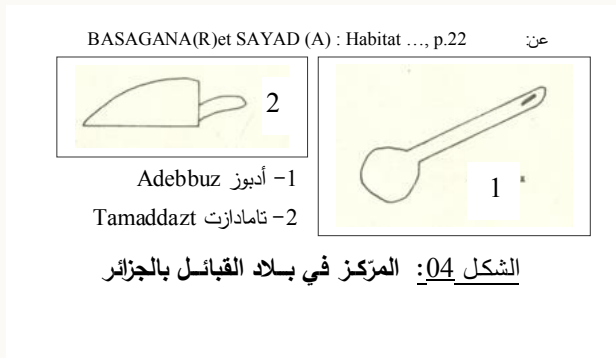
تتمثل في وسائل نقل المواد الأولية إلى مكانها كالأكياس أو القفف ، ومعدات مزج الخليط ونقله بعد إعداده إلى مكانه ، ويضاف لها أيضا وسائل أخرى لرفع هذا الخليط إلى الأماكن العالية من السور كالسلم الخشبي أو الصقالة التي تعد خصيصا للصعود عليها.

* **عصا شد الجبل**: تتمثل في عصي خشبية منحنية قليلا توضع بين الجبل المزدوج الذي يشد الذراعين الخشبيين العموديين فتتشكل ضفيرة تعمل على حسن شد هذا الجبل ، وتسمى هذه العصا في منطقة سكورة المغربية بتيهموت^(٤٢).

٢-١- المركز:

تسميته أوردها ابن خلدون في مقدمته ، وذكره ابن حيان باسم المدوس وجمعه مداوس^(٤٣) ، وفي منطقة سكورة المغربية فيسمى بتقبوت^(٤٤). تتمثل وظيفته في دك الخليط الذي يوضع داخل القالب بين الحين والآخر حتى تتداخل مكوناته في بعضها البعض ويتماسك... ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس ويتركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه ويختلط أجزاؤه...^(٤٥).

وهو من القطع الضرورية للعمل بهذه التقنية مصنوع من مادة الخشب ومقسم إلى قسمين ، قسم سفلي عبارة عن كتلة خشبية ، يثبت على سطحها ذراع خشبية طويلة بما يكفي لاستعمالها في وضعية الوقوف حتى تكون قوة دفعه إلى أسفل أكبر فتزداد فعاليته أكثر. ويتميز عنها المستعمل في بلاد القبائل فهو مختلف في شكله وجاء على نوعين ، النوع الأول ذو ذراع طويل وكتلة شبه دائرية ومصنوع كله بقطعة خشبية واحدة ويسمى بأدبوز Adebuzz^(٤٦) ، والنوع الثاني ذو ذراع قصير وكتلة شبه مثلثة يسمى بتامادازت Tamaddazt^(٤٧).



٣-١- الخليط:

يكتفي ابن خلدون بوصفه أنه خليط من التراب والكلس ، لكن المراجع التي اعتمدت على المناطق التي مازال أهلها يحفظون هذه الحرفة كسكان المدن القديمة في المغرب الأقصى الذين يتحدثون عنه بكونه عبارة عن تراب مخلوط مع الجير وطحين الآجر وكسر الحجارة يضاف لها كمية قليلة من الماء^(٤٨) وأحيانا يعوض التراب بالرمل^(٤٩) ، أو يكون التراب في حد ذاته حصوي^(٥٠) ، وأفضل تركيب للتراب المدكوك المستعمل في تقنية الطابية يتكون من ١٥-٠% من الحصى و ٤٠- ٥٠% من الرمل ، و ٢٠-٣٥% من الغرين ، و ١٥-٢٥% من الطين^(٥١) ، وتضاف لهذا التركيب كميات متباينة من مواد أخرى منها الجير الذي تتراوح نسبته في الخليط بين ٢.٥-٦.٠%^(٥٢).

ويتميز التراب المستعمل في الخليط باحتوائه على كمية كبيرة من الكلس ، وفي حالة قلته فيه يضاف له الجير^(٥٣) ، والتراب المناسب للاستعمال ذو لون أصفر يميل إلى الاحمرار يسمى في بعض مدن المغرب الأقصى بالحمري^(٥٤) ، أما تركيبه فهو ذو جيبات متوسطة تميل قليلا إلى الخشونة ، ويحتوي على كمية قليلة من الرمل ولزج نوعا

ويركز بالمراكز إلى أن يندمج داخل بعضه ، وتتعاظم أهمية التركيز في الطابية في كونها تعمل كذلك على دفع كمية كبيرة من الخليط الأكثر بللا واحتواءً لمادة الجير إلى جوانب القالب ، فتتشكل طبقة خارجية أكثر صلابة من الأجزاء الداخلية للسور تعمل على حمايته أكثر من تأثير عوامل التعرية المختلفة^(٧٣) . ثم تضاف طبقة ثانية من الخليط وتترك بنفس الطريقة ، وطبقة ثالثة وتترك وهكذا إلى غاية امتلاء القالب ، ثم يترك ليتصلب قليلاً ويتماسك ، وتترك بعدها قطع القالب وتثبت بجانب الجزء الذي تم إنجازها بعد التخلي عن أحد اللوحين الصغيرين بسبب وجود جزء من السور ، ويمر بنفس الخطوات السابقة ويتواصل العمل أفقياً إلى غاية نهاية الامتداد الطولي للسور ، وعند الانتهاء منه يشرع في إنجاز سطر آخر بالاتجاه العمودي للسور ويبدأ من مكان الانطلاق لأنه يكون قد تصلب وتماسك ، ويستمر العمل أفقياً وعمودياً وكلما زاد العلو احتاج البناءون لاستعمال السلم لرفع الخليط إلى الأعلى

عن : مكتب معروض أقيم في قصبة الأوداية بالرباط خلال سنة 2006



**الصورة 03 : طريقة ملء القالب
ودك التراب المدكوك داخله**

ولتمتين السور المنجز بهذه التقنية أكثر يضاف للخليط بين الحين والآخر قطع خشبية طولها لا يتجاوز عرض السور وقليلة السمك ، وقطع أخرى طويلة مستقيمة أو ملتوية قليلاً توضع بجانب بعضها على الامتداد الطولي للسور.



الصورة 04 : آثار الأثراع الخشبية المثبتة في سور لتقويته

ويمكن الوصول إلى عدد مختلف من القوالب في اليوم الواحد حسب الفصول وحسب الطوابق ، خاصة إذا توفرت اليد العاملة الماهرة والظروف المناخية الملائمة التي تسمح بالتجفيف السريع للبناء ، وهذه المدة تتباين حسب الفصول ، ففي فصل الصيف يون عددها بين ثمانية إلى عشرة قوالب في الطابق الأرضي ، وستة إلى

٢- مراحل العمل بهذه التقنية:

٢-١- بناء الأسس والأجزاء السفلى من السور:

قبل بداية استعمال مادة الطابية يتم إنجاز أساس على عمق ٠.٥٠ م بحجارة غير منتظمة الشكل متماسكة مع بعضها بكمية كبيرة من الملاط ثم يتبع ببناء سور أقل سمكا بمادة الحجارة إلى ارتفاع يتراوح بين ٠.٢٠ م و ٠.٥٠ م^(٧٥) ، لحماية المنطقة السفلية للسور من تأثير الماء الذي يعمل على تفتيت مادة الطابية بمرور الزمن.



**الصورة 02 : طريقة بناء القسم السفلي
من سور الطابية**

٢-٢- الشروع في العمل بالتقنية:

قال ابن خلدون موضحاً طريقة العمل في هذه التقنية: "... ثم يوضع فيه التراب مخلطاً بالكلس ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه ويختلط أجزاؤه ثم يزداد التراب ثانياً وثالثاً إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً ، ثم يعاد نصب اللوحين على صورة ، ويركز كذلك إلى أن يتم وينظم الألواح كلها سطراً من فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتجماً كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية..."^(٦٦)

بعد إنجاز الأساس والسور السفلي تنطلق عملية جلب كميات كبيرة من المواد الأولية التي يتركب منها الخليط وتمزج مع بعضها بإضافة الماء ويترك الناتج يتخمر عدة أيام^(٦٧) ، إلى غاية الانطلاق في أشغال البناء حيث يتم تحضير الكمية اللازمة للعمل خلال يوم واحد مع أخذ الاحتياطات اللازمة لتغطية هذا الخليط والسور المنجز حديثاً بغطاء خشبي معد لهذا الغرض في حالة سقوط المطر أثناء العمل اليومي^(٦٨) .

وتكون رطوبة الخليط متوسطة بين الجفاف والبلل^(٦٩) ، وفي نفس الوقت يركب القالب في مكانه ، وقبل الشروع في ملء القالب يتم أحياناً وضع قطع من الحجارة الصغيرة فوق الأذرع الخشبية الموضوعة فوق السور حتى يسهل سحبها فيما بعد من مكانها دون أن تتسبب في تخریب أي جزء من السور ، وهو ما يفسر كثرة الثقوب في السور ، ولنفس الغرض تستعمل في مناطق أخرى قطع من الأجر أو قطع خشبية^(٧٠) ، وأحياناً توضع مباشرة فوق السور وتترك في مكانها بعد تحريك القالب^(٧١) ، ونظراً لسهولة تأكلها فإنها تزول بمرور الزمن وتحول أماكنها إلى ثقوب في الجدار ، ثم يملأ الخليط داخل أكياس أو قفف ويفرغ في القالب وتتم تسويته بالأرجل من طرف البناء الموجود في وسط القالب فتتشكل طبقة يتراوح سمكها بين ٠.٣ م و ٠.٥ م^(٧٢) .

الزمنية أكثر كلما تم البناء في الأيام المشمسة لأن الشمس تساعد على سرعة جفاف الخليط قبل وبعد عزل القالب عنه.

- تميز البيوت المحصورة بأسوار منجزة بها بالبرودة صيفا والدفع شتاء بسبب كثرة مادة التراب في تركيبها ، وسبك الجدار الكبير^(٧٩) .
- قلة التكاليف ، الناتجة عن وفرة التراب الذي يمثل مادتها الأساسية وهو متوفر في كل مكان ولا يتطلب الشراء والنقل ، حيث يجلب من جوانب الموقع أو من المواقع القريبة منه الخالية من البناء ، وتقل التكاليف أكثر بقلّة عدد اليد العاملة التي تتطلبها أثناء الإنجاز ، فعدد قليل من العمال يقودهم واحد مختص كافٍ لإنجاز هذا السور بجودة عالية وسرعة كبيرة^(٨٠) .

- تنظيم أسوار البناء من حيث السمك والارتفاع ، وبفعل الاستعمال المتنقل لنفس القالب سواء في المبنى ذاته أو في المباني الأخرى وهو ما يجعل التماثل في البناء سائداً في معظم مباني المدينة الواحدة.

٤- مساوئ هذه التقنية:

- رغم السهولة التي تتميز بها والوقت القصير الذي يتطلبه البناء بها ، إلا أنها تتميز ببعض العيوب التي تحد من مكانتها منها:
- طول مدة تصلبها بعد الإنجاز بسبب وجود الماء في الخليط الترابي الذي يستعمل فيها ، وهو ما ينعكس على حرية اختيار الوقت المناسب للبناء ، فالمنشآت العسكرية مثلاً يفضل استغلال أوقات السلم حتى لا يتأثر المبنى بعامل التسرع في الإنجاز فيفقد الصلابة المطلوبة في مثل هذه المنشآت^(٨١) .
- عدم إمكانية ترميم الجدار بمادة الطابية بعد حدوث أضرار فيه مثل تهدم بعض الأجزاء ، فيلجأ إلى مواد بديلة أخرى لترميم الأماكن المتضررة^(٨٢) .



الصورة 05 : طريقة ترميم سور الطابية

- عدم إمكانية تسوية حافات الأبواب والنوافذ بها ، مما يضطر البنائين إلى استعمال مواد أخرى كالآجر.

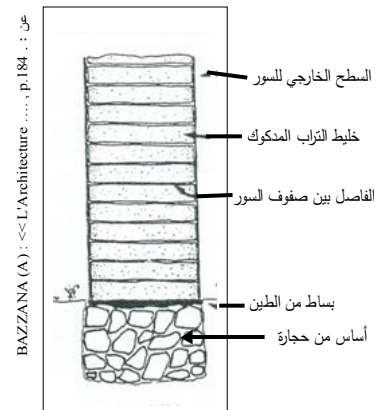


الصورة 06 : طريقة تسوية حافات الأسوار

سبعة قوالب في الطابق الأول ، أما في فصل الخريف فهي أربعة إلى ستة قوالب في الطابق الأرضي ، وأربعة إلى خمسة قوالب في الطابق الأول.

وبعد توقف الأشغال في المساء يتم تغطية الجزء العلوي من السور المنجز حديثاً بطبقة رقيقة من نفس التربة المستعملة في البناء لتفادي تأثير العوامل المناخية الفجائية عليه ، وتحذف هذه الطبقة بعد العودة لإتمام البناء في اليوم الموالي ، وبعد الانتهاء من بناء الأسوار تترك لتتصلب مدة تتراوح بين ثلاثة إلى ستة أيام حسب الفصول^(٧٤).

وفيما يتعلق بسمك الجدار فهو لا يقل عن ٠.٥٠ م إلا نادراً للزيادة من متانة السور وتوفير المساحة اللازمة لحركة شخص يدك الخليط في وسط القالب ، أما الارتفاع فهو متغير حسب نوع البناء ، علماً بأن السمك مرتبط بالارتفاع فكلما كانت الرغبة في بناء أسوار عالية كلما زاد سمك السور حتى يكون متماسكاً ، ويقاوم العوامل الطبيعية التي قد تتسبب في إسقاطه كالرياح ، وفي حالة الأسوار الدفاعية المتميزة بعلوها الكبير يتم التقليص من سمكها كلما ارتفع إلى الأعلى ، فإذا انطلقت بعرض يتراوح بين ٠.٨٠ م و ١.٠٠ م في الأسفل فإنها تصل إلى ٠.٦٠ م عند بلوغها ارتفاع قدره ٣.٠٠ م^(٧٥).



الشكل 05 : مقطع طولي في سور منجز بتقنية الطابية

وعند إتمام العمل يظهر سطح السور مخروم بثقوب متساوية القطر والبعد هي عبارة عن ثقوب الأذرع الخشبية الأفقية الخاصة بالقالب تثبت في بعضها أذرع خشبية يستند عليها السلم المستخدم لرفع خليط التراب المدكوك إلى الصفوف العليا من السور ، وبعد الفراغ من بناء السور تغطي هذه الثقوب بملاط يتميز بقلّة مقاومته لعوامل التعرية فيسقط وتكشف كل عيوب السور بما فيها الثقوب المنتشرة في السور^(٧٦) ، لهذا يجدد هذا الملاط باستمرار.

٣- مزايا استعمال هذه التقنية:

استخدمت هذه التقنية بكثرة في كل منشآت المدن سواء بصفة كلية في السور أو في أجزاء معينة منه ، وتفسير هذا الإفراط في استعمالها يعود إلى المزايا التالية:

- سهولة الإنجاز بها وسرعته ، فتركيب القالب يستغرق ٢٠ دقيقة وماله ودكه يستغرق ٤٠ دقيقة ، أما بناء مسكن بطابقين مقاساته ١٢ × ١٢ م يستغرق ثلاثة أشهر فقط^(٧٧) ، وبناء قاعة بأسوارها الأربعة يستغرق ثمانية أيام بأقل عدد من العمال^(٧٨) ، وتقتصر المدة

7- L. EREBATI, Op.cit , p.34. - ADAM (J-P): Op.cit , p.63.

8- J-P. VANSTAEVEL, << Op.cit,p.95.

9- - P.BURESI, << Les fortifications frontalières dans le centre de la péninsule Ibérique aux XII-XIII siècles: matériaux et techniques de construction>>, in mil anos de fortificações na península Ibérica e no Magreb (500-1500), Lisboa, 2002, p.440.

١٠- أبو القاسم بن حوقل، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢، ص. ٧٠ و ٧٨ و ٨٤ و ٨٥.

١١- ابن حيان، المقتبس، ج. ٥، تحقيق شاليمتا (ب) وآخرون، المعهد الأسباني العربي للثقافة وكلية الآداب بالرباط، مدريد، ١٩٧٩، ص. ٩٦.

١٢- أبي عبد الله محمد الصنهاجي بن حماد، أخبار ملوك بني عبید وسيرتهم، تحقيق: جلول أحمد البدوي، الجزائر، ١٩٨٤، ص. ٣٤.

١٣- أبي عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من نزهة المشتاق، تحقيق: إسماعيل العربي، الجزائر، ١٩٨٣، الإدريسي، المصدر السابق، ص. ١٣٦ و ١٦٤.

١٤- المراكشي بن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: زينحرت دوزي، الجزء الأول، بيروت، ١٩٥٠، ص. ٨٧.

١٥- أبو عبید البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار المثنى، بغداد، د. ت. ص. ٦ و ٧٩.

١٦- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد الغرب، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص. ١٧٢.

١٧- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب ديوان العبر والمبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء الثاني، الجزائر، ١٩٩٥، ص. ٤٣٧-٤٣٨.

18- G. MARCAIS, << Recherches d'archéologie musulmane: Honain >>, in: Revue africaine, Paris, 1928, , p.p.330-350.

١٩- عبد العزيز لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية معمارية وفنية، رسالة دكتوراه الدولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، ١٩٩٩، ص. ٣٢٧ إلى ٦٣١ و ٦٥٧ إلى ٦٦٠.

٢٠- إسماعيل بن نعمان، مدينة تنس دراسة تاريخية وأثرية وعمرانية (٣-١٣ هـ/٩-١٩ م)، أطروحة لنيل الدكتوراه في الآثار الإسلامية، الجزائر، ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

21- L. EREBATI, Op.cit , pp.33-37

٢٢- لحسن تاوشخت، عمران سجلماصة: دراسة تاريخية وأثرية، ج. ١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدار البيضاء، ٢٠٠٨.

٢٣- جورج مارسي، << بناء >>، ترجمة: محمد ثابت الفندي وآخرون، في: مختصر دائرة المعارف الإسلامية، الجزء السابع، الطبعة الأولى، الشارقة، ١٩٩٨، ص. ١٩٢٤.

- لحسن تاوشخت، المرجع السابق، ص. ٣٣٠.

٢٤- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج. ٢، ص. ٤٣٧.

25- A. BAZZANA, << l'architecture de terre au moyen age considérations et exemples andalous>>, in l'architecture de terre en méditerranée, Rabat, 1999, p.200.

26- P.DOAT et les autres, Construire en terre, Paris, 1985, p.38.

27- R.MAUNIER, Op.cit, p.42.

28- A.BAZZANA, << l'architecture ...>>, p.200.

29- Ibid.

وحسب دوات (Doat) فإنه يتراوح بين ٠.٦٠ و ٠.٨٠ م، أنظر:

- P.DOAT et les autres, Op.cit , p.38

30 - A.BAZZANA, << l'architecture ...>>, p.200.

٣١ - إسماعيل بن نعمان، المرجع السابق، ص. ٢٦٣.

32 - R. MAUNIER, Op.cit , p.42.

٣٣- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج. ٢، ص. ٤٣٧.

■ التأثير السريع بالتغير في العوامل الطبيعية، وهو ما يفسر تآكل المباني واندهاها بمجرد إهمال صيانتها الدورية عبر الزمن.



الصورة 07: تآكل السور بمرور الزمن

ومن بين طرق الصيانة التي تستعمل لحفظ الأسطح الخارجية للأسوار من التآكل هي إلصاق قطع من الجير في الجهة المعرضة لتأثير العوامل الطبيعية كالرطوبة.



الصورة 08: طريقة حماية السطح

الخارجي لسور الطابية

الهوامش

١ - جان دتييه، << هندسة البناء بالطين في الماضي والحاضر والمستقبل >> في مجلة: العواصم والمدن الإسلامية، العدد ١٢، شوال ١٤٠٩ هـ/ ماي ١٩٨٩، ص. ٦٢.

2 - R. MAUNIER, La Construction collective de la maison en kabylie, Paris, 1926, p.42.

- R. BASAGANA et A. SAYAD, Habitat traditionnel et structures familiales en Kabylie, C.R.A.P.E, Alger, 1974, p.20.

٣ - L. EREBATI, << La terre dans la construction maghrébine au moyen age : le cas des murs en tabiya>>, in le jardin des Hespérides, N° 02, Rabat, juillet 2005/décembre 2005, p.p.34.

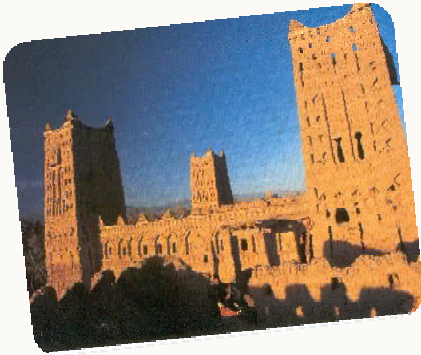
٤ - محمد لهراني علوي، << المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت: قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة >>، في كتاب: المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط، ط. ١، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٩٩، ص. ١٠٨.

- عبد الناصر بزيك، << التراث المعماري بالجنوب المغربي: نموذج منطقة سوكورة إقليسم ورزازات >>، في الدورية الإلكترونية: كان التاريخية (www.historicalkan.co.nr)، العدد ٠٦، ديسمبر ٢٠٠٩، ص. ٢٦.

5- J-P. VANSTAEVEL, << Réflexions à propos de la nomenclature médiévale de l'architecture de terre en occident musulman: l'exemple du TABIYA>>, in: l'architecture de terre en méditerranée, Rabat, 1999, p.95.

6- J-P. ADAM, La Construction Romaine: matériaux et techniques, Paris, 1995, p.63.

- ٦٤ - عبد الناصر بزضيك ، المرجع السابق ، ص.٢٦.
 65 - P.DOAT et les autres, Op.cit , p.17.
 ٦٦ - عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ج.٠٢ ، ص.٤٣٧.
 67 - L. EREBATI, Op.cit , p.34.
 68 - P.DOAT et les autres, Op.cit , p.17.
 69 - Ibid , p.17.
 ٧٠ - محمد لمراي علوي ، المرجع السابق ، ص.١٠٨.
 71 - P.DOAT et les autres, Op.cit , p.38.
 72 - A.BAZZANA, Maisons d'Al-andalus: Habitat médiéval et structures du peuplement dans l'Espagne orientale, Madrid , 1992., p.81.
 73 - A.BAZZANA, <<L'architecture...>>, p.181.
 ٧٤ - محمد لمراي علوي ، المرجع السابق ، ص.١٠٩.
 75 - P.DOAT et les autres, Op.cit , p.38.
 ٧٦ - مارسى جورج ، المرجع السابق ، ص.١٩٢٤.
 77 - P.DOAT et les autres, Op.cit , p.37.38.
 78 - R. MAUNIER, Op.cit , p.43.
 ٧٩ - عمر الأمين ، المرجع السابق ، ص.٤٩.
 80 - A.BAZZANA, << L'architecture... >>, p.201.
 81 - A.BAZZANA, <<Eléments d'archéologie musulmane... >>, p.356.
 82 - Ibid .



الدكتور إسماعيل بن نعمان في سطور:

- شهادة الليسانس في الآثار الإسلامية سنة ١٩٩٢.
- شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية سنة ١٩٩٧.
- شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية سنة ٢٠٠٨.

- 34 - R. MAUNIER, Op.cit , p.42 .
 ٣٥ - عبد الناصر بزضيك ، المرجع السابق ، ص.٢٦.
 ٣٦ - نفسه.
 ٣٧ - نفسه.
 38 - R. MAUNIER, Op.cit , p.41.
 R.BASAGANA et A. SAYAD, Op.cit , p.22
 39 - Ibid.
 ٤٠ - عبد الناصر بزضيك ، المرجع السابق ، ص.٢٦.
 ٤١ - نفسه.
 ٤٢ - نفسه.
 ٤٣ - ابن حيان ، المصدر السابق ، ج.٠٥ ، ص.٩٦.
 ٤٤ - عبد الناصر بزضيك ، المرجع السابق ، ص.٢٦.
 ٤٥ - عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج.٠٢ ، ص.٤٣٧ ، ويصف ابن حيان عمله بالزعم حيث قال في هذا الصدد <<... بترب الطابية المرزوم بالمداوس...>> ، أنظر: ابن حيان ، المصدر السابق ، ج.٠٥ ، ص.٩٦.
 46 - R. MAUNIER, Op.cit , p.43
 — R.BASAGANA et A. SAYAD, Op.cit , p.20-22
 47 - Ibid.
 ٤٨ - جورج مارسى ، المرجع السابق ، ص.١٩٢٣-١٩٢٤.
 -J. REVAULT et autres, Palais et demeures de Fès, tome I, C.N.R.S, Paris, 1985, p.21.
 - RICARD(P): Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique de Nord et en Espagne , Paris , 1924 , p.91.
 ويبين حسن الوزان تركيبه في أسوار مدينة مراكش بقوله: << سور مراكش في غاية الجمال والقوة مبني بالطين المدكوك بالجير والرمل والغليظ الممزوج بالحصى...>> أنظر: - حسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر ، ج.٠١ ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص.١٢٧.
 49 - J. REVAULT et autres, Op.cit, p.21.
 ٥٠ - ه.تراس ، << الحصن في المغرب الإسلامي >> ، ترجمة حسن شكري ، في موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج١٣ ، الشارقة ، د.ت ، ص.٣٩٩٢.
 51 - P.DOAT et les autres, Op.cit , p.17.
 52 - A.BAZZANA, << l'architecture ... >>, p.181.
 ٥٣ - عمر الأمين ، مواد البناء وتقنياته بالمغرب الأوسط خلال القرنين (٤-١٠هـ/١٢-١٠م) للفترتين الزيرية والحمادية (أشير - قلعة بني حماد - بجاية) ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية ، الجزائر ، ٢٠٠٠-٢٠٠١ ، ص.٤٢.
 ٥٤ - إسماعيل عثمان عثمان ، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالغرب الأقصى ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ، الهلال العربية للطباعة والنشر ، الرباط ، ١٩٩٣ ، ص.١٢٠.
 ٥٥ - الأمين (عمر): المرجع السابق ، ص.٤٢.
 -A.BAZZANA, << L'architecture ... >>, p.178
 56 - A.BAZZANA, << L'architecture ... >>, p.192.
 57 - Ibid , p.179.
 - L. EREBATI, Op.cit , p.33.
 58 - A.BAZZANA, << L'architecture ... >>, p.179 et 181.
 ٥٩ - عمر الأمين ، المرجع السابق ، ص.٥٣.
 60 - P. BURESI , Op.cit , p.440.
 ٦١ - إسماعيل عثمان عثمان ، المرجع السابق ، ص.١٢٠.
 62 - A.BAZZANA, << Eléments d'archéologie musulmane dans Al-Andalus: caractères spécifiques de l'architecture militaire arabe de la région Valencienne>>, in: Al-Quantara: revista de estudios arabes , vol1, fasc 1-2, Madrid , 1980, p.359-360.
 ٦٣ - عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ج.٠٢ ، ص.٤٣٨.

البنيان (Ala Miliaria)

مدينة جزائرية من العالم القديم



إن وقوع اختياري على دراسة التاريخ القديم لمدينة البنيان بالرغم من تضاعف دورها في العصور القديمة مقارنة بمدن جزائرية زاهرة كقسنطينة وشرشال وتمقاد وجيلة وغيرها من المدن لم يكن وليدة صدفة ، وإنما أملتّه خصوصيات طبعت مسار الكتابة والتأريخ للمدينة ، كاستثثار الدراسات الغربية والمواقع الإلكترونية العالمية بتاريخها ، بحيث أسهمت في الحديث عن تجذّر الديانة المسيحية والنحلة الدونانية بها متجاهلة أوجه التطورات التي مرت بها ، كل هذا في ظل غياب تام لإسهامات جزائرية وعربية في هذا المجال تكسر الطوق المفروض على تاريخها ، فأردت أن تكون هذه الدراسة المتواضعة إسهاما بسيطاً يصدر من منبر عربي مكتوب يشير إلى واقع المدينة في العصور القديمة ، تزامناً مع انفتاح وتصالح المدينة مع تاريخها القديم وذلك من خلال احتضانها لأول ملتقى أكاديمي أنعقد بتاريخ ٢٥ مايو ٢٠١٠ ، ليعطي الانطلاقة الحقيقية لميلاد تاريخ المدينة بأقلام جزائرية عربية جادة من دون المغالاة أو المزايدة على تاريخها.

سنحاول من خلال هذا المقال تسليط الضوء على تاريخ مدينة البنيان في العصور القديمة ، هذه الفترة التي دأب المؤرخون المعاصرون تحديدها زمنياً بظهور الكتابة في شمال إفريقيا ، وهي تبدأ مع نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد وتستمر حتى نهاية الاحتلال البيزنطي وبداية الفتح الإسلامي للمنطقة في القرن السابع الميلادي ، إلا أنه على الرغم من امتدادها وتعدد مراحلها على عهود هي: العهد الفينيقي (القرن ١٢ / ٥٥٠ ق.م) والقرطاجي (٥٥٠ - ١٤٦ ق.م) وهاتين الفترتين انعدمتا في المنطقة لأن الفينيقين لم يأسسوا محطاتهم إلا على الساحل بينما تضاعف وجودهم بالمناطق الداخلية - وعهد الممالك المستقلة (٢٢٠ - ٤٦ ق.م) والعهد الروماني (٤٦ - ٤٢٩ م) والعهد الوندالي (٤٢٩ - ٥٣٣ م) فالبيزنطي (٥٣٣ - القرن ٧م) ، إلا أن نصيب مدينة البنيان كغيره من مدن شمال إفريقيا قد اكتنفه الكثير من الغموض ، بسبب تجاهل المصادر الأدبية اللاتينية عن ذكر المعطيات المتعلقة بتاريخها باستثناء ما تعلق منها بالتاريخ لحملات الاحتلال الروماني للمنطقة والتي اعتمدت القرن الثالث ميلادي كبداية لظهورها ، وهو أمر نراه يتناقض ويتنافى مع تقارير التنقيبات الأثرية التي تؤكد أن المدينة ظهرت في منطقة استقرار بشري قديمة تعود إلى فترة ما قبل التاريخ ، بحيث أكدت الحفريات التي قام بها علماء الآثار وعلى رأسهم الأثري الفرنسي أرامبورق (Arambourg) الذي باشر تنقيباته في سنة ١٩٥٤م بمدينة تغنيف ، أرجعت استقرار الإنسان بها إلى ٦٥٠ ألف سنة قبل الميلاد ، كما أظهرت للوجود أدوات بدائية تعتبر من أقدم الأدوات التي استخدمها الإنسان الأول على وجه الأرض^(١).

١ - الموقع

تقع مدينة البنيان في الضفة الشمالية لوادي تاغية ، وهي تبعد بحوالي ٣٧ كلم جنوب شرق ولاية معسكر و٣٥ كلم شمال شرق ولاية سعيدة ، وهي تتمركز في القسم الشرقي لجبال سعيدة كما أنها تتوسط سلسلة الأطلس التلي الوهراني^(٢).

خالدية مضوي

أستاذة مساعدة بقسم التاريخ

كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والانسانية
جامعة معسكر - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

madhouik@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خالدية مضوي ، البنيان (Ala Miliaria) مدينة جزائرية من العالم القديم - دورية كان التاريخية - العدد العاشر ؛ ديسمبر ٢٠١٠. ص ٢٧ - ٣٠.

(www.historicalkan.co.nr)



بتقسيمها إلى مقاطعتين هما، مقاطعة موريطانيا الطنجية ومقاطعة موريطانيا القيصرية التي أصبحت مدينة البنيان تابعة لها إداريا طيلة الاحتلال الروماني (٤٠. ٤٢٩ م).^(١٢)

٤. البنيان خلال الاحتلال الروماني:

(١) التطور السياسي والإداري والعسكري:

ارتبط تاريخ مدينة البنيان في الفترة الرومانية كما أشرنا إلى ذلك سابقا بمدينة رومانية اسمها ألاملياريا، نسبة إلى المعسكر الذي عسكر بها وهو فيلق خيالة ملياريا الذي حل بالمنطقة في سنة ٢٠١ م، وقد أشرف على بناءه وكيل الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس "Septimus Severus" روقاتوس بريغرينوس "Rogatus Preregrinus"^(١٣)، وكان هذا الفيلق قد قدم إلى مقاطعة موريطانيا القيصرية سنة ١٦١ م وبقي بها إلى غاية النصف الأول من القرن الثالث ميلادي قبل أن يحل بمدينة البنيان (Ala Miliaria)، كما تمركزت إحدى وحداته ببطيوة (Portus Magnus) وسبق (Tasacura) وحمام بوحنيفية (Aquae Serenses)، أولاد ميمون (Altava)^(١٤).
إن غياب اللقب العرقي لهذا الفيلق لم يسمح لنا بالتعرف على كامل أصول جنوده غير أنه ومن خلال النقوش تمكنا من معرفة أصل ١١ عشر فارسا أحدهما إسباني والآخر إيطالي بالإضافة إلى ٩ فرسان أفارقة تبين أن تجنيدهم كان محليا^(١٥)، وإن تأسيس هذا المعسكر في المنطقة قد أملت عدة أسباب هي:

أ- العامل الأمني

كان معسكر البنيان جزء من طريق الليمس للقرن الثالث ميلادي والذي شيد في عهد الأسرة السيفيرية (١٩٣ - ٢٣٥ م) أو ما يعرف بالطريق الحدودي (Praetentura)، ومعناه الطريق الفاصل بين الأراضي الخاضعة للاحتلال الروماني في الشمال وتلك التي ظلت خارج عن السيطرة الرومانية مدعما بسلسلة من القلاع والمعسكرات، يتراوح متوسط المسافة الفاصلة بين المعسكرات بين ٣٥ - ٥٠ كيلومتر وهو يبدأ من حربة الزرقعة (Cellas) وينتهي عند مدينة مغنية (Numerus Syrorum)^(١٦).

ب- العامل الاقتصادي

تجلى أهمية هذا العامل بوضوح في القرن الثالث ميلادي، ففي هذا القرن أصبح الرومان أكثر إصرارا على توسيع المساحات الزراعية التي استولوا عليها عنوة لتوزيعها على قدماء المحاربين، خاصة وأن خصوبة أراضي موريطانيا القيصرية ووفرة مردودها تغري أية دولة استعمارية تسعى بشتى الطرق للاستحواذ على الأراضي التي توفر لها الغلال الضرورية لسد متطلبات سوقها^(١٧)، وبعد أن تزايدت أهمية القمح على إثر ارتفاع عدد عائلات عوام روما المستفيدة من توزيع الحبوب مجانئا، بحيث أصبح عدد المستفيدين من هذه العملية في العهد الإمبراطوري ٢٠٠٠٠٠ مستفيد بعد أن كان عددهم لا يتجاوز ١٥٠٠٠٠ شخص في عهد يوليوس قيصر^(١٨)، وبعد أن زاد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس في رواتب الجند واضطر إلى دفع جزء منها من الغلال بعد عجز خزينة الدولة على تحمل تلك النفقات. فلقد كانت هذه المتطلبات من ضمن المبررات التي دفعت الأباطرة السيفيريين إلى مد الشريط الحدودي نحو الجنوب ليشمل السهول الغربية التي كانت لا تزال خارج السيطرة، حيث تنتشر زراعة القمح للاستفادة من خيراتها^(١٩).

٢. أصل التسمية

ارتبط تاريخ مدينة البنيان في العصور القديمة بموقعين هما:

١. موقع محلي ليبي يسمى تقيت (Tigit) ورد ذكره منذ القرن الثالث ميلادي في كتاب جغرافية رافن لمجهول^(٢٠) وعلى ثلاثة نقوش هي عبارة عن معالم ميلية مؤرخة بالعهد الإمبراطوري الأعلى^(٢١) غير أن اسم تقيت قد اختفي من النقوش في أواخر القرن الرابع ميلادي (٣٩٥ م) وحل محله الاسم الروماني ألاملياريا، ولا يزال معنى اسم تقيت مجهولا إلى يومنا هذا، على الرغم من محاولة بعض المؤرخين مقارنته بالاسم الأمازيغي تيجديت الذي يطلق على إحدى المدن التابعة لولاية مستغانم والذي يعني الرملية^(٢٢).

٢. موقع لمدينة رومانية عرفت بالألاملياريا (Ala Miliaria) والتي أشير إليها في النقوش المؤرخة في مطلع القرن الثالث، وفي الوثائق الكنسية لمجمع قرطاجة المنعقد في سنة ٤٨٤ م^(٢٣)، وقد سميت كذلك نسبة إلى فيلق خيالة ملياريا الذي عسكر بالمنطقة في عهد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (Septimus Severus) (١٩٣-٢١١ م)^(٢٤).

٣. النشأة والتطور

أما من حيث نشأة وتطور المدينة، فإننا لا نتوفر على المعطيات التاريخية اليقينية التي تساعدنا على تحديد التاريخ الذي نشأت فيه مدينة البنيان، ذلك أن أقدم المخلفات المادية هي عبارة عن مجموعة من القطع النقدية البرونزية ضربت في عهد الملك الموريطاني يوبا الثاني "Iuba II"^(٢٥) الذي تربع على عرش مملكة موريطانيا في الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد واستمر حكمه إلى الربع الأول من القرن الأول ميلادي (٢٥ ق.م - ٢٣ م)، وفرض سيطرته على كامل المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى الوادي الكبير (Ampsaga Flumen) شرقا (شمال شرق قسنطينة)^(٢٦)، غير أننا لا نستبعد أن يرجع تاريخها إلى فترة موغلة في الزمن عن هذا التاريخ، ربما إلى عهد الملك صيفاقس "Syphax" حاكم مملكة الماسيسيل التي وردت أخباره في المصادر الأدبية اللاتينية والإغريقية منذ الربع الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد (٢١٨ ق.م) وضمت وسط وغرب الجزائر^(٢٧)، هذه المملكة التي سيستولي عليها الملك ماسينيسا "Massinissa" حوالي سنة ٢٠٠ ق.م وبذلك ستصبح مدينة البنيان جزء من مملكة نوميديا التي سيجعلها هذا الأخير إلى غاية سنة ١٤٨ ق.م ويخلفه من بعده أبناؤه مكيبسا "Micipsa" وغولوسة "Gulussa" ومستنبعل "Mastanbal"، وبعد تقسيم مملكة نوميديا بين حفدة الملك ماسينيسا "Massinissa" في تاريخ سنة ١١٨ ق.م ستصبح جزء من مملكة نوميديا الغربية التي عين عليها الملك يوغرطا "Jughurta"، وبعد هزيمته أمام الرومان في سنة ١٠٥ سيؤول حكمها إلى ملوك موريطانيا وهم: الملك الموريطاني بوخوس الأول "Bocchus I" (١١٨ - ٨٠ ق.م)، الملك ماستنزوروس "Mastansosus" (٨٠ - ٤٩ ق.م)، الملك بوخوس الثاني "Bocchus II" (٤٩ - ٣٣ ق.م)، الملك يوبا الثاني "Iuba II" (٢٣ - ٢٥ م)، الملك بطليموس "Ptolemaeus" (٢٥ - ٤٠ م)^(٢٨)، وفي سنة ٤٠ م خضعت مدينة البنيان وباقي مدن مملكة موريطانيا للاحتلال الروماني بعد قتل السلطات الرومانية لملكها بطليموس "Ptolemaeus" وقاموا

مدت بها شبكة طرق طوقت منطقة الإنتاج العمراني ووصلت مراكز العمران ببعضها، ويسرت حركة النشاط التجاري والأسفار وتقل الجيش بين المعسكرات فكان لهذه الترتيبات الرومانية أثرها على مدينة البنيان (Ala Miliaria)، بحيث ومنذ النصف الأول من القرن الثالث أنجزت بها ثلاثة طرق^(٣٠)، الطريق الأول يربطها بمدينة تمزيون (Lucu)، الطريق الثاني يصلها بمدينة تاخمارت (Cohors Breucorum)، والطريق ثالث يربطها بمدينة حمام بوحنيفة (Aquae Serenses).

٥. المعتقدات الدينية

مارس سكان مدينة البنيان طقوس الديانة الوثنية البدائية كتقديس الحجارة والأشجار وبعض الحيوانات والأنهار والمغارات وأقبلوا على عبادة الآلهة الوثنية المحلية منها والأجنبية^(٣١)، كما تتوفر المنطقة على نقوش تشير إلى انتشار المسيحية بالمنطقة منذ القرن الرابع ميلادي وهو ما يبرهن على وجود مجتمع حضري قابل لهضم الأفكار الجديدة وتجديد معتقداته، كما تؤكد المخلفات المادية اعتناق سكان البنيان للمذهب الدوناتى الذي ظهر كنحلة منشقة عن الكنيسة الكاثوليكية الرسمية الموالية للإمبراطور، وكانت المدينة من أهم معاقل هذا المذهب في الغرب الجزائري، بحيث وثقت لنا النقوش اللاتينية أسماء العديد ممن ذهبوا ضحية ذلك الصراع أشهرهم الراهبة روبا^(٣٢) "Robba" شقيقة جرمانوس هونوراتوس "Germanus Honoratus" أسقف مدينة حمام بوحنيفة (Aquae Serenses) التي قتلت في ٢٥ مارس ٤٣٤م وأصبح قبرها مزارا يتردد عليه الدوناتيين من كل حذب وصوب، بينما دفنت بجوارها جثامين القائمون على الكنيسة الدوناتية، حيث تضمن سرداب كنيسة البنيان (Ala Miliaria) أقبية بها رفاة العديد منهم، كبوليا جوليا "Iulia Giolia"^(٣٣) المتوفاة في ٧ أكتوبر ٤٢٢م وأخوها نيمسانوس "Nemssanus"^(٣٤) أسقف مدينة البنيان (Ala Miliaria) الذي توفي في ٢٢ ديسمبر ٤٢٢م عن عمر يناهز ٦٠ ميلادي والأسقف دوناتوس^(٣٥) "Donatus" الذي يرجح وفاته ما بين ٤٤٠-٤٤٦م عن عمر يناهز ٨٠ سنة، علاوة على عدد آخر من الأساقفة المتوفين في تواريخ لاحقة وهم فكتور "Victor"^(٣٦) الذي توفي في ٢١ سبتمبر ٤٣٣م عن عمر يناهز ٥٢ سنة وكريسكانسس "Crescenens"^(٣٧) الذي توفي في ٢٧ فيفري ٤٣٤م عن عمر يناهز ٥٥ سنة ودوناتوس "Donatus"^(٣٨) المتوفى في ١١ مارس ٤٤٦م عن عمر يناهز ٦٠ سنة، ماوروس "Maurus"^(٣٩) الشماس الذي توفي ٣٠ نوفمبر ٤٢٩م عن عمر يناهز ٧٠ سنة (أنظر الجدول رقم ١)، وليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بالاستمرار هذا المذهب بعد سنة ٤٤٦م ويدعم هذا الرأي معطيات النقوش^(٤٠) التي تشير إلى الأسقف الكاثوليكي الذي تولى تسيير أسقفية البنيان.

بني المعسكر فوق تلة تقع في الناحية الشمالية لوادي تاغية وقدرت مساحته بحوالي مابين (٢، ٥) و(١، ٦) هكتار، بينها بلغت مساحة المدينة الرومانية ٧٦، ٥ هكتار^(٤١)، وقد اختلف المؤرخون الذين زاروا الموقع في أواخر القرن ١٩م في تحديد شكله، بحيث ذكر دولابلونشار "Delablanchère" (٢٢) في سنة ١٨٨٣ أن المعسكر كان مستطيل الشكل وبلغ طول ضلعه ٢٢٠م بينما يشير غزال "St Gsell"^(٢٣) أن المعسكر قد اتخذ شكلا مربعا وبلغ طول ضلعه ٢٤٠م، وقد وصفه المؤرخ دولابلونشار قائلا "أن سوره يتشكل من جداريين ملتصقين، بني أحدها من الحجارة الكبيرة والآخر من الدبش، وهو يحتوي على بابين محميين ببرجين دائريين مبنيين من الحجارة الكبيرة"^(٢٤).

لقد قام هذا المعسكر بحراسة تنقلات سكان الجبال والرحل، كما أن وجوده وسط الأراضي الخصبة زيادة على الأمن الذي يوفره للنشاط التجاري لاسيما وأن المنطقة كانت سوقا هامة يقصدها الرحل وسكان التل للبيع والشراء سرعان ما جلب السكان للاستقرار بجواره وشجع على ظهور قرية يعيش فيها قدماء المحاربين (٢٥) والسكان الأصليين الذين فضلوا البقاء بجوار المعسكر نظراً للروابط العائلية التي تربطهم بالجند المقيمين بالمعسكر وهو الأمر الذي تحيلنا عليه النقوش التي تشير إلى أحد فرسانها وهو المدعو فورنينوس بريموس (Furninus Primus) الذي فضل البقاء بها بهجرد إتهامه لخدمته العسكرية المقدرة بـ (٢٧)، كما سارت ابنته فورنيا بريما (Furnia Prima) على خطاه وذلك بزواجها بالفارس المدعو سالستيموس مارتياليس (Sallustius Martialis)^(٢٦)، أو بسبب المصلحة المادية لاسيما بعد أن أصبحت القرية سوقا مربحة نتيجة النشاط التجاري، وبمر السنين كبرت القرية وأصبحت مدينة محصنة لم تلبث أن أحيطت هي الأخرى بسور^(٢٧) وسرعان ما حصلت البنيان في عهد الإمبراطور ديوكليسيانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) على ترقية في وضعيتها الإدارية وأصبحت بلدة رومانية وهو ما تؤكد الصيغة الواردة على نقوشها الإهدائية^(٢٨).

(٢) التطور الاقتصادي

شكلت الزراعة العمود الفقري لاقتصاد مدينة البنيان إبان الاحتلال الروماني، كزراعة القمح والزيتون التي تدلنا عليها بقايا مطاحن الحبوب ومعاصر الزيتون التي اكتشفت بالمنطقة^(٢٩) وكان من الطبيعي أن يترتب عن هذا الازدهار الذي عرفته الزراعة ووفرة قطعان الماشية وظهور صناعة تحويلية كصناعة الزيت والغزل والحياكة نظرا لوفرة المواد الأولية ألا وهي مادة الصوف، هذا وعرف النشاط التجاري هو الآخر رواجاً نتيجة العلاقات التجارية التي ربطت المنطقة بالمدن الشمالية التي تمونها بالمنتجات المحلية والأجنبية وتزودها بالمقابل بسلع التل هذا من جهة، ومن جهة أخرى نظرا للعلاقات التجارية التي ربطتها بالرحل، هؤلاء الذين تشتري منتجاتهم وتبيع لهم منتجاتها، كما تدور الوساطة بينهم وبين المناطق الشمالية، بحيث تزودهم بالسلع التي تجلبها من الشمال مثلما تزود مدن الشمال بمنتجات الرحل.

(٣) شبكة الطرق

كان للنشاط العسكري الحثيث في المنطقة خلال القرن الثالث ميلادي أثره الواضح على رواج النشاط التجاري في المنطقة، حيث

المواوشى:

- 1- Balout (L), Algérie préhistorique. Paris , Arts et Métiers graphiques.1958
- 2- Salama (P), Ala Miliaria , Encyclopédie Berbère . Aix - en - Provence , Edisud, p 432.
- 3 -Ravennatis Anonymi, Cosmographia, édition. Pinder et Parthy,
- 4-C. I. L, VIII, 21568 - 21571, Willmans (G), Mommsen (Th), Corpus Inscriptionum Latinarum, (C I L), VIII, Berlin, 1881.
- 5— Salama (P), op.cit , p432
- 6- C.I.L, VIII, 2168, Courtois (Chr), Les Vandale et l'Afrique. Paris, Arts et métiers graphiques, 1955, p 9
- 7-C .I.L, VIII, 21568 - 21571
- 8- النقود محفوظة على مستوى متحف دار القيادة بولاية معسكر.
- 9- Strabon , Géographie , XVII, 3 , 7 .
- 10- Ibid, XVII , 3,7.

11. للمزيد حول هذا الموضوع أنظر:

- مضوي خالدية ، ملوك بلاد المغرب القديم قبل الاحتلال الروماني ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ بلاد المغرب القديم ، جامعة وهران (٢٠٠٢ - ٢٠٠٣).
- 12- Dion Cassius , Histoire romaine , LIX, 1 ; Sutionius , Vies des douzes Cesares , Cliigula, XX
- 13-Leschi (L) , Inscription d'Ala Miliaria, B.S.G.A.O, 1936, P11
- 14-Benseddik(N), Les troupes auxiliaires de l'armée romaine en Maurétanie Césarienne sous le Haut —Empire .Alger, S.N.E.D, 1979, p177
- 15— Ibid, p177
- 16-Salama (P) , Les déplacements successifs du limes en Maurétanie Césarienne .Budapest , 1977 , pp583 — 584.
- 17-Cadenat (P), La villa berbéro- romaine d'Ain Sarb, Antiquité Africaine, 8, 1974, p87.
- 18- Strabon , XVIII , 3.
- 19- Gaudmet(j) , Les institutions de l'antiquité , 3 édition .Paris, Montchrestien , 1991, p194 .
- 20- خديجة منصوري ، التطورات الاقتصادية لموريطانيا القيصرية أثناء الاحتلال الروماني ، دكتوراه دولة ، جامعة وهران ، ١٩٩٥ - ١٩٩٦ ، ص ٧٧ .

- 21- Benseddik (N), op .cit, p36-37
- 22- De la Blanchère (R), Voyage d'étude dans une partie de la Maurétanie Césarienne. Paris , Imprimerie nationale, 1883, pp 66 — 77.
- 23- Gsell(St), Atlas Archéologique de l'Algérie (A .A.A) ,1 édition, Alger, 1911, F32 , n93.
- 24-De la Blanchère (R), op. cit , pp 66- 77.
- ٢٥- هم الجند المتخرجين من المعسكر بعد ٢٥ سنة من الجندية والذي كفل لهم القانون الروماني منذ سنة ١٠٧ ق.م و إما الحصول على قطعة أرض أو مبلغ مالي
- 27- C. I. L , VIII , 21568 .
- 28- Benseddik (N), op.cit, p 177.
- 29- Ibid , p177, p 201.
- 30- Gsell (St), A. A.A , F32 n 93
- 31- C. I. L , VIII , 21568 ; Leschi(L), op.cit , p109.
- 32- C. I. L, VIII , 2052
- 33-C. I. L , VIII , 21571
- 34- C. I. L , VIII , 21570
- 35-C. I. L , VIII , 21570
- 36-C. I. L , VIII , 21574
- 37-C. I. L , VIII , 21573
- 38-Gsell(St) , Le christianisme en Oranie avant la conquête arabe , B.S.G.A.O , 48,1927, p 29
- 39-Ibid, p 29
- 40- C.I.L VIII , 21772
- 41- Procopius, Bellum Vandalicum, II, 20; II, 31-32
- 42-Kadria (F.K) , Les Djaddars monument Berbère de la région de Frenda , Alger, O.P.U, 1983 .

اسم المتوفى	تاريخ الوفاة	السن	الانتماء العقدي	الوظيفة	المصدر
نيمسانوس Nemssanus	٢٢-١٢ م ٤١٢ م	٦٠	دوناتى	أسقف	CILVIII215 70
فيكتور Victor	٢١-٩ م ٤٣٣ م	٥٢	دوناتى	قس	CILVIII21 574
دوناتوس Donatus	٤٤٠-٤٤٦ م	٨٠	دوناتى	أسقف	CILVIII2 1571
كريسكانس Crescenses	٢٧-٢ م ٤٣٤ م	٥٥	دوناتى	قس	CILVIII215 73
دوناتوس Donatus	١١-٣ م ٤٤٦ م	٦٠	دوناتى	قس	Gsell(St), Le christianism e, p.27
ماوروس Maurus	٣٠-١١ م ٤٢٩ م	٧٠	مجهولة	قس	Ibid, p 42
مجهول	بعد سنة ٤٤٦	مجهول	كاثوليكي	أسقف	CILVII2177 2

يوضح الجدول الجهاز الكنسي لأسقفية البنيان في النصف الأول من القرن الخامس ميلادي

٦. البنيان بعد الاحتلال الروماني

إذا ذا ما واجهتنا صعوبات جمة خلال محاولة تسليط الضوء على مدينة البنيان خلال الاحتلال الروماني وما قبله ، فإن هذه الصعوبات تتضاعف بالنسبة للباحث الذي يسعى جاهدا للكشف عن الغموض الذي يخيم على تاريخ المدينة والمنطقة خلال الفترتين الوندالية والبيزنطية. أما بالنسبة للفترة الأولى ، فلا نحتكم على أية مؤشر يعرفنا بالوضع الذي آلت إليه البنيان ولا على العلاقات التي جمعتها بسكان المدن الشمالية لموريطانيا القيصرية ، ولا على الوضع الأمني إن كان متميزا بالهدوء والاستقرار أم سادته الاضطرابات ، وخلافا لذلك يتضح من المعطيات التي يفيدنا بها بروكوبيوس "Procopius" أن المنطقة لم تخضع للسيطرة البيزنطية بدليل أن موريطانيا الثانية على حد قول هذا الأخير والمقصود بها موريطانيا القيصرية كانت في سنة ٥٤٠م تحت سلطة ماستيغاس "Mastigas" باستثناء مدينة القيصرية (Caesarea)^(٤١) ، وخلافاً لذلك فلقد خضعت في فترة الاحتلال البيزنطي للأمراء الموريين الذين حكموا إما مملكة ألتافا أوفي المملكة لجدار^(٤٢) .

نقد

من الواضح أن فهم الحركة الاقتصادية للقرن الرابع الهجري لبلاد المغرب لن يتم دون الإلمام بتطور التجارة الصحراوية وشبكة طرقها، ومهما قيل عن قدم العلاقات التجارية بين بلاد السودان وإفريقيا - جنوب الصحراء -^(١)، فإنه يصعب التسليم بوجود تجارة منتظمة بين المنطقتين قبل القرن الثاني الهجري/٨م^(٢).

وقد اعتبر "المبارد"^(٣) هذه المسألة "من أعظم أحداث العصر الوسيط العالي وبأسف لضياح المصادر المعاصرة التي تحدثت عنه، و لكنه ينتهي إلى التسليم بأنه منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ارتبطت تجارة العالم الإسلامي بهذه الشبكة الجديدة من طرق القوافل والتي تشمل شبكات الشرق و بحر الروم، ففتحت أمام طرق المواصلات العامة أفق العالم السوداني بكامله.

أما "موني" Mauny.R^(٤) فلا يتردد في اعتبار العرب المسلمين روادا في هذا الميدان، إذ ذكر وهو يتحدث عن الجغرافيين الذين اهتموا بإفريقيا السوداء "إن إعطاء العصر القديم فيما يخص المنطقة التي تهمنا هو صفر على وجه التقريب". ويستبعد أن يكون القدماء قد عرفوا الصحراء جنوب توات أو فزان وينتهي به البحث إلى التسليم بهذه الحقيقة، وهي أن معرفة إفريقيا جنوب الصحراء لم تكن إلا على يد العرب المسلمين.

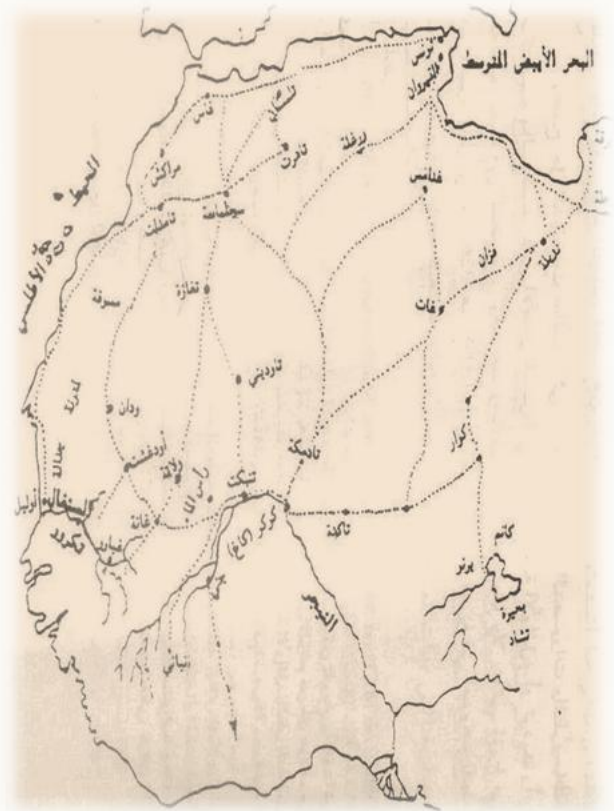
كما أن أهم الطرق التجارية كانت حتى تلك الحقبة، تتجه باتجاه شمال -شرق وجنوب -غرب منطلقا من الواحات المصرية ومن جنوب إفريقية نحو منحنى نهر النيجر مارا عبر صحراء فزان، إلا أنه بطل استخدامه قبل القرن الرابع الهجري لأسباب طبيعية وأمنية^(٥). وحول هذا ذكر "ابن حوقل" أن شكلت الرياح والعواصف الرملية عائقا مدمرا لغالبية القوافل المارة بهذا الاتجاه، الأمر الذي دفع إلى هجرانه والانتقال عنه إلى سجلياسة^(٦). غير أن العودة إلى هذا الطريق استؤنفت في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي^(٧). وعليه، يجب أن نقف عند أهم شبكة الطرقات والمسالك التجارية التي ربطت بلاد المغرب بإفريقيا السوداء، وبخاصة خلال القرن الرابع الهجري والذي مثل قرن الانتعاش الاقتصادي عموماً من جهة، وبالتنافس والصراع لأجل التحكم في منافذ تجارة الذهب والرقيق والملح من جهة أخرى.

أولاً: شبكة الطرق التجارية عبر الصحراء

والجدير بالذكر، أن تشكيل الصلات والروابط بين الشمال والصحراء الإفريقية وجنوبها اكتمل في القرون الخمسة الأولى عبر ثلاثة مسالك رئيسية وتفرعت عنها طرق ثانوية وهي:

الطريق الأول - الطريق الغربي - ويربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي، واستغرق المسير فيه خمسة وثمانين يوماً^(٨). وقد ذكر "اليقوي" أن هذا الطريق يبدأ من سجلياسة لمن سلك متوجهاً إلى القبلة يريد أرض السودان^(٩)، وأكد "الحموي" هذه الأهمية^(١٠).

ولاشك أن مدينة سجلياسة شهدت حركة تجارية نشيطة باتجاه بلاد السودان، وقد أشاد "ابن حوقل" بهذا "أن قوافلهم أهل سجلياسة - غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابعة، قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال"^(١١). وجاءت هذه الصورة، وسجلياسة تحت سلطة الفاطميين، مما يدل على أنها لم تفقد مكانتها ودورها الأساسي في التجارة الصحراوية. ولذلك يعدها



العلاقات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

د. فاطمة بلهوارى

استاذة تاريخ وسيط إسلامي
قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة وهران
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



fbelhouari10@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فاطمة بلهوارى، العلاقات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال ق ٤هـ / ١٠م - دورية كان التاريخية - العدد العاشر؛ ديسمبر ٢٠١٠. ص ٣١ - ٣٧.
(www.historicalkan.co.nr)



والغرب وسار إلى مدينة يقال لها أوزكا، بها فخذ من زناته يقال لهم بنو مسرة، ثم يواصل "هذا الجغرافي" تتبعه لهذا الطريق، فيضيف قائلاً: "من مدينة أوزكا لمن سلك مغرباً إلى أرض لزناطة، ثم يسير إلى مدينة سجلماسة".^(٢٦)

وقد قدر المؤلف نفسه المسافة من تيهرت إلى أوزكا بثلاث مراحل، ومن هذه المدينة إلى سجلماسة بسبع مراحل أو نحوها على حسب الجد في السير والتقصير^(٢٧)، أي أن المسافة بينهما حوالي عشرة مراحل. في حين أحصى "الحموي" مسافة هذا الطريق بعشرة أيام^(٢٨). كما فصل "الإدريسي" عند ذكره هذا المسلك، بأن القوافل تسير من فاس إلى صفروى إلى تادلة إلى آغمات إلى بني درعة إلى سجلماسة^(٢٩). ويبدو أن هنالك طريق مباشر بين فاس وسجلماسة، حيث اعتبر "ابن حوقل" إقليم آغمات عن يسار طريق فاس إلى سجلماسة، وقدرت مسافته بثمانين مراحل، ومثلها إلى فاس.^(٣٠)

بينما نجد أن الفرع الثاني من الطريق الرئيسي، حيث يخرج التجار من تيهرت إلى حصن ابن كرام عبر متيجة ومنه إلى إمارة هاز، ثم إلى بلد بني دمر، ثم يصلون إلى بوابة بلاد الزاب من الجهة الغربية وهي أدنة^(٣١)، ومنها إلى المسيلة، كما أشار إليه "ابن حوقل" قبل وصول مدينة مقرة^(٣٢).

ويرجع سبب اختيار الفاطميين في إنشاء هذه المدينة بهذا الموقع إلى أهميتها التجارية مع بلاد السودان^(٣٣). ويتواصل السير إلى طينة ومنها إلى بسكرة ثم إلى ورجلان ومن هذه النقطة مروراً إلى منطقة أدرار، وأفوقاس وصولاً إلى تادمكة التي كانت مركزاً تجارياً هاماً، ويقع في قفار ومفازات^(٣٤). وهي في شمال شرقي منحى نهر النيجر^(٣٥). ثم يستمر السير إلى مدينة كوكو ومنها إلى غانة والمراكز السودانية الأخرى^(٣٦).

كما توجد عدة طرق فرعية لهذا الطريق الرئيسي، منها فرع يبدأ من القيروان إلى بلاد الجريد، حيث مدينة قسطنطينية بالجنوب التونسي، ومنها يتجه الطريق إلى واحة ورجلان ومنها إلى مناطق السودان الغربي^(٣٧). ويوجد فرع آخر يربط سجلماسة بواحة ورجلان بواسطة الصحراء الغربية، وقد أشار إليه بعض مؤرخي الإباضية^(٣٨). وقد سلك هذا الطريق "عبيد الله المهدي" الفاطمي في نهاية القرن الثالث الهجري/٩م، عندما كان متوجهاً إلى سجلماسة^(٣٩).

والحقيقة أن هذا الطريق أشتهر في القرن الرابع الهجري، خاصة بعد أن تقلص نفوذ الإباضية في تيهرت بعد سقوط إمارتهم، فاتجه أغلبهم إلى واحة ورجلان، وسيطروا على هذا الطريق المهم. وقد حاول الفاطميون محاصرتهم لكنهم فشلوا في ذلك، وبقيت هذه المدينة معقلاً للمقاومة الإباضية ضد الفاطميين^(٤٠). ويبدو أن هذا الطريق سرعان ما استولى عليه أمويو الأندلس الذين قوّتوا فيه بدورهم لفائدة المرابطين فيما بعد، ولم تستطع السلطة الزيرية إرجاعه^(٤١).

أما الطريق الثالث - الطريق الشرقي - فهو يربط مناطق طرابلس بالسودان الغربي، ماراً بجبل نفوسة في اتجاه مدينة غدامس، ثم إلى تادمكة ومنها يصل إلى منحى نهر النيجر^(٤٢). وهنالك فرع ثانٍ للطريق الشرقي الذي يربط مناطق طرابلس وبرقة بالسودان الأوسط (كانم) عبر صحراء فزان، ويبدأ من طرابلس باتجاه الجنوب إلى صحراء فزان ويمر بزويلة المحطة التجارية المهمة في صحراء فزان، ثم يسير إلى مناطق كانم بالسودان الأوسط^(٤٣). وبذلك نستطيع القول أن مناطق

"البكري" مدخلا لبلاد غانا^(٤٤). وعندما تغادر القافلة التجارية هذه المدينة نحو الجنوب، تتوغل في الصحراء الغربية، لتصل إلى قوم يقال لهم أبنية*^(٤٥).

ويستمر سير القوافل التجارية إلى أن يصل إلى أودغشت، والتي لم يحدد جغرافيو القرن الثالث الهجري موقعها من الصحراء تماماً، فإذا كانت هي غسط التي ذكرها اليعقوبي^(٤٦)، فإن هذا الأخير لم يورد عنها شيئاً، وكل ما يفهم مما ذكره أنها ترتبط بسجلماسة بطريق قبلي، وأنها في واد عامر به المنازل غير أن هذا التحديد لموقع هذه المدينة غير دقيق.

وما يلفت الانتباه أن "ابن حوقل" لم يكشف هو الآخر عن هذا الغموض^(٤٧)، وكذلك كان شأن "البكري"^(٤٨)، وربما كان عذر هذا الأخير أنه لم يزر الصحراء ولا المغرب بعامة، وأنه لم يعثر على تحديد لموقعها بين المؤلفات التي اعتمد عليها. كما يرجح هذا النقص في المعلومات إلى طبيعة التدوين للمواقع الجغرافية حيث انصب اهتمامهم في ذكر المسافات والتحديد التضاريسي^(٤٩).

وظل ذلك الغموض قائماً في تحديد موقع أودغشت إلى أن توصلت إحدى الدراسات الغربية بعد التنقيبات التي أجريت بعين المكان وذلك سنة ١٩٣٩م، أنها تقع إما جنوب ركيز (Irkiz) أو في أفولي (Affoly)^(٥٠).

والغريب، أن "اليعقوبي" ينتهي بهذا الطريق إلى هذه المدينة غسط، ولا يشير إلى امتداده إلى غانة^(٥١)، مما قد يطرح تساؤلاً هل هذا تعبير عن ضعف دور هذا المسلك في زمنه؟ أم أنه تجاهل ذكره، كما تجاهل ذكر بلاد السودان الغربي عامة^(٥٢). في حين أشار "ابن حوقل" إلى أن الطريق يستمر إلى مدينة غانة، وقد تعزى هذه التفاصيل بدون ريب إلى أن هذا الجغرافي زار أودغشت (غسط) سنة (٣٤٠هـ/٩٥١م)، وقد ذكر: "أن المعتز لم يزل أيام ولايتها وهو أميرها يجتبيها من قوافل خارجة إلى بلاد السودان وعشر وخراج وقوانين قديمة..."^(٥٣). هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبه هذا الطريق خلال هذه الحقبة، وهنالك فرع آخر للطريق الغربي، والذي يبدأ من مناطق السوس في المغرب الأقصى ماراً بالصحراء الغربية ومنتها بمدينة غانة^(٥٤).

ويصف "ابن حوقل" هذا الطريق و يذكره في شكل مثلث رأسه مدينة أودغشت، وأقصر أضلاعه بين السوس وأودغشت، والضلع الآخر هو الممتد بين سجلماسة وأودغشت، ومنها إلى غانة، وإلى مراكز الإنتاج السودانية مثل كوغه. وهكذا كشف هذا الجغرافي عن وجود طريق رابط بين السوس الأقصى وأودغشت في القرن الرابع الهجري^(٥٥). والظاهر أنه نفس الطريق الذي أشار إليه "ابن الفقيه" بذكره الطريق من طرقه إحدى مدن السوس - إلى غانة^(٥٦)، وبهذا يعد الطريق الغربي من أنشط الطرق التجارية الصحراوية إلى بلاد السودان خلال هذا القرن، بعد أن بطل العمل بطريق مصر-غانة عبر صحراء فزان.

أما الطريق الثاني - الطريق الأوسط -، ويربط تيهرت بالسودان الغربي، وذلك بواسطة طريقين رئيسيين، الأول طريق غربي يمر عبر سجلماسة، والثاني شرقي بالنسبة للأول، ويمر عبر ورجلان^(٥٧). فالأول تسير فيه القوافل من تيهرت إلى فاس، ثم باتجاه سجلماسة. وقد كان "اليعقوبي" أول من أشار إلى وجود طريق يربط بين تيهرت وسجلماسة، إذ ذكر أن من خرج من تيهرت سلك الطريق بين القبلة

ثانيا : أنواع المبادلات التجارية

شملت صادرات بلاد المغرب إلى بلاد إفريقيا السوداء خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي سلعا وبضائع متنوعة ومختلفة ، كان بعضها مغربية والأخرى مشرقية ، فضلا عن السلع والبضائع من حوض بحر الروم ، حملها التجار العرب عبر الطرق الصحراوية المتعددة التي تربط بلاد المغرب بالسودان . وكانت الحبوب والتمر من السلع الأساسية التي نقلها التجار المغاربة إلى بلاد السودان ، لعدم توفرها عندهم . فمدينة أودغشت كان "يجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد" (٥٠) ، وخاصة من ورجلان وقسطيلية . كما كان يحمل لها "النحاس المصبوغ وثياب مصبغة بالحمراء والزرقة مجنحة" (٥١) .

وكذلك كان التجار المغاربة يصدرون إلى هذه المناطق الجلد المدبوغ الذي تنتجه زويلة وغدامس وخاصة جلود مدينة فاس (٥٢) وأغمات والتي اشتهرت بها . هذا إلى جانب ، أن بلاد المغرب صدرت بعض الأواني الفخارية إلى مدينة أودغشت (٥٣) ، فالتنقيبات الأثرية التي أجريت في هذه المدينة قد أثبت وجود أواني فخارية مغربية الصنع تعود إلى عهد الدولة الرستمية (٥٤) . هذا وقد أشار "ابن صغير" إلى سير القوافل من تيهرت إلى السودان دون أن يفصل في ذكر أنواع السلع (٥٥) .

في حين قدم "الإدريسي" قائمة طويلة بصادرات بلاد المغرب نحو هذه الجهة في قوله: "أن التجار يدخلون بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطر من النحاس الأحمر والهلون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأفاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع" (٥٦) .

فمدينة إيجلى الواقعة في منطقة السوس كان يحمل منها النحاس المسبوك الذي اشتهرت بعمله إلى بلاد السودان (٥٧) . أما مدينة سجماسة هذه المحطة التجارية المهمة لقوافل الصحراء المتجهة خاصة نحو أودغشت وغانة وتكرور ، فكانت تصدر أنواع المحاصيل الزراعية كالتمر والزبيب وأنواع البضائع المصنوعة يدويا كالمنسوجات السلجاسية الشهيرة (٥٨) .

وبشير "الحموي" إلى أن التجار كانوا يسافرون من سجماسة إلى غانة وكان جهازهم الملح وعقد الخشب الصنوبر ، وهو من أصناف شجر القطران ... وخرز الزجاج الأزرق ، وأسورة نحاس أحمر وحلق وخواتم نحاس لا غير (٥٩) . هذه السلع لم تكن ذات قيمة في حد ذاتها ، ولكن قيمتها تزداد بسبب المسافات الطويلة والسفر المضي ، الذي يتطلبه نقلها إلى هذه البلدان التي تحتاج إليها ولا تملكها (٦٠) .

وأغلب الظن أن هذه السلع إذ لم تكن مغربية من سجماسة ، فإن التجار المشاركة أو غيرهم جلبوها إلى بلاد المغرب ، وحملوها إلى بلاد السودان . ويبدو أن السودانيين كانوا يستوردون حتى سميد الأرض من مدينة فاس حسبما يذكر صاحب الاستبصار (٦١) .

وأهم بضاعة حملها التجار المغاربة إلى بلاد السودان مادة الملح لحاجة أهل تلك البلاد الهامة له ولانعدامه في مناجمهم (٦٢) . فضلا عن صعوبة نقل ما يستخرج منه من شواطئ البحر المحيط إلى الداخل لارتفاع درجات الحرارة . كما أن أهل بلاد السودان كانوا يستخدمونه في تجفيف السمك والحيتان التي يصطادونها من النيل نهر السنغال والنيجر - وهي قوام معيشتهم (٦٣) . لذلك يعتبر أهم مادة كان يبادلها السودانيون بالذهب .

برقة وطرابلس ارتبطت بالسودان الأوسط والغربي بطرق تجارية سارت عبر صحراء فزان (٤٤) .

والظاهر أن طريق السودان الأوسط (كانم) كان سالكا منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، حيث مارس الإباضيون التجارة عبر فزان إلى بلاد السودان ، وقد دلت الحقائق التاريخية عن وجود علاقات تجارية بين حاكم كانم وحاكم جبل نفوسة "أبو عبيد عبد الحميد الجنادي" ، إذ كان هذا الحاكم يعرف اللغة الكانمية ، ولا بد أن تكون هذه المعرفة باللغة متأتية من وجود صلات بين الإباضية وبين كانم . إذ كانت العلاقات بينهما اقتصادية بالدرجة الأولى ، خاصة وأن الإمارة الإباضية التي نشأت في زويلة أثناء القرن الرابع الهجري تحت حكم بني خطاب الإباضي ، مارست نشاطا تجاريا كبيرا في كانم عبر الصحراء (٤٥) .

ولا بد لنا من القول ، أن هذه الطرق التجارية التي ذكرناها ، تتحكم بها عوامل سياسية واقتصادية وجغرافية تؤدي إلى تغيير مسالك القوافل من وقت لآخر ، غير أن اتجاهاتها عموما تبقى ثابتة ، ما دامت المراكز التجارية الواقعة عليها لم تفقد قيمتها لسبب أو لآخر .

وبعد أن اندثر الطريق الذي يربط مصر بالسودان الغربي المار عبر فزان بسبب العوامل الطبيعية كما أسلفنا الذكر ، اتجه التجار إلى استعمال طريق سجماسة - أودغشت . كما نشط الطريق الأوسط الذي ربط وارجلان بالسودان الغربيين بفعل العمل السياسي المتمثل في نشاط الإباضية عبره بعد أن سقطت الإمارة الرستمية في تيهرت . وقد كان للصراع الذي حدث في هذا الزمن بين مختلف القوى السياسية للسيطرة على بعض الطرق التجارية من أجل استمرار توقف الذهب السوداني ، كالصراع الذي شهدته المنطقة بين الفاطميين وأموي الأندلس كان من أجل السيطرة على الطريق الصحراوي الغربي ، الذي ينطلق من سجماسة .

وكان من نتائج هذا الصراع أن تدخل الأمويون في المغرب الأقصى لغرض منع الفاطميين من الهيمنة على تجارة الذهب مع السودان (٤٦) . وفعلا تمكن الأمويون في فترات من القرن الرابع الهجري من استعادة الإشراف على الطريق الغربي ، بينما ظل الفاطميون أصحاب السلطان على الطريقين الأوسط والشرقي .

ويذكر "الجناني" أن السيطرة الفعلية على الطريق الأوسط كانت عبر وارجلان بالنسبة للخوارج الإباضية ، ولم يفلح الفاطميون في السيطرة عليه تماما (٤٧) ، رغم الحملات العسكرية التي سخرت لهذا الغرض ، إذ كانت حملة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م آخر محاولة لهم للسيطرة على المسلك الغربي سجماسة - أودغشت ببلاد غانة ، وذلك للحصول على ذهب السودان (٤٨) .

وتجدر الإشارة هنا ، بأن الفاطميين كانوا أصحاب السيطرة المطلقة على الطريق الغربي ، خاصة في الفترات التي خضعت فيها سجماسة لسلطتهم ، واستمر هذا الحال حتى رحلوا إلى مصر في عام (٩٧٢هـ / ٩٧٢م) . وقد حاول هؤلاء حتى بعد رحيلهم إحياء المسلك الرابط بين مصر وبلاد السودان تعويضا للمسلك الغربي ، حيث ثمة إشارة عند "ابن الأبار" مفادها أن "يحيى بن علي بن حمدون الجذامي" يكون قد استعمل هذا المسلك لها فر من الأندلس متجها نحو القاهرة ويقول فيها : "فصار إلى سجماسة ثم ركب الصحراء إلى مصر ، فقابلته "العزیز بالله أبو المنصور نزار" وهو عصرئذ الخليفة بها" (٤٩) .

مفتولة ، وذهب أودغشت أجود ذهب أهل الأرض وأصححه...^(٧١) .
ولذلك اعتبرها المؤلف نفسه باب الصحراء إلى السودان ومعادن
الذهب^(٧٢) . وكان أهلها أثرياء من هذه التجارة . وقد أشاد "ابن حوقل"
بهذا "أن قوافلهم -أهل سجلماسة- غير منقطعة إلى أرياح عظيمة
وفوائد جسيمة ونعم سابقة ، قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة
حال"^(٧٣) .

غير أننا لا نحتكم إلى معطيات تاريخية عن كيفية جمع الذهب من
مصادره الأصلية خلال القرن الرابع الهجري ، باستثناء ما ورد عند "ابن
القيهي" في قوله: أن الذهب ينبت فيها -غانة- نباتا في الرمل كما ينبت
الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس^(٧٤) . ويبدو أن النص ذو طابع
أسطوري وربما جاءت هذه الصيغة تعبيرا على الكثرة . بينما تعتبر رواية
"الإدريسي" هي الأقرب إلى الحقيقة عندما ذكر أن "النيل إذا أخذ في
الرجوع والجزر رجع كل من في بلاد السودان... بحثا يبحثون طول
أيام رجوع النيل ، فيجد كل إنسان منهم في بحته هناك ما أعطاه الله
سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر وتاجر بعضهم بعضا"^(٧٥) .

وفي النص دلالة على مشاعة استهلاك هذه المادة ، إذ هي لا
تخضع لأدنى قانون الملكية ، بل المسألة متوقفة على الحظ . وهذا
يترك عدة تساؤلات عن هذه المجتمعات التي كانت بحوزتها معدن
الذهب ولم تحسن استغلاله .

نفكر إلى معلومات وافية عن الأسلوب التجاري الذي تم به جلب
ذهب السودان إلى مناطق بلاد المغرب ، ولعل أحسن وصف له ما ورد
عن "ياقوت الحموي" أنه كان يتم فيها اصطلاح عليه بالسوق الصامته
أو "المقايضة الخرساء" فلا يستبعد أن جرت عملية التبادل التجاري
الأسلوب نفسه خلال القرن الرابع الهجري .

ومن الأدلة التي تشير إلى اتساع نطاق استعمال النقود الذهبية في
خلال هذا القرن ، هو قيام الفاطميين بضرب النقود الذهبية طيلة
تواجدهم ببلاد المغرب وذلك بفضل جمعهم لثروة طائلة ، وما وصل
إليهم من ذهب السودان والذي احتكروه ، وشكلوا به رصيذا هاما
سمح لهم في ظرف قصير تحقيق خططهم لغزو مصر . وكل هذا يعود
للسياسة النشطة التي قامت على الدينار . فقد ضاعفوا نشاطهم لضرب
نقود الذهب مما أدى إلى تفوق الدينار الفاطمي كما وكيفا^(٧٦) .

وكان لمظاهر الأبهة داخل بلاط الخلفاء الفاطميين كصنع حصير
وسراج وسيوف من الذهب ، دلالة على توفر هذه المادة بكثرة حتى
تعددت أغراض صناعاتها . وما تلك الأموال التي حملوها معهم عند
رحيلهم إلى القاهرة سوى برهان عن مدى استفادة هؤلاء من جلبهم
لذهب السودان ، حيث أطنب المؤرخون^(٧٧) عند وصفهم لعملية سبك
الدينار ، وعملها مثل الطواحين وحملها على الجمال . كما لا يستبعد
استمرار تدفق الذهب في عصر حكم بن زيري لبلاد المغرب ، غير أن
المصادر التاريخية قلما تناولت هذا الموضوع الحيوي وربما يعود ذلك
لطغيان الأحداث السياسية والعسكرية عن المسائل الاقتصادية .

شكل العبيد سلعة هامة في خط متواز مع تجارة الذهب ، إذ
أصبحت ميزة أساسية من ميزات المجتمع المغربي خلال مرحلة
دراستنا ، حيث كانت وراء استفحال هذه الظاهرة ، هي الضرورة
العسكرية والاقتصادية . وفي السياق نفسه علل "الجنحاني" أن حاجة
العالم الإسلامي إلى العبيد ازدادت مباشرة بعد انتهاء عمليات الفتح
وبداية الاستقرار ، ترتب عن ذلك عملية التعمير مما اضطر إلى تعدد
مصادر توريد اليد العاملة^(٧٨) .

ولعل مادة الملح كانت لها مكانة خاصة في تلك العبادلات
التجارية وهو ما يستنتج من رواية "البكري" والتي يقول فيها: "ومن
غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه
وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما تحفر عنه الأرض كما تحفر عن
سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونها من وجه الأرض
ويقطع كما تقطع الحجارة ويسمى هذا المعدن تانتال... ومن هذا
المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان . والعمل فيه
متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة"^(٧٩) . ويتضح من النص
أن الملح لم يكن بضاعة مغربية متوفرة في مدن وأقاليم المغرب وإنما
كان التجار المغاربة يستبدلون بعض سلعهم بالملح في الصحراء
الكبرى ، ومن ثم ينقلونه إلى غانا وكوكو .

وقد وردت إشارة مفيدة عن الثمن الذي كان يباع به الملح في
السودان عند "ابن حوقل" إذ ذكر "أن حمل الملح ، أي ما يحمله
الجمال الواحد ، كان ثمنه في غانة ما بين مائتين أو ثلاثمائة
دينار"^(٨٠) . وأحيانا كان يباع الملح بوزن الذهب أو ربما بوزنتين من
الذهب أو أكثر . على قدر كثرة التجار وقتلتهم^(٨١) . وكان حمل الجمل
يتراوح ما بين ١٢٥ و ١٥٠ كلف ، الشيء الذي أثار تعليق دوفيس
"Devisse" حين قام بالحفريات في منطقة أودغشت في قوله: "إننا
إذن ، أمام ملح يساوي ثمننا غاليا جدا . فإذا قدرنا أن الدينار يزن في
قيمه المتوسطة ٣,٨٠ غ ، يكون حمل الجمل يساوي في حده الأدنى
٧٦٠ غ من الذهب وفي حده الأعلى ١٤٠ غ"^(٨٢) .

ولكن لا ننسى أن الملح كان منعدا في بلاد السودان ، وكان لابد
من جلبه من الشمال . ومن ثم نشأ التبادل بين الملح والذهب ،
وصعد سعر الأول إلى تلك الأرقام الخيالية . وقد أشار "البكري" إلى
وجود معدنين مهمين من الملح في الصحراء أحدهما في تانتال كما
سبق الذكر والآخر في أوليل* ، وهناك طريقة أخرى لحمله وذلك
بواسطة السفن عبر بحر المحيط إلى سواحل السودان الغربي . وفي
هذا الصدد قد أشار "الإدريسي" أن السفن كانت تسير لبلاد السودان
الغربي ، ثم تدخل نهر السنغال إلى دواخل بلاد السودان الغربي حتى
سلا وتكرور وغانة^(٨٣) .

ولا شك أن ضرورة جلب الملح إلى بلاد السودان كان محل صراع
بين قبائل الصحراء من أجل احتكار هذه التجارة وبخاصة لم تكن
الوضعية السياسية بسيطة في الصحراء ، بل كانت معقدة ومن شأنها
أن تثير أطماعا كبرى^(٨٤) .

أما بخصوص واردات المغرب من بلاد السودان نجد الذهب
يتصدر القائمة ، حيث اعتاد التجار السفر عبر الصحراء إلى بلاد غانة
ومنها إلى مناطق وجود الذهب . وكل القرائن تدفع إلى الاعتقاد بأن
بداية جلب الذهب من السودان عبر المسالك المغربية التي أسلفنا
الذكر عنها ، تعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/ الثامن
الميلادي أي قبل أن يتحدث عنها الجغرافيون بنصف قرن على الأقل .
وكان اكتشافه في السودان حدثا له أهميته كبرى لم ينتبه لها
المؤرخون القدامى بالكفاية . غير أن فقر مصادرها وسكويتها في كثير من
الأحيان هو الذي جعل هذا الحدث التاريخي لا يبرز في كل أبعاده^(٨٥) .

وفي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بدأت تتسع تجارة
ذهب السودان الغربي عن طريق القوافل المنطلقة من ورجلان إلى
كاغو بهالي والقوافل المتجهة إلى أودغشت ، وحول هذه
الأخيرة ذكر "البكري" "أنه يجلب منها... الذهب الإبريز الخالص خيوطا

رائجة لما تذرده من أرباح وأمواال طائلة ، وقد اتسع نطاقها في آخر عهد بني زيري بفضل الغزو في البحر أو ما اصطلح عليه بالقرصنة^(٩٥). هذا وقد أشار "البكري" إلى أنه كان يجلب من أودغشت سودانيات طباحات محسنات تباع الواحدة منهم بمائة مثاقيل^(٩٦). وذكر مجهول صاحب كتاب "الاستبصار" أن نوعا من السودانيات اللاتي جلبن من أودغشت ماهرات في الطبخ تحسّن عمل الأطعمة ولاسيما الحلويات ، فلا يوجد أحرق بصنعتها منهن^(٩٧).

وأكد "ابن حوقل" المتقدم عنهما زمنيًا هذه الروايات عندما ذكر أن من بين ما يجهز من المغرب إلى المشرق الخدم المجلوبون من بلاد السودان^(٩٨) ، وهذا يؤكد أن العبيد كانوا سلعة رائجة ومربحة ، لهذا لا تستبعد آثار هذه التجارة في المدن الصحراوية^(٩٩).

وعلاوة على هاتين البضاعتين الثمينتين ، كان التجار المغاربة يحملون من بلاد السودان الدرق اللطمية ، فذكر "الإدريسي" أن مدينة نول تصنع الدرق اللطمية التي لا شيء أبدع ولا أصلب منها ظهرا ولا أحسن منها صنعا ، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محلها^(١٠٠). وهذه الرواية وأن بدت بعيدة عن حقبة موضوع الدراسة إلا أن فيها بعض الحقائق التي سبق وأن ذكرها "ابن حوقل" أنه من سجلها إلى لمطة معدل الدرق اللطمية عشرون يوما^(١٠١). وقد أشار "الدرجيني"^(١٠٢) إلى وصول كهذه الدرق إلى مدينة تيهرت في مرحلة الحكم الرستمي. وجلبت الأحجار الثمينة والعنبر وريش النعام من بلاد السودان^(١٠٣). وأشار "الإدريسي" أن شب كوار بالكانم بالغ الجودة يتجهز به إلى سائر البلاد ومنها بلاد المغرب^(١٠٤). وكانت تصدر أنياب الفيل إلى المغرب الأقصى^(١٠٥). كما أن القوافل التجارية حملت أنواعا من حيوانات بلاد السودان كالقيلة والزرافات إلى بلاد المغرب ، وهذا النوع من التجارة يشوبه الغموض ، حيث لم ترد تفاصيل مهمة في المصادر التاريخية ، وبالتالي يظل توظيفها في باب التجارة يحتاج إلى دراسة ويحث.

اعتبرت المدن المغربية مخازن لبضائع بلاد السودان ، نتيجة التجارة العابرة للصحراء ، من أجل إعادة توزيعها في اتجاه صقلية والمشرق الإسلامي من شواطئ إفريقية ، أو في اتجاه الأندلس وبلاد الإفرنج من سواحل مضيق جبل طارق^(١٠٦). وأعظمها شأنًا كانت بطبيعة الحال ذهب السودان ، والذي ظل لستة قرون العصب المحرك لديناميكية التطور العالمي في العصر الوسيط^(١٠٧). إذ كان الذهب يغذي مصانع ضرب العملة الذهبية في بلاد المغرب ومنطقة بحر الروم^(١٠٨) ، كما كان يدعم حركة التبادل التجاري بين بلاد السودان والمغرب من جهة وبين المغرب والمشرق الإسلامي وبحر الروم من جهة أخرى^(١٠٩). والملتفت للانتباه أن بعض المدن المغربية الواقعة على هذه المسالك المهمة تحولت إلى مجرد نقاط عبور دون الاستفادة تجاريا من ذلك ، بينما نجد في نفس الوقت مساهمة هذه التجارة في نهضة مناطق عمرانية أخرى مزدهرة يصلها المعدن عن طريق مدن بلاد المغرب^(١١٠).

وخلاصة القول ، أن آثار القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أحدث توسيعا في شبكة الاتصالات لبلاد المغرب ، حيث ربط بحر الروم ربطا كليا وشاملا بإفريقيا جنوب الصحراء. كما لعبت الواحات الجنوبية دور الوسيط الحقيقي في هذه العلاقات التاريخية السلمية والاقتصادية والإنسانية والدينية ، مما أتاحت بفضل ذلك لبقية العالم ، شرقا وغربا فرصة الاستفادة منها ، وتنمية ثروته وموارده.

واعتبرت بلاد المغرب أنموذجا عن شيوع ظاهرة جلب الرقيق من مناطق متعددة. وشكلت بلاد كانم من بلاد السودان ، المصدر الرئيس في تزويد بهذا النوع من التجارة^(٧٩) ، ولاسيما ابتداء من القرن الرابع الهجري ، حيث وردت فتاوى في المصادر الفقهية عن الرق والعرق لفقهاء المغرب من هذا القرن ، وعلى سبيل الذكر فتوى للفيهي "ابن أبي زيد القيرواني" عن شراء جارية داخلية في المغنم^(٨٠).

وقد ساهم الرقيق إلى جانب سلعة الذهب في ازدهار المراكز التجارية الهامة ، وقد استغلت بلاد السودان لتوفير العبيد ، وهذا بفضل تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء ، واعتبرت أهم فئات رقيق السودان هم التكرور السنغاليون والصونكي الغانيون والسونغائي من كاوكاو ، أو الساءو من كانم نحو نول لمطة وإلى سلجلماسة. ومن هناك يتجه إلى المغرب الأقصى والأندلس ، أو إلى ورجلان والجريد ثم إلى إفريقية وفزان وطرابلس وبرقة ومصر وسائر بلاد المشرق^(٨١).

لقد مثل هؤلاء القوة المنتجة في مختلف ميادين النشاط الاقتصادي ، فهم العاملون في الحقول وفي المناجم ، وفي حراسة القوافل التجارية ، وفي الورشات الحرفية. هذا إلى جانب استخدامهم في الأعمال المنزلية ، ولم يعد امتلاكهم مقصورا على الأسر الحاكمة بل تعداها إلى الفئات الثرية ولاسيما التجار حيث كان لتاجر من أودغشت ألف خادم أو أكثر^(٨٢) ، ولا يطرح الرقم استغراب إذا عرفنا ما يحتاج إليه القوافل التجارية من حراس وعمال^(٨٣).

كما أصبح اتخاذ الحرس الخاص من عبيد السودان أمرا شائعا لدى حكام بلاد المغرب ابتداء من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، فاعتمد الأغلبية في المجال العسكري على الزنجي بعد أن استغنوا عن الجندي العربي^(٨٤). والحديث ينسحب على بني مدرار حيث احتلت هذه العناصر شأوا عظيما في الجندية^(٨٥). وبالمثل ، اقتفى الفاطميون أثر ذلك ، فاتخذ "عبيد الله المهدي" بعد بيعته مباشرة العبيد من السودان والروم^(٨٦). وقد ذكر "العريزي الجؤذري" ، كيف اتخذ هذا الخليفة العبيد ، بعد دخوله رقادة "فقد حصّلت بين يديه مع جملة من حصل من الصقالبة وغيرهم"^(٨٧) وليس بالعبيد أن كان ضمن عبارة غيرهم عبيد من السودان لأن حضورهم كان واقعا. وأورد المؤلف نفسه عبارة تدل على أن الفاطميين اتخذوا العبيد من السودان ، في قوله: "... التفت إلى من مكان واقفا بين يديه ، وكان الأمير "عبيد الله" عليه السلام - من الوقوف واسحاق بن موسى وغيره من السودان الخدم"^(٨٨). وفي السياق نفسه وردت إشارة عند "المالكي"^(٨٩) تنيد في اتخاذ الدولة الفاطمية السودان كعناصر لردع المخالفين لهم. كما أكد ذات الحقيقة "المقريزي"^(٩٠) في استخدام هذه الدولة للسودان ضمن عسكريها.

وسار الزيريون على نهج الفاطميين فقد ذكر "ابن عذاري" أن "عبيد الله بن محمد الكاتب" عامل إفريقية سنة (٣٧٣هـ/٩٨٣م) اشترى العبيد من السودان ووزعهم على مختلف الدواوين ، فاجتمع له منهم ألوف^(٩١). وفي النص دلالة على كثرتهم خلال هذه المرحلة التاريخية.

كما أولت المصادر الجغرافية اهتماما خاصا بهذه التجارة إذا أشار "اليقوي"^(٩٢) عند ذكره لمدينة زويلة ، أن تجارها كانوا يأتون بالعبيد من بلاد السودان. وأكد "الأصطخري" على ذلك في قوله: "هؤلاء الخدم السود أكثرهم يقع إلى زويلة"^(٩٣). وهكذا اتخذت هذه المدينة محطة لتجمع القوافل المزودة بالعبيد^(٩٤) . ولا غرو أن تجارة الرقيق كانت

الهوامش

(١) اهتمت بعض الدراسات الحديثة بموضوع الاتصالات الأولى لبلاد المغرب بالصحراء الإفريقية وتباينت وجهات نظرها، و نذكر من جملتها: القاسمي هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري، منتصف القرن العاشر الميلادي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الرباط، ١٩٩٥، ج ١، ص ٣٨٦. محمد زبيبر، المغرب في العصر الوسيط، الدولة، المدينة، الاقتصاد، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٩، ص ٣٩٧.

Mauny.R, Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen Age D'après les sources Arabes, Ifran- Dakar, 1961, pp21-24et 397, 406, 429. Laroui.A; L'histoire du Maghreb, Maspero, Paris, 1970, T1, p114

(٢) أورد كل من ابن عبد الحكم و الرقيق القيرواني و البكري و ابن عذاري معلومات عن اتصال العرب المسلمين ببلاد السودان و جلبهم للذهب، ينظر : فتوح مصر و إفريقية، قسم من كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤، ص ٩٤ : تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق، عبد الله المعلي الزيدان، عز الدين أحمد موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠، ص ٧٢ : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مطبعة، Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris, 1963, ص ١٥٦-١٥٧ : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة، ج. س. كولان، إ. ليفي. بروفنسال دار الثقافة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣، ج ١، ص ٥١.

(٣) الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة، عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩، ص ٢٦.

(4) Mauny.R, Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen Age D'après les sources Arabes, Ifran- Dakar, 1961, p118.

(٥) إدريس صالح، العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية و بلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام، مجلة البحوث التاريخية، بغداد، العدد الأول، ١٩٨٣، ٧٧، ٨٦.

(٦) صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ص ٦٥.
(٧) صباح الشخيلي، تاريخ الإسلام في إفريقيا، مديرية مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٧، ص ٩٣.

(٨) بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية (١٦٠-٢٩٦ هـ/ ٧٧٧-٩٠٩ م) - دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية -، نشر، جمعية التراث، القرارة، ط ٢، ١٩٩٣، ص ٢١٧.

(٩) كتاب البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٧، ص ١١٥.
(١٠) معجم البلدان، دار الصادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ج ٣، ص ١٩٢.

(١١) صورة الأرض، ص ٦٥.
(١٢) المغرب، ص ١٤٩.

(*) وهم بربر من صنهاجة المثلثين. اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١١٥، وهي إتحد مسوفة جدالة و لمتونة، جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٢١٥.

(١٣) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١١٥.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(١٥) صورة الأرض، ص ٩٧، ٩٥.

(١٦) المغرب، ص ١٥٦.

(١٧) جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢٦٠.

(١٨) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(١٩) البلدان، ص ١١٥.

(٢٠) جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢٤٩.

(٢١) صورة الأرض، ص ٩٦-٩٧.

(٢٢) البكري، المصدر السابق، ص ١٥٩، ١٦٨.

(٢٣) صورة الأرض، ص ٩١.

(٢٤) كتاب البلدان، ص ٨٧.

(٢٥) جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(٢٦) البلدان، ص ١١٤.

(٢٧) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٢٨) المعجم، ج ٣، ص ١٩٢.

(٢٩) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الأفاق الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ج ١، ص ٢٤٣.

(٣٠) صورة الأرض، ص ٩٠.

(٣١) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٠٧، ١٠٩.

(٣٢) صورة الأرض، ص ٨٧.

(٣٣) بحاز إبراهيم، المرجع السابق، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣٤) البكري، المصدر السابق، ص ١٨٢. جغرافي مراكشي من (٦ هـ/ ١٢ م) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد

المغرب، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية،

١٩٥٨، ص ٢٢٤.

(35) Mauny . R , op.cit., pp118-120.

(٣٦) البكري، المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٣٧) قدرت المسافة بين بلاد الجريد والقيروان بنحو سبعة أيام، في حين بلغت

المسافة بين قسطنطينية وواحة ورجلان بنحو أربعة عشر يوما. المصدر نفسه،

ص ١٨٢.

(٣٨) أبو زكرياء، السير، ص ١٦٥-١٦٦. الدرجيني، الطبقات، ج ١، ص ٩٢-

٩٣. يراجع دراسة بحاز إبراهيم، المرجع السابق، ص ٢١٥-٢١٦.

(٣٩) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق، فرحات الدشراوي، الشركة

التونسية تونس، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط ٢، ١٩٨٦، ص

١٦٣-١٦٤.

(٤٠) الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة

البعث، قسنطينة، ١٩٧٤، ج ١، ص ٩٥. محمود إسماعيل عبد الرازق،

الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار

البيضاء، المغرب، ١٩٧٦، ص ٢٣٤.

(٤١) الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري

من القرن ١٠ إلى القرن ١٢ م، ترجمة، حمادي السّاحلي، دار الغرب

الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ج ٢، ص ٢٩١.

(٤٢) البكري، المصدر السابق، ص ١٨٢-١٨٣. ينظر، بحاز إبراهيم، المرجع

السابق، ص ٢١٨-٢١٩.

(٤٣) تقدر المسافة بين فزان وزغاوة مسيرة شهرين وبين زويلة واجداية بنحو

اربعة عشر مرحلة. البكري، المصدر السابق، ص ١٠.

(٤٤) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٠. مورييس لمبارد، المرجع السابق،

ص ٨٥.

(٤٥) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر،

بيروت، ١٩٧٩، ج ٦، ص ١٩١-١٩٢. إدريس صالح، العلاقات

الاقتصادية، ص ٧٧.

(٤٦) محمود إسماعيل عبد الرازق، الإدارة (١٧٢-٣٧٥ هـ) حقائق جديدة،

مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٧٤.

(٤٧) دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار

الطبعة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٦٨.

(٤٨) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(٤٩) الحلة السيرة، تحقيق، حسين مؤنس، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٥،

ج ١، ص ٣٠٧.

(٥٠) البكري، المصدر السابق، ص ٤٨، ١٥٨.

(٥١) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٥٢) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٠٢. مجهول الاستبصار، ص ١٤٥. محمود

إسماعيل عبد الرازق، الإدارة، ص ٧٣.

(٥٣) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ٩٨. مجهول، الاستبصار، ص ١٤٥.

- (٨٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .
- (٨٩) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساجهم ، تحقيق ، بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي ، ج ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٤ ج ٢ ، ص ٥٤ .
- (٩٠) كتاب المقفى الكبير ، تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية ، اختيار وتحقيق ، محمد البعلاني ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ١٨٧ .
- (٩١) البيان ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .
- (٩٢) البلدان ، ج ١ ، ص ١٠٢ .
- (٩٣) المسالك والممالك ، تحقيق ، محمد عبد العال الحسني ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٣٦-٣٧ .
- (٩٤) الهادي روجي إدريس ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .
- (٩٥) المرجع نفسه ، نفس الصفحة .
- (٩٦) المغرب ، ص ١٥٨ .
- (٩٧) مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١٦ .
- (٩٨) صورة الأرض ، ص ٩٥ .
- (٩٩) الهادي روجي إدريس ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .
- (١٠٠) نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .
- (١٠١) صورة الأرض ، ص ٩٥ .
- (١٠٢) الدرجيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤ .
- (١٠٣) المغرب ، ١٧١ ، ١٨٢ .
- (١٠٤) نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١١٨ .
- (١٠٥) القزويني ، آثار البلاد ، ص ٢٤ .
- (١٠٦) الجحاني ، المغرب الإسلامي ، ص ١٨ ، موريس لمبارد ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
- (١٠٧) لاكوست. إيف ، ابن خلدون ، ترجمة ، ميشال سليمان ، دار ابن خلدون ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٨ ، ص ٢١ .
- (١٠٨) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .
- (١٠٩) موريس لمبارد ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ .
- (١١٠) راجع تفاصيل توزيع ذهب السودان إلى مراكز الإنتاج في العالم عند موريس لمبارد ، المرجع السابق ، ص ١٥٦-١٥٧ .



الدكتورة فاطمة بلهوار في سطور:

- ماجستير في التاريخ الوسيط - جامعة عين شمس ١٩٩١ .
- دكتوراه دولة في التاريخ الوسيط - جامعة وهران ٢٠٠٥ .
- عضو في اللجنة العلمية بقسم التاريخ جامعة وهران .
- رئيسة فرقة بحث في مخبر مصادر وأعلام - جامعة وهران .
- شاركت في عدد من الملتقيات الوطنية والدولية .
- نُشر لها عدة مقالات في الدوريات الوطنية والدولية .

(54) Dengel-G, L'imamat de Tahert (761-909) Thèse de Doctorat 3ème cycle Strasbourg , Université des Sciences Humaines, 1977, p 226, Note 9.

- (٥٥) أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق ، محمد ناصر وإبراهيم بحاز ، المطبوعات الجميلة ، الجزائر ، ١٩٨٦ ، ص ٣٢ .
- (٥٦) نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١٨ ، ٢٣٢ .
- (٥٧) مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١٢-٢١٣ .
- (٥٨) الإدريسي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٥-٢٢٦ . الجحاني ، المرجع السابق ، ص ١٨١ .
- (٥٩) المعجم ، ج ٢ ، ص ١٢ .
- (٦٠) موريس لمبارد ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .
- (٦١) مجهول ، الاستبصار ، ص ١٨١ .
- (٦٢) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٩٨ . موريس لمبارد ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .
- (٦٣) الإدريسي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧ .
- (٦٤) المغرب ، ص ١٧١ .
- (٦٥) صورة الأرض ، ص ٩٨ .
- (٦٦) الفرغاطي ، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم ، تحفة الألباب ونخبة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق إسماعيل العربي ، منشورات دار الأفاق الجديدة ، المغرب ، ١٩٩٣ ، ص ٣٩ .
- (67) J.Devisse, Tegdaoust, Recherche sur Aoudaghost, T1, Paris 1970, P12.
- (*) فأما جزيرة أوليل فهي على مقربة من الساحل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحه غيرها . الإدريسي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧ . وعن أهمية الملح بها ينظر خاصة ، ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٩١ .
- (٦٨) نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١٧ .
- (٦٩) المغرب ، ص ١٧١ .
- (٧٠) إبراهيم حركات ، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط ، دار إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٩٦ ، ص ٥٣-٥٤ .
- (٧١) المغرب ، ص ١٥٩ .
- (٧٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .
- (٧٣) صورة الأرض ، ص ٦٥ .
- (٧٤) مختصر كتاب البلدان ، لندن ، ١٨٨٥ ، ص ٨٧ .
- (٧٥) نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ٢٤-٢٥ .
- (٧٦) موريس لمبارد ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
- (٧٧) العزيزي الجوزي ، سيرة الأستاذ جودر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين ، تحقيق ، محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٤٧ ، ٨٨ . المقرئزي ، الخطط المقرئزية ، المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت ، ج ١ ، ص ٣٥٢ .
- (٧٨) المغرب الإسلامي ، ص ٢٨-٢٩ .
- (٧٩) الهادي روجي إدريس ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .
- (٨٠) الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ، الرباط ، ١٩٨١ ، ج ٦ ، ص ١٦٩ ، ج ٩ ، ص ٢١١ .
- (٨١) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٩٥ . موريس لمبارد ، المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .
- (٨٢) البكري ، المغرب ، ص ١٦٨ .
- (٨٣) الجحاني ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .
- (٨٤) المرجع نفسه ، نفس الصفحة . محمود إسماعيل عبد الرزاق ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٨٨ ، ص ٣٣٣ .
- (٨٥) محمود إسماعيل عبد الرزاق ، الخواص ، ص ١١٧ .
- (٨٦) القاضي النعمان ، الافتتاح ، ص ٣٠٣ .
- (٨٧) سيرة الأستاذ جودر ، ص ٣٥ .

قمح بلاد المغرب القديم بين الهادة الغذائية والسياسة



إن زراعة القمح مرتبطة بخصوبة الأرض ، لذلك قبل التطرق لأهمية هذا المنتج يجدر بنا الحديث عن خصوبة أرض بلاد المغرب القديم (الأرض الإفريقية) التي هي مصدر القمح منذ العصور القديمة ، هذه الخصوبة نوهت بها النصوص التاريخية القديمة ، منها وصف أغاثوكلس^(١) سنة ٣١٠ ق.م لأرض بلاد المغرب القديم ، ونزوله بقرطاجنة لمحاولة إخضاعها ، اندهش ومن معه من الجيش أثناء مرورهم عبر الحقول والبساتين. بينما مارتياليس^(٢) Martial أشاد بمنتج المنطقة من القمح قائلا " .. خد ثلاثمائة مد من القمح الليبي لضيفة الضاحية ، لكي لا تبقى أرضك عقيمة .. " ، ويذكر بلين الكبير^(٣) (Pline L'Ancien) " ... وهبت الطبيعة إفريقيا إلى كيريس —Céres— فهي تؤمن لها الوفرة ، بينما تمنحها الزيت والخمر من أجل التذوق فقط .. " ، أما نص صالستوس^(٤) (Sallustius) فيشير فيه " .. أن أرض إفريقيا غنية بالحبوب وجيدة للماشية لكنها تقتصر للأشجار .. " كما أشاد سترابون^(٥) (Strabon) بثروات بلاد المغرب القديم فيما يخص الحبوب إذ قال " ... أن الأرض تقدّم محصولين .. " ، والشأن نفسه لما ذهب إليه بوليبيوس^(٦) (Polybius) الذي ذكر " ... لا يمكن الإطالة كثيرا في النظر إلى خصوبتها .. " . كما أشاد هوراسيوس^(٧) " Horacius " لتكديس القمح من طرف سكان ليبيا قديماً ، ثم يصف كيف تكون سعادتهم عند حصادهم للمنتج.

هذا العرض الوجيز الذي يشيد بخصوبة المنطقة ، خلص إليه المؤرخون القدامى ، وحتى المحدثين على حدّ تعبير المؤرخ لاكروا^(٨) (LaCroix) بقوله أن كل ما كتب عن إفريقيا قديماً يتفق بأنه لا تنافسها منطقة في العالم من حيث الخصوبة ، هذه الأخيرة التي حركت مشاعر الشعراء ، والكتاب القدامى وحتى من المحدثين أمثال ستيفان غزال (S.Gsell).

إن خصوبة أرض بلاد المغرب القديم ، وما كانت تذرّه من خيرات زراعية جعلت منها محل أطماع الرومان ، ذلك ما أكده يوليوس قيصر Julius Caesar^(٩) عند احتلاله نوميديا سنة ٤٦ ق.م بقوله " ... أتيت لروما ببلد يستطيع أن يزودها بمقدار ٨٤٠.٠٠٠ قنطاراً من القمح .. " ، أثناء احتفاله بالانتصار الذي أحرزه في إفريقيا ، واحتلاله لمملكة نوميديا. وازدادت أهمية قمح بلاد المغرب القديم بعد عجز صقلية وسردينيا تموين روما نتيجة الحروب الأهلية ، فتحولت أراضي قرطاجنة الغنية بالقمح وباقي الأراضي الأخرى إلى ولاية رومانية.

قدم زراعة القمح ببلاد المغرب القديم

إذا أردنا التحدث عن الزراعة والقمح ببلاد المغرب القديم ، يجب التحدث عن قدم زراعة هذا المنتج ببلاد المغرب القديم قبل اهتمام الرومان به ، ومتى عرفه سكان المنطقة ، وبالتالي لا يمكن الاستغناء عن نص بوليبيوس^(١٠) Polybius الذي يقول فيه " ... إليك أروع ما عمله ماسينسا ، كانت نوميديا قبله عديمة الفائدة ، وعاجزة بطبيعتها عن إنتاج المزروعات مثل أية منطقة أخرى ، لأنه استثمر مساحات واسعة .. " ، بينما يعارض ستيفان غزال^(١١) (S.Gsell) رأي بوليبيوس الذي يرى فيه المبالغة ، لأن المعطيات الأثرية توضح أن أقواماً عرفوا حرفة الزراعة خاصة القمح ، وهم الليبيون منذ وقت مبكر من خلال بقايا المحراث الذي استعمل في عهد ماغون القرطاجي ، هذا المحراث الذي وجد منحوتاً على الألواح نذرية بقرطاجنة^(١٢) ، وغالباً ما كانت

محمد بن عبد المؤمن

أستاذ مساعد بقسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة وهران

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

hmoumene31@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

محمد بن عبد المؤمن ، قمح بلاد المغرب القديم بين المادة الغذائية والسياسة .- دورية كان التاريخية .- العدد العاشر ؛ ديسمبر ٢٠١٠ . ص ٣٨ — ٤١ .

(www.historicalkan.co.nr)



خاصةً بعد تخصيص وتحويل القمح المصري للعاصمة الجديدة القسطنطينية التي أسست سنة ٣٣٠م، بحيث عبّر عن ذلك الشاعر اللاتيني كلوديانوس^(٢٨) (Claudianus):

Cum subiit par Roma mihi, divisaque sumpsit
Aequales aurora togas, Aegyptia rura
In partem cessere novam, spes unica nobis
Restabat libye, quae vix aegreque fovebat

يشير هذا الشاعر إلى بروز عاصمة جديدة، وتحول منتوج مصر للإمبراطورية الجديدة، و لم تبقى سوى ليبيا الأمل الوحيد لروما. ويذكر لوكوك^(٢٩) (Le Cocq) أن هذا التغيير الجديد في العاصمة، جعل روما تحت رحمة أمواج البحر، وأخطار الملاحة البحرية في الشتاء، فعبر عن تلك المعاناة نفس الشاعر^(٣٠):

Solo ducta Noto, nunquam securi futuri
Semper Inops, ventique fidem poscebat, et anni

أعتبر جلب القمح من بلاد المغرب القديم واجباً مقدساً، إذ كانت تقدم القرابين بالميناء قبل خروج السفن، وتحت أنظار الإمبراطور، ففي عهد يوليوس قيصر تبين إحدى الميديايات البرونزية كيف تسلم من يد الربة كريس (Ceres) مجموعة سنابل قمح^(٣١).

توزيع القمح بروما والمستفيدين منه

كان توزيع قمح بلاد المغرب القديم يتم شهرياً، ومجاناً للسكان، وأصدرت مراسيم تحدد نوع هذه الاستفادة، فأصبحت عملية تموين روما بقمح بلاد المغرب القديم ضرورة ملحة، ففي عهد يوليوس قيصر بلغ عددهم ١٥٠ ألف مستفيد^(٣٢)، وبقيت روما رهينة بلاد المغرب القديم وقمحه، خاصة بعد انفصال مصر عن تموينها.

كانت فرق الجيش تأخذ رواتبها الشهرية من الحبوب، فالمشاة كانوا يحصلون تقريباً على ثلثي مديم (٢٦ كلغ) من الخبز، بينما الفرسان يأخذون ٢ مديم من القمح^(٣٣). وقد استلزمت الإستراتيجية الرومانية عند خوضها المعارك ببلاد المغرب القديم، الحصول على القمح، فتوفره يعني مواصلة المعركة ومواجهة الحصار، و تموين الثكنات، أما السكان المحليين، فانتبهوا إستراتيجية تخزين وتهريب القمح في حالة تعرضهم لخطر الهجوم الروماني^(٣٤).

كما استعملت هذه المادة ضد المنهزمين في حروبهم مع الرومان، مثلما هو الشأن بالنسبة لقرطاجة التي فرضت عليها عقوبات الدفع جراء انهزامها في الحرب البونية الثانية، فأجبرت بأن تدفع لروما كميات من القمح^(٣٥). وحفاظاً على ضمان وصول هذه المادة الإستراتيجية لروما، واجه الرومان أعشاش القرصنة، وكانوا يقومون بتمشيط المناطق الساحلية، ولأهمية هذه المادة الحيوية، وضع جهاز يتحكم في توزيعه عرف بالأنونة^(٣٦) (Annonae).

القمح الذنولي:

نتيجة لكثرة المستفيدين من التوزيع المجاني، ولضمان وصوله في الوقت المناسب، ولحسن توزيعه، أحدث نظام الأنونة. إن قمح بلاد المغرب القديم كان يجلب كغرامة أو ضريبة^(٣٧)، حيث أنشأت مكاتب مكلفة بالأنونة بالموانئ المصدرة لهذه المادة مثلما كان الحال بقرطاجة، حيث كانت تراقب السفن قبل إبحارها نحو روما، فكانت التصاريحات قبل الإبحار ضرورية، فاستطاعت سلطات الاحتلال الروماني تموين روما بثلاث القمح الضروري المخصص للتوزيع المجاني،

المسكوكات النوميديّة تزين بسنابل القمح فوق رؤوس ملوكها كشعار لها^(٣٨).

كما تم العثور بالأطلس الصحراوي (منطقة بريزينا بالجنوب الغربي الجزائري) على رسومات صخرية تظهر أدوات فلاحة كالمساحق تعود للعصر النيوليتي^(٣٩)، والتي لا تزال تستعمل حتى وقتنا الحاضر من طرف الطوارق، وأهل النيجر. أما سترابون^(٤٠) Strabon فقد أشاد بدور النوميديين في المجال الزراعي بقوله "...إن ماسينيسا هو الذي جعل من النوميديين أناساً اجتماعيين ومزارعين...".

إن معرفة ماسينيسا بالزراعة، خاصة منتوج القمح ترجع أسبابه لإقامته في قرطاجة، وعندما أصبح ملكاً وظّف ما تعلمه، وشاهده داخل مملكته الماسيلية^(٤١)، وحقق نتائج جعلت منه نموذجا لغيره. ونقلنا عن ستيفان غزال^(٤٢) S.Gsell يقول ديودور الصقلي: "...برع ماسينيسا في العمل الزراعي، لحدّ أنه ترك لكل واحد من أولاده مقاطعات بلغت حصّة كل واحدة ٨٧٤ هكتاراً تقريباً...". كما أرسل هذا الملك كمية من القمح إلى الإغريق مثلما أشار إليها تيتوس ليفيوس (Titius Livius)، بحيث قدّرت الكمية بنحو ٢٠٠.٠٠٠ صاع لتموين الجنود الإغريق سنة ١٩٨ ق.م، وأضاف ٥٠٠.٠٠٠ صاع مع سنة ١٩١ ق.م، وكميات أخرى إلى الجيش الإغريقي الذي كان يحارب في بلاد فارس^(٤٣).. ويذكر غابريال كامبس (G.Camps) بأن الإغريق والرومان كانوا من الزبائن الأوائل لمسينيسا، وشكلت صادرات القمح مصدر دخل للمملكة النوميديّة^(٤٤). تبع نهجه أبنائه مكييسا (Micipsa) ١٤٨-١١٨ ق.م، حليف الرومان، أرسل القمح للجيش الرومانية التي كانت تحارب بسردينيا^(٤٥)، كما سمح للتجار الرومان التحرك بحرية لشراء القمح والعبيد^(٤٦).

أما على حد تعبير شارل تيسو^(٤٧) (Ch.Tissot) أن القمح والشعير من بين المنتوجات التي كانت منتشرة بالمنطقة قبل الفينيقيين، فالسكان المحليين لم ينتظروا السيطرة القرطاجية ليمارسوا هذا النوع من الزراعة، لكن قول هيرودوت (Herodote) يكفيّننا في هذا المجال "...سكان إفريقيا—يقصد بهم سكان بلاد المغرب القديم—مزارعين ومستهلكين للقمح..."^(٤٨). فإذا كانت زراعة القمح قد أعطت ميزة الازدهار، والوفرة قبل الاحتلال الروماني على حدّ وصف الجنرال الروماني ميتيلوس (Metellus) عند عبوره طريق باجة نحو مملكة نوميديا، حيث صادف المزارعين الذين منحوه القمح^(٤٩)، والشأن نفسه خلس إليه البكري^(٥٠) بقوله "...باجة المسماة بمطمورة إفريقيا...".

خصائص وأهمية قمح بلاد المغرب القديم

على حدّ قول بلينوس الكبير^(٥١) Pline L'Ancien "...كان القمح الإفريقي من بين أهم حبوب العالم..."، ثم يضيف قائلاً "...أن القمح الإفريقي كان يحتل المرتبة الثالثة من بين الأنواع المعروفة، وأنه كان أفضلها لإنتاج السميد، وأكثرها ثقلًا..."، والمرتبة الثالثة مقصود بها بعد كل من بيوتيا وصقلية، ثم يضيف هيرودوت^(٥٢) قائلاً "...الشيء الملفت للانتباه هو وجود ثلاثة فصول للجنوبي...".

زادت أهمية قمح بلاد المغرب القديم نتيجة الحروب الأهلية، إضافة إلى أن زراعته بإيطاليا كانت تحتاج لعدد كبير من اليد العاملة، وبالأخص العبيد، زيادة على أنه غذاء أساسي لسكان روما، فأصبحت هذه الخيرة لا تغدّى إلا بالقمح الإفريقي —بلاد المغرب القديم -،

مسؤول الأنونة (Praefectus Annonae) الذي كان يراقب المحصول من مقاطعة الإنتاج حتى وصوله ، وتوزيعه في أسواق التجزئة بإيطاليا^(٤٣).

اهتم الإمبراطور نيرون (Neron) بقمح بلاد المغرب القديم ، ونتيجة احتياجاته المتزايدة لهذه المادة ، قام بمصادرة المقاطعات الإفريقية ، وقرر بأن هذه الأخيرة ستموّن روما بثلاثي القمح المستورد ، وليطمئن الشعب الروماني ، وليبين له تحكمه في توفيره ، قام برمي كميات من هذه المادة في نهر التيبر (Tibre) سنة ٦٢ م ، وأبقى على سعره ، حتى في الحالات التي يصعب وصوله في الوقت المحدد لروما نتيجة العواصف والاضطرابات البحرية^(٤٤).

نتيجة المجاعة التي تعرّضت لها روما مع نهاية القرن الثاني الميلادي ، انشأ الإمبراطور كومودوس (Commodus) أسطولاً خاصاً لتموين روما بقمح بلاد المغرب القديم ابتداء من تاريخ ١٧ مارس ١٨٦ م^(٤٥). بالتالي نستنتج أن طلب الأباطرة الفلافيين والأنطونيين والسيفيريين قد تزايد على قمح بلاد المغرب القديم.

التحفيزات الرومانية لتشجيع زراعة القمح

حرصت السلطات الرومانية على استغلال كل الأراضي الزراعية ، والانتفاع بها لتحقيق الواجب المقدس وهو "تموين روما بالقمح" ، ويتضح ذلك من خلال قانوني هادريانوس (Lex Hadriana) ومانكيانا (Lex Manciana).

حسب قانون هادريانوس المزارع على خدمة أرض البور ، وزراعتها ، والشأن نفسه بالنسبة للأراضي المهملة ، كما منح هذا القانون حق حيازة الأرض وتوريثها ، بينما فطبق قانون مانكيانا على أغلب أراضي مقاطعة إفريقية البروقنصلية ، والأراضي التي خضعت لهذا القانون عرفت باسم (Culturae Mancianae)^(٤٦).

مع أواسط القرن الثالث الميلادي —عهد السيفيريين— بلغ أقصى حدّ للتوسع الروماني جنوباً ، فانتشرت المدن والقرى ، وتوسعت الأراضي الزراعية ، وتعددت الطرقات والمخازن ، هذا التوسع وتمديد الليمس^(٤٧) من طرف الأباطرة الرومان كان من الضروريات السياسية ، لأن حياتهم ومستقبلهم القيادي للإمبراطورية كان يتوقف على ضمان توفير الحصة المجانية من القمح للسكان ولدفع رواتب الجند من هذه المادة الغذائية.

ثورة جيلدون وحصاره الإقتصادي لروما

يعتبر الشاعر اللاتيني كلوديانوس (Claudianus) أهم من صوّر حصار جيلدون (Gildon)^(٤٨) الإقتصادي لروما ، ومنعه إبحار السفن المحملة بالقمح اتجاه روما ، هذه الأخيرة التي ظلّت تتربع وصول سفن القمح التي اعتادت قدومها من بلاد المغرب القديم ، كأن لسان حالها يقول: "بعد أن كان جيلدون يبعث لي القمح كضريبة أفرضها عليه ، هاهو اليوم يبعثه كما لو يقدم وجبة غذائية لأحد عبيده.." ^(٤٩). فحجز السفن المحملة بالقمح ، والتي كانت ستبحر نحو إيطاليا ، وكاد الحصار الاقتصادي أن يحدث مجاعة بعاصمة الإمبراطورية ، حيث ارتفع سعر القمح ، واختفى من أسواقها ، وتأخرت الدولة عن دفع رواتب الجند التي كانت تدفع نسبة منها قمحاً^(٥٠).

نستنتج أن الثروة الفلاحية على وجه الخصوص قمح بلاد المغرب القديم ، كانت إحدى المبررات القوية في احتلال الرومان لهذه المنطقة ، واستعملت كل الأساليب من أجل الوصول إلى أهدافهم ،

بينما يبيع الباقي بسعر منخفض^(٣٨). فقد كان الأباطرة الرومان في شأن هذه الضريبة ، لكونها حيوية ، ومن بين هؤلاء الأباطرة هونوريوس الذي حذّر مجلس الشيوخ يوم ١٥ ماي ٣٩٦ م من مغبة توجيه السفن المحملة بالقمح ، والقادمة من بلاد المغرب القديم إلى أماكن أخرى غير المدينة المقدسة روما^(٣٩).

نقل قمح بلاد المغرب القديم

تمت عملية توسيع ميناء أوستيا (Ostie) الذي كان مخصصا لاستقبال قمح بلاد المغرب القديم ، عكس ميناء بوزول (Pouzzolles) الذي اختص باستقبال السفن المحملة بالقمح المصري ، أما موانئ بلاد المغرب القديم التي كان يشحن منها القمح باتجاه روما ، فيمكن تحديدها خاصة في ميناء قرطاجة الذي اعتبر ثالث ميناء بعد روما والإسكندرية ، يليه ميناء روسيكاد (Russicade) سكيكدة ، صلداي (Saldæ) بجاية ، قيصرية (Caesarea) شرشال ، كارتينايا (Cartennae) تنس ، بورتوس ماغنوس (Portus Magnus) بطيوة ، تنجيس (Tingis) طنجة ، وتواجد بهذه الموانئ عدد كبير من الوسطاء في عملية الشراء والشحن^(٤٠).

كانت تحدد حمولة السفن بين ٢٠٠ و ٣٠٠ طن وقت الإبحار المسموح به ، لأن الفترة ما بين شهر أكتوبر ومارس كانت تمنع فيها الملاحة خوفاً من مفاجآت البحر وأحواله ، وسميت هذه الفترة بالبحر المغلق (Mare Clausum) حسب قانون ٣٥٠ ق م^(٤١).

السفن الناقلة:

كانت السفن الناقلة دائرية الشكل ، توجه الرياح أشرعها ، من بينها سفينة البانتو (Pento) والكوربيتا (Corbita) ، أما الأسطول الذي اختص بنقل القمح كان تابعا لجمعيات تدعى كوليجيا (Collegia) ، التي احتكرت نقل هذا القمح من بلاد المغرب القديم نحو روما ، وكان يحمل داخل الجرار الكبيرة^(٤٢).

الأباطرة وقمح بلاد المغرب القديم

استخدم قمح بلاد المغرب القديم في تثبيت حكم أباطرة روما عن طريق التموين المجاني ، كما استعمل كراتب للجند ، فتموين سكان روما بهذه المادة الغذائية الأساسية تعني حماية المدينة من المجاعة. وتهدف سياسة الأباطرة الرومان التموينية إلى وضع المستهلك الروماني من الأولويات ، عن طريق تحديد السعر ، مراقبة عملية التموين ، وتدعيم السعر عند الغلاء. فالاستغلال الكثيف لمقاطعات الإمبراطورية يعني ضمان التموين العادي للسكان ، وبالتالي البقاء في الحكم ، لذلك اهتموا بتوسيع الطرقات والموانئ ، والمخازن ، والري لحماية هذا المنتج.

والسؤال المطروح: كيف يكون وضع الأباطرة الرومان إذا تأخر وصول السفن المحملة بقمح بلاد المغرب القديم إلى روما ؟ إن تأخر وصوله في الوقت المحدد يعني انتشار المجاعة ، وغلاء سعر الخبز ، وانتشار ظاهرة نهب منازل الأثرياء بروما ، فتأخر وصول الإمدادات بالقمح كانت تنجر من ورائه عواقب وخيمة على الإمبراطور الحاكم والناقلين لهذه المادة على جد السوء ، ففي عهد أغسطس (Auguste) أصابت روما مجاعة سنة ٢٢ ق م ، فاضطر إلى تعيين مومنين للشعب الروماني بالقمح ، كان عددهم في البداية اثنان ، ثم أصبح أربعة كحل مؤقت ، وقبل انتهاء مدة حكمه ، غيرهم بجهاز دائم عرف باسم:

- Mauretanie, Maçon, 1912, p.49
- 32 Suetone, Vie Des Douzes Cesars, XLI, Paris, Les Belles Lettres, 1932
- 33 Polybius, op. cit; LVI
- 34 Sallustius, op. cit; XX, XXI
- 35 S.Gsell, op. cit; t III, p 241; A. Le Coq, op. cit; p 19
- ٣٦ الانونة هي ضريبة عينية أساسية تتمثل خاصة في القمح مصدر غذاء السكان
- 37 G.Ch. Picard, La Civilisation de L'Afrique Romaine, Paris, Etudes Augustiniennes, 1990, p 58
- 38 E. Albertini, L'Afrique du nord française dans l'histoire, ed Rachat, Paris, Lyon 1937, p 36.
- ٣٩ محمد البشير شنيبي، المرجع السابق، ص ٣٧
- 40 Sans date, p 26 P. Salama, Les Problèmes Maritimes de l'Afrique Romaine,
- 41 M. Leglay, Rome Grandeur ET Chute de l'empire, ed Perin, Paris, 1990, p 135
- 42 G.Ch. Picard, op. cit; p 83
- 43 E. Albertini, L'Empire Romain, IV, Peuples et civilisations, Paris, 1970, P 25.
- 44 Tacite, Annales, LIV, XV, XVIII, trad, Burnouf, Paris, Flammarion, 1965
- 45 P.A. Fevrier, Approches du Maghreb Romain, Edisud, Aix — en — Provence, T2, p 96.
- ٤٦ محمد البشير شنيبي، المرجع السابق، صص ٧٣-٨٤
- ٤٧ إستفاد الإباطرة السيفيريون من الفرق العسكرية السورية بالمناطق الصحراوية من أجل تدعيم الليمس بتجربتهم المائية، خاصة وأن المناطق الصحراوية نادرة السقوط.
- ٤٨ عيّن على رأس جيش روما ببلاد المغرب القديم سنة ٣٨٧م مقابل المساعدة التي قدمها للقائد الروماني ثيودوزيوس (theodosius) في حملته ضد فيرموس (firmus). أنظر: محمد البشير شنيبي، التغيرات...، ص ٣١٥ هامش ٢
- 49 Hanc quoque nunc Gildon raquit sub fine cadentis
Autumni. Pavidum metimur caerulea voto,
Puppis si qua venit, si quid fortasse potenti
Vel pudor extorsit domino, vel praeda reliquit
Pascimur arbitrio Mauri, nec debita reddi,
Sed sua concedi jactat, gaudetque diurnos,
Ut famulae, praeberet cibos, vitamque famemque...

أنظر:

- Claudianus, de Bello Gildonico, 66-72, Paris, Garnier freres, sans date
- ٥٠ هذه الطريقة استعملها دوميتيوس الأكبر ٣٩٦-٣٩٨م، إستبد بالحكم مستغلا تخلي ديقليانوس عن عرش الإمبراطورية سنة ٣٠٥م، فاستعمل سلاح تجويع روما للوصول إلى هدفه. أنظر: محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، حركة الدواوين وعلاقتها بالدوناتية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠١، ص ١٣٨ هامش ٨١.

محمد بن عبد المؤمن

- أستاذ مساعد بقسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر.
- متحصل على شهادة الماجستير من جامعة وهران في التاريخ القديم ٢٠٠٥.
- قيد مناقشة رسالة دكتوراه الموسومة: "عقائد ما بعد الموت عند سكان بلاد المغرب القديم".

منها أسلوب إغراء أعضاء مجلس الشيوخ الروماني، ودفعهم للموافقة على احتلاله. ولا تزال هذه الإستراتيجية تستخدم كورقة ضغط للهيمنة على أسواق النفط في العالم.

الهوامش

- 1 S.Gsell Histoire Ancienne de L'Afrique du nord = HAAN, T4, Hachette, Paris, 1927, p. 11
- 2 Martial, Les Epigrammes, LIV, XIII, traduit par P. Richard, ed Garnier Frères, Paris, 1931
- 3 Plin L'Ancien, Histoire Naturelle, LIV, XV 8, ED Nissard, Paris, 1850
- 4 Ed, B. Orrstein et J. Roman, Paris, Les Belles Lettres, 1924, LIV, XVII Salluste, Guerre de Jugurtha, "Ager frugum fertilis. bonus pecori, arbori infecundus.."
- 5 Strabon, Geographie, LIV, XVII, III, 1, ed, Amedée Tardieu, Paris, Hachette, 1886
- 6 Polybe, Histoire, LIV, 32, 2, ed, D. Roussel, Paris, Gallimard, 1970
- 7 Horacius, Odes, LIV, I, I, 9-10, Paris, Garnier, 1944
- 8 F. La Croix, Afrique Ancienne, produits vegetaux, revue africaine, n° 12, 1870, p 420
- ٩ محمد البشير شنيبي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٨٥
- 10 Polybius, op. cit; LIV, XXXVI, 16, 7, 8
- 11 S.Gsell, HAAN, T5, p 187
- 12 Ch. Tissot, Geographie Comparée de la province romaine d'Afrique, Paris, p 307
- 13 J. Mazard, Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, Arts et Metiers Graphiques, 1955, pp 55
- 14 S.Gsell, HAAN, T1, p 236
- 15 Strabon, op. cit; XVII, 3, 15
- 16 J. Carcopino, Aspects Mystique de la Rome païenne, L'Artisan du livre, Paris, 1941, p 22
- 17 S.Gsell, op. cit; T5, pp 189, 190
- 18 Titus Livius, Histoire Romaine, texte traduit par Lassère, ed Garnier, Paris, XXXII, 27, 2; XXXVI, 4, 8
- 19 H. Ghazi-Ben Maissa, Les Rois Imazighen et le monde Grec, Hespéris — Tamuda, vol, XXXVIII 2000, p 12.
- 20 F. De Lacroix, op. cit; p 415 S.Gsell, op. cit; T5, p 191
- 21 Albert Ayache, Histoire Ancienne, ed sociales, Paris, 1964, p 34.
- 22 Ch. Tissot, op. cit; p 305
- 23 G. Camps, Aux Origines de la berbérie, Massinissa ou le début de l'histoire, libyca, 8, 1960, p 78
- 24 S.Gsell, op. cit; T5, p 192
- 25 El Bekri, Description de L'Afrique Septentrionale, traduit par Mac Guckin De Slane, Paul Geuthner, Paris, 1913, p 120
- ٢٦ محمد البشير شنيبي، المرجع السابق، ص ٨٧
- 27 Herodote, op. cit; LIV, IV, 199
- 28 Claudianus, de Bello Gildonico, 60-63, Paris, Garnier freres, sans date
- 29 A. Le Cocq, Le Commerce de L'Afrique Romaine, Oran, L. Fougue, 1912, p 28
- 30 Claudianus, op. cit; 64-65
- 31 L. Charrier, Description des Monnaies de la Numidie et de la

حركة القعقاع بهمية خالد بن الوليد

إلى بلاد الشام عبر باديتها

مراحل الحركة: من سوى إلى أرك إلى السخنة، ثم إلى تدمر ثم إلى القريتين، ثم إلى سنير ثم إلى ثنية العقاب، ثم إلى الباب الشرقي لدمشق ثم إلى مرج الصفرين، ثم إلى بصرى ثم إلى موقعة اليرموك ثم إلى فحل.

الملخص

تجلى هذه الورقة دور شعر القعقاع بن عمرو التميمي وهو يرافق خالد بن الوليد في فتوحاته بلاد الشام، عبر بادية بلاد الشام، قادماً من العراق، ويشترك في توضيح شعره؛ مصادر التاريخ والجغرافية، فتوضح مواقع المعارك، وحركة الجيش ويثبت الشعر أن تاريخ معركة اليرموك كانت في السنة الثالثة عشرة هجرية في عهد أبي بكر الصديق، بدليل حركة المسلمين من بصرى إلى سهل اليرموك غربي نوى. كما تبين الخرائط عدداً من المواقع العسكرية، وتصيح ضبط بعض الأماكن مما هفت فيها بعض المصادر التاريخية والجغرافية.

(١)

"من الطويل"

حركة القعقاع مع خالد بن الوليد، من العراق إلى بادية الشام، على خمس مراحل سنة (١٣هـ) ثلاث عشرة

قَطَعْنَا أَبَالِيسَ الْبِلَادِ بِخَيْلِنَا نَرِيدُ سَوًى مِنْ أَبْدَاتِ قُرَاقِرْ
فَلَمَّا صَبَحْنَا بِالْمَصِيخِ أَهْلَهُ وَطَارَ إِبَارِي كَالطَّيُورِ التَّوَافِرِ
أَفَاقَتْ بِهَا بَهْرَاءُ ثُمَّ تَجَاسَرَتْ بَنَا الْعَيْسُ نَحْوَ الْأَعْجَمِيِّ الْفَرَاقِرِ

التخريج:

ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)، مادة "المُصَيِّخ" ج ٥/ ١٦٩.

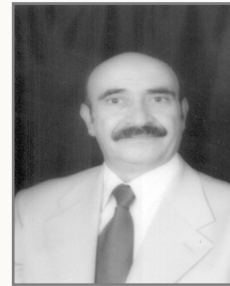
إضاءة النص وتحليله:

مُنذ انتهى خالدٌ من وقعة الفِراض، أدَّى فريضة الحجّ دونَ علم الصّدِّيقِ فلامه، وأسندَ إليه مَهْمَةُ الحِركة من الفُراتِ إلى بلادِ الشَّامِ، لإِتْقَادِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فبدأ خالدٌ حَرَكَتَهُ مِنَ الحِيرةِ إلى عَيْنِ التَّمْرِ - صَنْدُودَاء - مَصِيخَ بَهْرَاءَ - قُرَاقِرْ، ثُمَّ إلى سَوًى حَيْثُ على مَقَرِّيةٍ مِنْهَا نَبْعُ ماءٍ، وهي طريقٌ قَصِيرَةٌ؛ لَكِنَّهَا خَطِيرَةٌ لِقَلَّةِ المَاءِ، وقد أَثَرَهَا خَالِدٌ لِلسَّرِيَّةِ وَسُرْعَةِ النُّجْدَةِ، وقد جَلَّاهَا (الجنرال أكرم الباكستاني بخريطة في كتابه: سيف الله، ص ٣٣٧) وقد فَوَّزَ خَالِدٌ في بادية الشَّامِ على خمسِ مراحلٍ، فتجنَّبَ مواجهةَ الحاميةِ الرُّومِيَّةِ من جهةٍ، وأسرعَ من جهةٍ أخرى يَاجِدَاهُ أَبَا عُبَيْدَةَ عَامِرَ بنِ الجَرَّاحِ، الذي كان قَرِبَ اليرموكِ وَكَانَ قد استنجدَ بالصّدِّيقِ؛ لكثرةِ الرُّومِ وتحشُّدَاتِهِمْ ضَدَّهُ، فانجَدَهُ بِمَنْ يُنْسِي به الرُّومُ، وسَاوَسَ الشَّيْطَانُ، كان ذلك سنة (١٣) ثلاثَ عَشْرَةَ لِلهجرة، ومعه نصفُ جيشِهِ البالغُ تسعةَ آلافٍ، وأَمَّا النِّصْفُ



دور شعر القعقاع التميمي

في تجلية فتوحات الشام



د. حسن محمد الربابعة

استاذ ادب عباسي "مشارك"
جامعة مؤتة - المملكة الاردنية الهاشمية

hasan_rabab3h@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن محمد الربابعة، دور شعر القعقاع التميمي في تجلية فتوحات الشام - دورية كان التاريخية - العدد العاشر؛ ديسمبر ٢٠١٠. ص ٤٢ - ٤٦.

(www.historicalkan.co.nr)



"من الطويل"

تدمر ودمشق بعد فتحهما

فَلَمَّا زَادْنَا^{١١} فِي دَمَشَقَ نَحْوَهُمْ وَتَدْمُرَ عَضُّوا مِنْهُمَا بِالْأَبَاهِمِ

إضاءة النص وتحليله:



محور حركة خالد بن الوليد وجيشه من العراق إلى الشام في المفازة
مفتتحاً القرى والمدن في طريقه كما رسمها الجنرال أكرم الباكستاني
في كتابه سيف الله: خالد بن الوليد، ص ٣٣٧

وإيواء مَنْ يَمُرُّ منهم في تدمر، وقَدَّمَ زعيمُ تدمرٍ إلى خالدٍ حصاناً هديَّةً له، فامتطاه خالدٌ في حملته فيها بعد.

وسارَ الجيشُ الإسلاميُّ من تدمر إلى القريتين جنوبيَّ غربيَّ تدمر، وبعد مقاومة أهلها استسلموا، فنهَبَ المسلمونَ مدينتَهُم، واتَّجِهَ المسلمون إلى سَنيرَ ثم إلى حَوَّارين على عشرة أميال غربي القريتين، فتعرَّضوا للمسلمين، فهزَمهم المسلمون، ونُهَبَتْ مدينتُهُم، ولم تُجَدِّهِمُ تعزيزاتُ العربِ الغساسنة، التي قَدِمَتْ من بُصْرَى إليهم. وتابع خالدُ حملته من حَوَّارين إلى قُصَم فصالحه بدو مشجعة من قضاة، فكتبَ لهم خالدُ أماناً.

واتَّجِهَ خالدٌ إلى الجهة الجنوبية الغربية باتجاه دمشق، ثمَّ إلى مَرَجٍ راهط، فأغار على غَسَّان في يومٍ فَصَحَّهم، فسبى وقتل، ووجَّه خالدٌ بُسرَ بنَ أبي أراطَ العامريَّ القرشيَّ، وحبيبَ بنَ مَسْلَمَةَ الفهريَّ، إلى غوطَةِ دمشق فأغاراً على قرية من قُرَاهَا، وتابع خالدُ حملته إلى الثنية قرب دمشق التي مَسِمَتْ فيما بعد «ثنية العقاب» لأنَّ عُقاباً حطَّ على راية رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - السوداء، وكانت راية خالد.

ثم نزل خالدٌ إلى الباب الشرقي من دمشق المواجه لبغداد، فدخلَ دمشق منه، وقَدَّمَ اسْتَقْفُ دِمَشْقُ لخالد نُزْلاً وقال له: «أحفظ لي هذا العهد» فوعده خالدٌ بذلك. ومن دمشق أُرسلَ خالدٌ رسوله إلى أبي عبيدة، يحملُ تعليماتٍ إلى أمين الأُمَّة رضي الله عنه، ومن دمشق اتَّجَهَتْ حملةُ خالدٍ إلى بُصْرَى، إذ كان لواءُ شرحبيل في مأزقٍ حربي فيها؛ ينتظر النجدة بفارغ الصبر، إذ أحاطت به جنودُ بُصْرَى، تنذره بالهلاك، لأنَّها كانت عاصمةَ مملكة الغساسنة التي يتهالك للدفاع عنها، إذ كان يحرسها حوالي اثني عشر ألفاً، بينما لم يكن مع شَرْحَبِيلِ بنِ حسنة رضي الله عنه، سوى أربعة آلاف، ولَمَّا كان من مبادئ الحرب أن يكونَ عدد المهاجمين ثلاثة أضعافِ المدافعين، فلك أن تقدِّرَ خطورةَ موقفِ شَرْحَبِيلِ بنِ حسنة يومَ ذاك.

ويمكن أن نوجزَ حركةَ محورِ المسلمين استتاءةً بشعر الققعاع بمخطط تال:

سوى ◀ أرك ◀ كذمه / السخنة ◀ تدمر ◀ القريتين ◀ سنير ◀ حوارين ◀ قصم ◀ مرج راهط ◀ غوطة دمشق ◀ ثنية العقاب ◀ الباب الشرقي لمدينة دمشق ◀ كنيسة بالغوطة ◀ بُصْرَى (مأزقاً بمجمع الصُّقْرَيْن جنوبي دمشق).

ولعلَّ المخطَّطَ الخرائطيَّ المرفقَ يوضِّحُ محورَ خالدٍ لتجلية الحركة اعتماداً على دراسات حديثة، كما هي عند الجنرال الباكستاني^(١٧). وانظر ترجحات الأماكن التي فتحها خالد في محور حركته سلباً أو حرباً وهي أرك^(١٨) والجابية^(١٩).

وسنير: بفتح أوله: جبل بين حمص وبعليبك^(٢٠)

حوارين: بفتح الحاء وتشديد الواو وفتحها، من قرى حلب حَوَّارين^(٢١): والجنرال أكرم^(٢٢).

قُصَم: بضم القاف وفتح الصاد بلده ببادية الشام^(٢٣) ومرج راهط^(٢٤)، وثنية العقاب^(٢٥).

(٣)

"من الطويل"

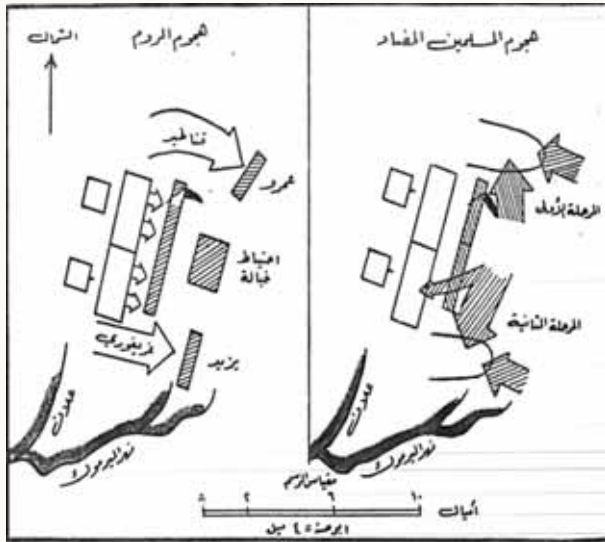
بدأنا بجمع الصُّفَرين^(٢٧) لغسان أنفاً فوق تلك
فلم نَدْعُ المناجر^(٢٧)
صبيحةً صاح سيوى نَقَرٍ نَجَّتْهُمْ بالبواتر
الحارثان^(٢٨) ومن به
وجئنا إلى بُصْرَى^(٢٩) فألقَتْ إلينا بالحشا
وَبُصْرَمَقِيَّةً^(٣٠) والمعادر^(٣٠)
فَصَصْنَا بها أبوابها^(٣١) بنا العيسُ في اليرموك
ثم قابلتْ جَمَعَ العَشَائِرِ

التخريج:

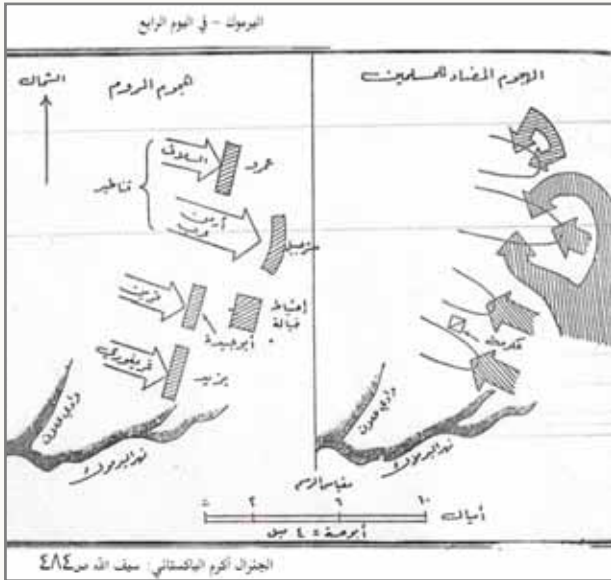
ياقوت الحموي: معجم البلدان (يرموك)، ج ٥/ ٤٩٧.

إضاءة النص وتحليله:

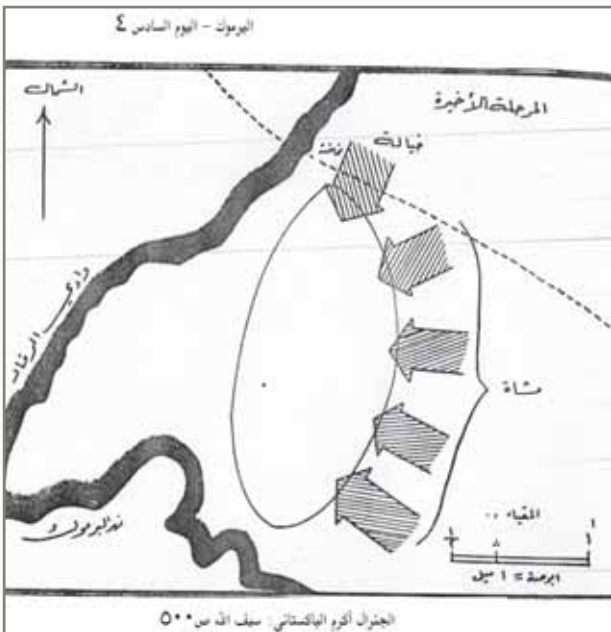
يشهد الققعاق بشعره أنَّ حركة المسلمين بقيادة خالد كانت من دمشق إلى مجمع الصُّفَرين إلى بُصْرَى حيث فتحها ثم اتجه غرباً إلى اليرموك، أمّا أعداؤه فكانوا من ملوك الغساسنة، إذ جُذعت أنوفهم، وأذلوا في مجمع الصُّفَرين، جنوبي دمشق، ثم تحرك بعد ذلك إلى بُصْرَى ففتحها، وصالحة أهلها على أن يؤدوا عن كلِّ حالم ديناراً وجريب حنطة سنة (١٣هـ)^(٣٢) واتجه الجيش الإسلامي إلى اليرموك، وثمة توثيق مهم يبرزه شعر الققعاق وهو حركة خالد من بُصْرَى إلى اليرموك يعني سنة (١٣) ثلاث عشرة للهجرة، إذ وقعت هذه المعركة في تلك السنة، على ما يؤرخ لها بعضهم منهم الواقدي^(٣٣) والطبري^(٣٤) وابن الأثير^(٣٥) وأنَّ المعركة حدثت قبل فتح دمشق. والحموي^(٣٦) والبلاذري^(٣٧) وابن عساكر^(٣٨). بينما يرى مؤرخون آخرون أن معركة اليرموك وقعت سنة (١٥هـ) منهم البكري^(٣٩) وعلى هذا التاريخ (١٥هـ) أرخ الجنرال أكرم الباكستاني^(٤٠) وخطَّاب^(٤١).



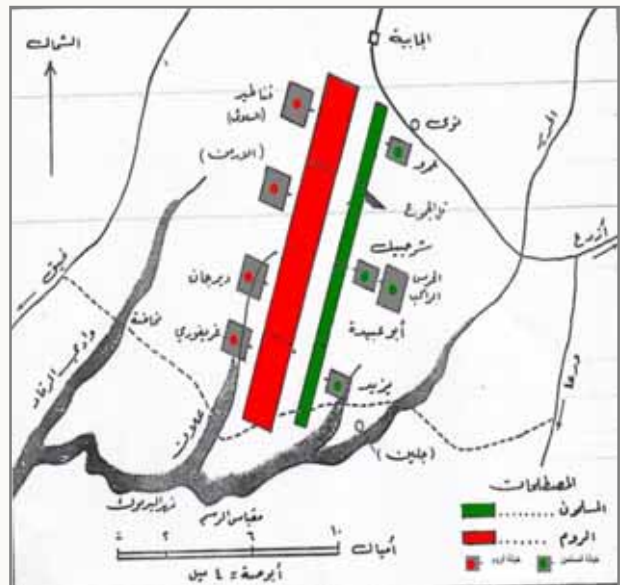
توضيع القوات المتحاربة في معركة اليرموك - لليوم الثاني



الجنرال أكرم الباكستاني: سيف الله ص ٤٨٤



الجنرال أكرم الباكستاني: سيف الله ص ٥٠٠



ترتيب القوات الإسلامية والرومية للقتال

(٤)

"من الرجز"

"يوم اليرموك"

* قال هذه الأرزوجة يوم اليرموك

يألبيني ألقاك في الطراد
قبل اعتزام^(١١) الجحفلي الوراد^(١٢)
وأنت في حليتك الوراد^(١٣)

(١) أبلّس: أبلّس الرجل قطع به، وأبلّس بمعنى يئس ومنه أبلّس ليأسه من رحمة الله والمبلي: الساكت حزناً أو خوفاً (لسان العرب: بلس) والمعنى العام قطعوا صحراء مخوفة، بعيدة وإماء فيها يئأس قاطعها. وعند ابن عساكر أما ليس وهي بمعنى صحراء لا عشب فيها، انظر ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: تحقيق سكيّنة الشهابي، دار الفكر دمشق، ط ١، ١٤٨٠هـ - ١٩٩٠، ج ٩٠/٢١.

(٢) سؤى: بضم السين، أسم ماء البهراء في أرض السماوة مرّ به خالد إلى الشام (معجم البلدان: سؤى)

(٣) فراق: بضم القاف الأولى وذكر الثانية وإد لقلب بالسماوة من ناحية العراق نزل خالد بن الوليد رضي الله عنه، عند قصدة الشام (معجم البلدان: فراق) ولم يحتج الحموي بشعر القعقاع فيه.

(٤) المصيح: بضم الميم وفتح الصاد المهملة وياء مشددة يقال له مصح بني البرشاء، وهو بين حوران والقلت، كانت به وقعة هائلة لخالد بن الوليد على بني تغلب (معجم البلدان: المصيح)

(٥) إباري: جمع أبر وهو الذي يحالف عدوه ليستعين به على قوم آخرين (لسان العرب: أبر)

(٦) الفراق: صاحب الصوت الحسن (لسان العرب: قرقر)

(٧) البلاذري، أبو الحسن: فتوح البلدان، تحقيق رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١ ص ١١٨ - ١٢٠.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص ١١٨

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٢/ ٢٥٦.

(١٠) الحموي: معجم البلدان، مادة الحصيد، ج ٢/ ٣٠٧ وفيها بيتان للقعقاع ذكر الحصيد فيها.

(١١) محمد أبو الفضل إبراهيم وزميله: أيام العرب في الإسلام، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٠٥.

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٨.

(١٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٢/ ٢٥٧.

(١٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف بمصر، ج ١٦٥/٣.

(١٥) محمود الدرة: تاريخ العرب العسكري، خريطة حركة خالد من الحيرة إلى تدمر.

(١٦) داري سليمان: يقصد بهما دمشق وتدمر التي يقال أن جنّ سليمان بنتهما (الحموي: معجم البلدان، مادة "تدمر" و"دمشق").

(١٧) الباب العراقي: يعني الباب الشرقي لحصن دمشق إذ منه دخلوا وفتحوها.

(١٨) يتكلم القعقاع على جند الرّوم في دمشق بعد أن طعنهم المسلمون كالرحى للحب، ويطلب من نساء الرّوم أن يجعلن المسلات المحماة، وأمشاطهن

في حلوق رجالهن، لجنهن في الحرب، فعضوا أباهم ندماً على ما آل إليه مصيرهم في فتح دمشق.

(١٩) زادنا: أفزعنا (لسان العرب: زاد) غير أن المعنى شققنا نحورهم أولى كما يفهم من توظيف القعقاع له.

(٢٠) الجنرال أكرم الباكستاني: سيف الله، ص ٢٥٧-٢٦٢ وانظر خريطة الحركة ص ٣٣٧ وخريطة رقمها (١٧) في فتح دمشق ص ٣٩٠.

(٢١) معجم البلدان: أرك ج ١/ ١٨٤.

(٢٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٢م ج ٤/ ٦٦.

(٢٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة سنبر.

(٢٤) حواريين بفتح الحاء وتشديد الواو وفتحها، بلدة من قرى حلب (الحموي: معجم البلدان "حواريين").

(٢٥) الجنرال أكرم الباكستاني: سيف الله ص ٣٥٦.

(٢٦) قصم: بضم القاف وفتح الصاد، بلدة ببادية الشام (الحموي: معجم البلدان "قصم").

(٢٧) مرج راهط: موضع بقوطة دمشق (الحموي: معجم البلدان "مرج راهط").

(٢٨) ثنية العقاب: ثنية مشرفة على غوطة دمشق (الحموي: معجم البلدان "ثنية العقاب").

(٢٩) الصقّرين: مرج الصفر: يمتد جنوباً من الكسوة التي تقع جنوبي دمشق بحوالي (١٢) اثني عشر ميلاً على الطريق الحالي المؤدي إلى درعا (أذرعات) وإلى الطرف الجنوبي من الكسوة، يوجد واد مفعم بالشجر، ومن هذا الوادي يمتد مرج الصفر باتجاه الجنوب (الجنرال أكرم الباكستاني: سيف الله ص ٣٨٤) وسوّى بالأصفر لصفرة لونه وانظر موقعه جنوبي دمشق عند تسم العسلي: خالد بن الوليد، دار النفائس، ط ١، ص ١١٠) ومرج الصفر عند الحموي مرج دمشق وتحديده حديثاً أدق.

(٣٠) المناخر: الأنوف ويعني أذلال غسان.

(٣١) الحارثان: هما الحارث بن الأيهم والحارث بن جبلة بن الحارث الرابع بن حجر الغساني، ملك الغساسنة، وكلاهما قائد عربي نصراني غساني، وكان الثاني منهما عاملاً للروم على بلاد الشام، بذود عن حدودها، أعداءه من اللخمين أنصار الفرس (غزوات ابن جبش، ص ١٨٩، والزركلي: الأعلام، ج ٢/ ١٥٣).

(٣٢) بُصْرَى: بضم الباء قسبة كورة حوران من أعمال دمشق (معجم البلدان: بُصْرَى ج ١/ ٥٢٢).

(٣٣) المعاذر: الاعتذار عما أقرّفوه بحق لواء شرحبيل بن حسنة قبل فتحها من قبل خالد بن الوليد.

(٣٤) فضضنا أبوابها: كناية عن فتحها بقوة السلاح.

(٣٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٠، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١/ ٥٢٢.

(٣٦) الواقدي: فتوح الشام، دار الجيل، بيروت (د.ت) ص ١٦٥-١٦٦

(٣٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢/ ٣٣٧ سنة ١٣ هـ

(٣٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٢/ ٢٦٠

(٣٩) الحموي: معجم البلدان (اليرموك) ج ٤٩٧/٥ حدث في عهد أبي بكر الصديق (و) الواقصة ج ٤٠٨/٥

(٤٠) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٠

(٤١) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج ١/ ١٦٠

(٤٢) البكري: معجم ما استعجم، عارضة بمخطوطات القاهرة، وحققه مصطفى السقا، عالم الكتب ج ٢/ ١٣٩٣ (اليرموك)

(٤٣) أرح الجنرال أكرم الباكستاني: سيف الله ص ٤٣٥-٥٢٠

(٤٤) محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، دار الفكر ط ٢ ص ٣٣٤-٣٣٥

(٤٥) إعتزام: عزم الجيش صُدُّهم وكثرتهم وشِدَّتْهم (لسان العرب: عزم).

(٤٦) وراد: لون يضرب إلى الحمرة والصفرة (لسان العرب: ورد).

أدب وادي الرافدين وأثره في نصوص أدبية متأخرة



يمثل أدب وادي الرافدين أقدم الآداب العالمية المعروفة في التاريخ من حديث التأليف والتدوين، ويرجع تدوين أقدم النصوص الأدبية السومرية إلى حدود ٢٤٠٠ قبل الميلاد وهي أسطورة مدونة على أسطوانة من الطين مقسمة إلى عشرين حقلًا. والأسطورة تتعلق باله الجو والرياح اينليل (Enlil) وأخته نينخورساك (Ninhursag). وترد فيها إشارات عن آلهة أخرى مثل ايناننا (Inanna) واينكي (Enki) ونيورتا (Ninurta). وإن المفردات والمصطلحات والأفكار الواردة في الأسطورة تكشف عن أسلوب وبنية وتواصل مستمرين للحركة الأدبية في وادي الرافدين.

وهناك أسطورة أخرى دونت على لوح مهشم للأسف يرجع إلى التاريخ نفسه وتتعلق بابن الإله اينليل المدعو ايشكور (Iškur) الإله العاصفة الذي اختفى داخل العالم الأسفل، فجمع الإله اينليل الانوناكي لطلب العون منهم، وكان الثعلب على ما يرجح هو الذي تطوع لإعادة ايشكور من العالم الأسفل. وإن موضوع الثعلب يعيد إلى الأذهان دوره في أسطورة أينكي ونيخورساك وأرض دلمون المدونة في الألف الثاني قبل الميلاد^(١).

والمعروف إن غالبية النصوص الأدبية في وادي الرافدين قد تم إبداعها في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد أي قبل زمن تدوينها في أواخر الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. وهذا يشير إلى قدم هذا الأدب على الآداب العالمية، فبالنسبة إلى مصر القديمة مثلاً، لم يأتنا من أدبها شيئاً خلال عصر الأهرامات وهو عصر نضج الحضارة المصرية في الألف الثالث قبل الميلاد. وفي أوغاريت فإن أقدم أدب عثر فيها يعود إلى حدود منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، أي بعد الزمن الذي دون فيه أدب العراق القديم بما لا يقل عن خمسة قرون، ومثل هذا يقال عن الأدب العبري إذ لا يتعدى أقدم زمن لتدوين العهد القديم إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. ونذكر على سبيل المقارنة أيضاً الإلياذة (Iliad) والأوديسة (Odyssey) اللتين تمثّلان أقدم نتاج أدبي لليونان فإن زمن تدوينها لا يتعدى القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد على أكثر تقدير، أي إنها متأخرتان في الزمن عن تدوين أدب العراق القديم بحدود ألف عام. ونذكر أيضاً ما يسمى بـ الرگ-فيدا (Rig-Vida) الممثلة لأدب الهند القديم، وكذلك الافستا (Avesta) المتضمنة أقدم أدب إيراني، فما من هذه الآداب ما هو مدون قبل النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، أي إن زمن تدوين أدب العراق القديم يسبقها بأكثر من ألف عام^(٢).

مذ الكشف عن آداب وادي الرافدين وترجمتها سرعان ما انتبه الباحثون عن وجود أثر لهذا الأدب في الآداب العالمية القديمة. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، كان عالم المسامريات الشهير جورج سميث يعمل في المتحف البريطاني في تصنيف القطع الصغيرة في مجموعة ألواح هنري لايارد المسماة.

وقبل أن يترجم مصادفة ذلك الجزء من اللوح الحاوي على الجملة المذهلة التي تقول إن سفينة نوح قد رست على جبل نصير (Nišir)، تتبعها قصة إرسال الحمامة وعودتها بعد فشلها في إيجاد مكان تحط فيه لاحظ سميث قطعة مرقمة (k63) فيها إشارة إلى أسطورة الخلق؛ إلا أنه في غمرة انفعاله لاكتشافه سابقة لنوح المذكور في الكتاب المقدس، قام سميث بتخية هذه القطعة جانباً بصورة مؤقتة، وقد ركز جل اهتمامه في إيجاد عناصر أخرى مفقودة ومرتبطة بقصة الطوفان، فكتب في فكرته حينذاك: "كان البحث عملاً شاقاً

د. أسامة عدنان يحيى

مدرس تاريخ العراق والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب — الجامعة المستنصرية

بغداد — العراق

usama200080@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أسامة عدنان يحيى، أدب وادي الرافدين وأثره في نصوص أدبية متأخرة - دورية كان التاريخية - العدد العاشر؛ ديسمبر ٢٠١٠. ص ٤٧ - ٥٠.

(www.historicalkan.co.nr)



[.....]

ولكن ريح الجنوب [بدأت تهب بشدة فأغرقت]

سفينته ورمتهما في عالم [الأسماك]

يا ريح الجنوب (صرخ لها) لتقع اللعنة

على جميع مخازيك!

لأكسرن جناحك! ما إن تلفظ بهذه الكلمات

حتى انكسر جناح ريح الجنوب^(١٣).إن لعنة ادايا أدت الى توقف هبوب الريح الجنوبية^(١٤).

إن مقارنة أولية للنص تكشف التشابه المذهل بين الأسطورتين ،

فالاثنتين ادايا والسيد المسيح يركبان قارب ويواجهان عاصفة من الرياح

ويستخدمان قوة الكلمة (سحر الكلمة) في إيقاف هذه العاصفة ، اللعنة

بالنسبة لادايا وانتهاز الريح (ربما المقصود بها لعنة ما) في حالة السيد

المسيح. ولكن الأمر لا يقتصر عند ذلك الحد إذ إن قراءة أسطورة ادايا

والأساطير المتعلقة بالسيد المسيح في الأناجيل تكشف عن تماثل

أعمق ، فالمسيح كما هو معروف هو ابن الله^(١٥) ، وإن ادايا هو ابنالإله أيا^(١٦) . ونعرف كذلك إن السيد المسيح كان شافيا للأمراض^(١٧)

وإن ادايا قد منح هذه الهبة من قبل الإله الأكبر انو:

"وبها إن ادايا هو من الجنس البشري

[وبطرقه الخاصة] يتمكن بنجاح من كسر جناح ريح الجنوب

وبها انه ، دونها عقاب صعد إلى السموات فليكن (قرارنا) كذلك:

[كل] ما ستسببه [ريح الجنوب] من شر للبشر

[وأي مر]اض ستضعه في جسم البشر

[مع] ادايا سوف تتمكن نيكاراك (Nikarrak)^(١٨) من تهدئتهما

وعند [ذلك] فليتبدد الشر ولتبعد المرض!

ولكن] بدونه ، لتأت الحمى المقرسة

[بحيث] لا يتمكن [المريض] من اخذ راحته في نوم هانئ!"^(١٩).

يتضح من هذا الاستعراض الأثر الكبير الذي تركته أسطورة ادايا في

شخصية السيد المسيح كما أظهرتها الأناجيل. وإن التساؤل الذي

يمكن طرحه هنا هو كيف وصلت أسطورة ادايا الى الأناجيل؟ لا يمكن

الجزم بالطريق الذي وصلت فيه المؤثرات البابلية في الأناجيل ولكن

إن الشيء المؤكد إن كهنة بابليين كانوا يزورون فلسطين خلال عصر

السيد المسيح ونقرأ إشارة عن مثل هذه الزيارات: "لها ولد يسوع في

بيت لحم اليهودية ، على عهد هيرودس ، جاء إلى اورشليم مجوس من

المشرق وقالوا: أين هو المولود ، ملك اليهود؟ رأينا نجمة في المشرق

فجئنا لنسجد له"^(٢٠).

لقد افترض باحث على الأقل إن المقصود بالمجوس في النص هم

أولئك من رجال الدين الإيرانيين القدماء^(٢١) . ولكن يبدو إن النص هنا

يتحدث عن كهنة بابليين ويمكن أن تقدم برهانا مفاده إن المقصود

بمصطلح المجوس في أقل تقدير بالنسبة لكتبة العهدين القديم

والجديد يقصد بهم الكهنة البابليون. فقد ذكر المجوس ككهنة الملك

البابلي نبوخذنصر كما نقرأ: "وفي السنة الثانية من عهد نبوخذنصر

الملك ، حلم نبوخذنصر أحلاما أزعجته ومنعت عنه النوم. فأمر أن

يدعى السحرة والمجوس والعرافون والمنجمون ليفسروا له أحلامه"^(٢٢).

وعندما عجز هؤلاء عن تفسير حلم نبوخذنصر يخبرون الملك: "فقال

المنجمون أمام الملك: ما من إنسان في الأرض يقدر أن يبين ما يأمرنا

به الملك ، وما من ملك عظيم السلطان سأل ساحرا أو مجوسيا أو

منجما عن أمر مثل هذا"^(٢٣).

وطويلاً ، لأنه كان هناك آلاف من القطع الصغيرة التي تحتاج الى الفحص والدراسة".

وخلال أسابيع قليلة ، التأمّت ثلاث روايات من قصة الطوفان

المتباينة قليلاً ، جميعها مأخوذة عن مجموعة لا يارد. لم يكتمل أي

منها حيث كانت كل واحدة منها قد جمعت مع ربط عدد قليل فقط

من الكسر الصغيرة. ومن أصل أعمدة النص الستة الموجودة في

الألواح الأصلية ، كانت تراكيب العمودين الثالث والرابع على وشك

إتمامهما ، أما البقية فقد كانت مفقودة بصورة كاملة ، أو يمكن قراءتها

بصورة جزئية بسبب الثغرات الموجودة. على الرغم من ذلك استطاع

سميث أن يفك رموز ما يكفي للمقارنة مع قصة الطوفان التوراتية

ليهيئ محاضرتة التي انتظرها بفرغ الصبر والتي ألقاها أمام جمعية علوم

الأثار التوراتية في ٣/كانون الأول/١٨٧٢. حركت المحاضرة التي ألقاها

سميث أمام الجمعية شعوراً بشكل حدا بمالكي صحيفة الديلي لتلغراف

اللندنبة أن يقدموا مكافأة قدرها ألف جنيه إسترليني ، لاستئناف

التنقيبات في نينوى وجلب الألواح المفقودة.

وكان سميث قد نجح بعد ذلك من ترجمة نص أسطورة الخلق

ونشر تقريره حولها في ٤/آذار/١٨٧٥ وقد أبدى دهشته حول التشابه

الموجود بينها وبين الإصحاح الأول من سفر التكوين^(٢٤) . وخلال

الأعوام من ١٨٧٢ إلى الآن تمكن العلماء والباحثون من وضع

مؤشرات واسعة حول أثر الأدب القديم في وادي الرافدين في الآداب

العالمية القديمة. ولعل أبرز الدراسات التي نفذت قد تركزت حول العهد

القديم^(٢٥) . كذلك تم تشخيص عدد من الآثار الأدبية البابلية في كل منالأدب الكنعاني^(٢٦) ، والحيثي^(٢٧) ، واليوناني^(٢٨) ، والفارسي^(٢٩) ،والهندي^(٣٠).

إن دراسة المؤثرات الأدبية من وادي الرافدين ما زال جاريا وإن

البحث الحالي هو محاولة تسليط الضوء على هذا الأثر من خلال

أسطورتين في أدبين مختلفين وهما:

١. أسطورة يسوع والعاصفة

تذكر أسطورة ترد في الأناجيل إن يسوع ركب قارباً يوماً: "فتبعه

تلاميذه وهبت عاصفة شديدة في البحر حتى غمرت الأمواج القارب.

وكان يسوع نائماً ، فدنا منه تلاميذه وأيقظوه وقالوا له: نجنا يا سيد

نحن نهلك! فأجابهم يسوع: مالكم خائفين ، يا قليلي الإيمان؟ وقام

وانتهز الريح والبحر ، فحدث هدوء تام. فتعجب الناس وقالوا: من هذا

حتى تطيعه الرياح والبحر"^(٣١).

بلا شك إن هذه الرواية تعد من أهم الروايات الأسطورية عن

السيد المسيح ومعجزاته ترد في الأناجيل ، ولكن دراسة فاحصة للنص

تشير الى وجود اقتباس من الأدب البابلي. والحقيقة إن هناك أسطورة

بابلية طالما نُظِر إليها على إنها ذات أثر في أسطورة هبوط آدم من

الجنة^(٣٢) ولم يتم ربطها بشكل جاد بالتراث الإنجيلي وهي أسطورةادايا^(٣٣). ونقرأ في هذه الأسطورة:

"(في أحد الأيام) ، على الرصيف المقدس رصيف القمر الجديد

ركب سفينته الشراعية

وبريح (مواتية) كانت السفينة تتابع تقدمها

و[بواسطة] عصا الغرز (وحدھا) كان يوجه سفينته

[وعندما وصل الى عرض] البحر الفسيح

إبدأ يصطاد وكان البحر مثل مرآة!...

الفروسية وسرعان وما ذاع صيته في الحروب ومن ثم تتعرف عليه أمه هماي وتعطيه العرش^(٢٩). بلا شك إن أسطورة الطفل الملقى به في النهر هي أسطورة شائعة في أدب وادي الرافدين والتي صيغت حول أحد ملوك سلالة أكد وهو سرجون الاكدي. ويمكن أن نقرأ فيها:

"أنا سرجون الملك العظيم ، ملك بلاد أكد

كانت أمي كاهنة عظمى

وأنا لا أعرف أبي

كان شقيق أبي يحب التلال

ومدينتي أزوبيرانو (Azupiranu)

التي تقع على ضفاف الفرات

لقد حملتني أمي وولدتني سرا

ووضعتني في سلة من البردي ختمت غطاءها بالقبر

ومن ثم رمتني في النهر الذي لم يغمري

فحملني النهر وأخذني الى الغراف اكي (Akki)

فاتخذني الغراف اكي ابنا له

وجعلني الغراف اكي بستانيا عنده

وعندما كنت بستانيا منحتني عشتار حبها

فاضطلعت بالملوكية أربع و[أربعين] عاما"^(٣٠).

من غير شك هناك تماثل كبيرة بين الأسطورتين ففي أسطورة سرجون الاكدي تتخلص منه أمه لأنها كاهنة عظمى يمنع عنها الإنجاب ، مثلما فعلت والددة دارا عندما تخلصت من وليدها ولكن هنا لا يذكر السبب. وكان نهر الفرات هو النهر الذي رمي إليه الطفلان ؛ وفي الوقت الذي انتشل سرجون الغراف اكي ، انتشل دارا قصار كان يغسل ثيابه في النهر. وكلا البطلين تسلمها السلطة من امرأة الإلهة عشتار بالنسبة لسرجون وهماي في حالة دارا. وكانت هماي ملكة في حين على الأرجح كانت والددة سرجون من أسرة ملكية فالمعروف في وادي الرافدين إن الكاهنات من هذه الدرجة كن من الأسر الملكية ، فقد قام الملوك بتكريس بناتهم لهذا المنصب والخدمة في معابد الآلهة مثلما فعل سرجون الاكدي (٢٣٧١-٢٣١٦ قبل الميلاد) نفسه ونابونائيد (٥٥٥-٥٣٩ قبل الميلاد) فيما بعد.

ومع ذلك هناك اختلاف بين الأسطورتين ففي الوقت الذي أكدت فيه الأسطورة البابلية على إن سرجون ورث مهنة أبيه وأصبح بستانيا نجد الأسطورة الفارسية تقول إن دارا رفض مزاوله مهنة والده ربما لزيادة الدور البطولي لهذا الملك وإبراز شجاعته. ولكن عنصرا آخر ذكر في أسطورة دارا لا نجد له مثيل في الأسطورة البابلية فوالد دارا الذي وجده يسميه داراب أي في الماء وهذا العنصر غير موجود في النص البابلي ، فهل إن هذا المورد من الأسطورة اختلاق الفردوسي نفسه أم مقتبس هو الآخر ، وإذا كان مقتبسا فمن أين ؟ لابد إن الفردوسي قد اقتبس هذه المسألة من أسطورة ولادة موسى الواردة في العهد القديم (وهذه الأسطورة بالأصل مقتبسة من الأدب الرافديني) إذ تقول أسطورة موسى ابنة فرعون التي وجدت موسى سمته بهذا الاسم وقالت: "لأنني انتشلته من الماء"^(٣١). الحقيقة إن هذا الاسم مصري وكما يرى الأستاذ القمني هو في المصرية مؤلف من مو(ماء) وسا(ابن) أي ابن الماء^(٣٢).

ونمتلك دليلا خارجيا غير الكتاب المقدس يعطينا برهاناً آخر حول ارتباط العرافين البابليين بكلمة المجوس ففي بداية حكمة احيقار السريانية نقرأ قول احيقار الذي يقول: "عندما كنت أعيش في فترة حكم سنحاريب ملك نينوى ، عندما كنت أنا احيقار خازنا وكاتباً ، وكنت شاباً ، قال لي العرافون والمجوسيون والحكماء: لن يكون لك ولد"^(٢٤). وعندما أراد أسرحدون كما يذكر النص السرياني استشارة حكماء دولته في أمر ما فانه: "جمع كبار مملكته والحكماء والمجوسيين والعلماء"^(٢٥). لذا يتضح لنا إن هؤلاء المجوس الذي كانوا يترددون على فلسطين هم صنف من أصناف المنجمون والعرافون البابليون. هذا وإن ذكر بابل يرد بشكل مباشر في أدبيات العهد الجديد^(٢٦). مما يشير إلى وجود صلات بين بلاد الرافدين وفلسطين القرن الميلادي الأول.

٢. أسطورة ولادة الملك الفارسي دارا الأول

إن الحصول على مصدر معاصر للدولة الاخمينية حول الأساطير الإيرانية القديمة غير ممكن بكل الأحوال ، فالنصوص الإيرانية القديمة المعاصرة للدولة الاخمينية اغلبها ذات طابع سياسي وكتابات ملكية بالدرجة الأولى ، وإن النص الأدبي-الديني الممكن استخدامه والذي ربما يكون معاصرا للحقبة الاخمينية هو الافستا إلا انه لا يتضمن أساطير إيران القديمة إلا نادرا فهو يتحدث عن الديانة التي أسسها زرادشت وتطورها من بعد وفاته. ورغم انه يطلعنا على أخبار بعض ملوك إيران الأسطوريين ، إلا إننا لا نقرأ فيه أية إشارة عن ملوك الدولة الاخمينية لذا من الصعب استخدامه لمعرفة تاريخ هذه الحقبة.

ومع ذلك فإننا ما زلنا نمتلك مصدر واحدا ذا طبيعة استثنائية ولكن متأخر جدا عن الحقبة الاخمينية يمكن الاستفادة منه من اجل التعرف على الأساطير الإيرانية القديمة هو ما يعرف باسم الشاهنامه أو ملحمة الفرس الكبرى للشاعر الإيراني الفردوسي الذي عاش في القرن الحادي عشر للميلاد. والشاهنامه منظومة عظيمة مكونة من ستين ألف بيت نظمتها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي. وقضى في نظمها أربعين سنة تقريبا وأنهاها في حدود عام ١٠١٠م. وتكمن أهمية الشاهنامه بكونها مصدر يستقي منه الإيرانيون عقائدهم المتصلة بتاريخ شعبهم القديم^(٣٧). وإن نظرة جيدة في مضمون الشاهنامه يتضح منها إن مؤلفها رغم انه عاش في القرون الوسطى إلا انه ينقل أساطير إيران القديمة ، وإن مقارنتها بالأدب الهندية-الأوربية القديمة (كالإلياذة) يمكن أن تقدم لنا اضاءات كثيرة عن هذه الملحمة وعبقريه شاعرها. ويمكن تشبيه عمل الفردوسي بالنسبة لتاريخ إيران مثل عمل فيرجيل في تاريخ روما.

في الشاهنامه يسرد لنا الفردوسي نصا أسطوريا حول ملك يدعى داراب (ربما دارا الأول)^(٣٨) وتقول الأسطورة إن بهمن أحد ملوك الفرس ولى ابنته هماي الملقبة جهر آزاد التي تزوجها هو نفسه ورزقت منه بابن. وفيما بعد تنسج هماي العرش بعد وفاة بهمن. فلما جاءها المخاض ولدت صبيا قالت أنه مات. ولما بلغ وليها ثمانية أشهر وضعته في علبه مملوءة بالجواهر وشدت على عضده جوهرة لها قيمة عالية ، ثم أمرت فألقي به في نهر الفرات ، وعند النهر وجده قصار يغسل الثياب فأخذه واتخذته ابنا عوضا عن ابنه الميت. وانتقل مع زوجته وربيه إلى بلدة ثانية بعدما اسماه داراب لأنه وجده في الماء (داراب تعني في الماء). ويقول الفردوسي إن داراب تمنع عن مزاوله مهنة أبيه ، وتعلم

لا نعرف كيف وصلت هذه الأسطورة إلى الفردوسي ولكن وصول الأساطير والقصص القديمة إلى مؤلفات متأخرة ليس بالأمر الغريب وقد شخص مثل هذا الأمر في مؤلفات متأخرة كما هو الحال مع الفردوسي مثل قصص ألف ليلة وليلة^(٣٣)، وعند ابن النديم في الفهرست يرد ذكر أسطورة تموز ولكن مدمجة مع أسطورة بعل الكنعانية^(٣٤).

الهوامش:

- (١) صموئيل نوح كريم، السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة: فيصل الوائلي، (الكويت: دار غريب للطباعة، ١٩٧٣)، ص ٢٢٩؛ فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة و ملحمة، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٧)، ص ٥٧.
- (٢) طه باقر، ملحمة كلكامش، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦)، ص ١٢-١٣.
- (٣) وليم ريان ووالتر بتمان، طوفان نوح: الاكتشافات العلمية الحديثة بخصوص الحدث الذي غير التاريخ، ترجمة: فارس بطرس، إشراف ومراجعة: يوسف توما، (بغداد: مطبعة النهار الجديد، ٢٠٠٥)، ص ٦٠-٦٦.
- (٤) لقد نفذت عدد كبير من الدراسات التي حاولت الكشف عن أثر الأدب الرافديني في العهد القديم ولعل أهمها دراسات: فاضل عبد الواحد علي، من ألواح سومر الى التوراة، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩)، ص ٢٣٩-٣٩١؛ سيد محمود القمني، قصة الخلق أو منابع سفر التكوين، (القاهرة: المركزي المصري لبحوث الحضارة، ١٩٩٩)؛ سهيل قاشا، التوراة البابلية، (بيروت: دار الفرات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣). وجرت معالجة مؤخرا وافية لأثر اداب الشرق الأدنى في العهد القديم من قبل: غسان عبد صالح، أساطير التوراة: دراسة تاريخية تحليلية، (أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٤).
- (٥) نفذت معالجة حديثة لأثر الأدب البابلي في الأدب الكنعاني ولكنها جزئية وغير وافية من قبل: منذر علي عبد الملك، "تأثير الأدب البابلي في الأدب الاوغاريتي، بحث ضمن ندوة الصلات المشتركة بين أجياليات الوطن العربي القديمة للعدة: ١٠-١١/١٠/٢٠٠١، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، ٢٠٠١)، ص ٧٣-٩٥.
- (٦) لا توجد حاليا تغطية شاملة عن أثر الأدب البابلي في الأدب الحيثي، باستثناء الإشارات القيمة في، علي، من ألواح سومر، ص ١٩٣-١٩٥.
- (٧) لقد شخص أثر أدب وادي الرافدين في الأدب اليوناني في عدد من الدراسات ولم تظهر الى الآن دراسة شاملة حول المسألة ومن أجل الحصول على إشارات جيدة أنظر: علي، من ألواح سومر، ص ٢٠٦-٢٢٧. سامي سعيد الأحمد، حضارات الوطن العربي أساسا للحضارة اليونانية، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، ٢٠٠٣). وإن الدراسة الأخيرة شاملة لكل المؤثرات الحضارية للشرق الأدنى في بلاد اليونان وفيها إشارات قيمة بخصوص أثر أدب وادي الرافدين في الأدب اليوناني القديم.
- (٨) لا نمتلك حاليا دراسة شاملة للمادة الأدبية الفارسية القديمة مع إبراز المؤثرات من وادي الرافدين عليها وتمت محاولة جزئية من قبل: أسامة عدنان يحيى، بابل في العصر الاخميني، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٣)، ص ٣٠٦-٣١١.
- (٩) لم تتوفر إلى الآن معالجة شاملة حول المؤثرات الأدبية السومرية-البابلية في الأدب الهندي وشخص مؤخرا أثر أسطورة الخليفة في أسطورة هندية من قبل: أسامة عدنان يحيى، الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم: دراسة في الأساطير، (أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٧)، ص ٧١.
- (١٠) أنظر نص الأسطورة في: متى ٨: ٢٣-٢٧؛ مرقس ٤: ٣٥-٤١؛ لوقا ٨: ٢٢-٢٥.

(١١) أنظر: علي، من ألواح سومر، ص ٢٦٠-٢٦٧.

(١٢) من أجل الحصول على ترجمات وافية لهذه الأسطورة أنظر:

E.A Speiser, Adapa, In: ANET (= Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament), (Princeton, 1966), PP. 101-103;

الكسندر هايدل، الخليفة البابلية: قصة النشوء والتكوين عند قدماء العراقيين وانعكاساتها على العهد القديم، ترجمة: ثامر مهدي محمد، مراجعة: محي الدين إسماعيل، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، ٢٠٠١)، ص ١٩٧-٢٠١؛ رينيه لا بات، المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين: مختارات من النصوص البابلية، ترجمة: ألبير أبونا ووليد الجادر، (بغداد: مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٨)، ص ٣٤٤-٣٤٨؛ قاسم الشواف، ديوان الأساطير، (بيروت: دار الساقى، ١٩٩٧)، ج ٢، ص ٤٧٩-٤٨٦.

(١٣) أسطورة ادايا، اللوح A، الأسطر: ١٩-٢٣؛ اللوح B، الأسطر: ١-٥.

(١٤) أسطورة ادايا، اللوح B، الأسطر: ٧-٨.

(١٥) بروس بارتون وآخرون، التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ترجمة: شركة ماستر ميديا، (القاهرة: بلاط، ١٩٩٧)، ص ١٨٦٥.

(١٦) أسطورة ادايا، اللوح B، السطر: ١٠.

(١٧) نجد أمثلة متعددة في الأناجيل حول هذه المسألة.

(١٨) وهي إلهة الصحة والشفاء.

(١٩) أسطورة ادايا، اللوح D، الأسطر: ١٢-٢٠.

(٢٠) ٢: ٢-١.

(٢١) أنظر هذا الرأي ومحاولة البرهنة عليه في: خليل عبد الرحمن، مقدمة كتاب الاقستا، (دمشق: روافد للثقافة والفنون، ٢٠٠٨)، ص ١٨-١٩؛ أنظر كذلك: قاموس الكتاب المقدس، مادة: مجوس في

<http://www.albishara.org/dictionary.php>

(٢٢) دانيال ٢: ٢-١.

(٢٣) دانيال ٢: ١٠.

(٢٤) قاسم الشواف، ديوان الأساطير، (بيروت: دار الساقى، ١٩٩٩)، ج ٣، ص ٣٧٢.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٩٢.

(٢٦) أنظر: رؤيا القديس يوحنا ١٤: ٨؛ ويرد اسم نهر الفرات الكبير ١٤: ٩؛ ١٦: ١٢؛ ويتحدث الإصحاح ١٨ عن ما يعرف بسقوط بابل.

(٢٧) أدوار براون، تاريخ الأدب في إيران، ترجمة: أحمد كمال الدين حلمي، (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٤)، ج ١، ص ١٨٩.

(٢٨) انظر هذه المطابقة في، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٩.

(٢٩) ابو القاسم الفردوسي، الشاهنامه: ملحمة الفرس الكبرى، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩)، ص ١١٥-١١٧.

(٣٠) حول أسطورة سرجون الاكدي انظر:

E.A Speiser, The Legend of Sargon, In: ANET, P. 119

لا بات، المعتقدات الدينية، ص ٣٦٤-٣٦٦؛ علي، سومر، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٣١) خروج ٢: ١٠.

(٣٢) سيد القمني، الاسرائيليت، (القاهرة: عربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢)، ص ٧٢، وحول معاني المقطعين المصريين أنظر: أنطوان زكري، مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع خطوطها وأهم إشاراتها ومبادئ اللغتين القبطية والعبرية، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧)، ص ٨٣، ٩٠.

(٣٣) لقد تم تشخيص أثر لقصة البابلي جميل- نينورتا في قصص ألف ليلة وليلة أنظر: فاضل عبد الواحد علي، "من أدب الهزل والفكاهة عند السومريين والبابليين" سومر، م ٢٦، لسنة: ١٩٧٠، ص ٩٣-٩٤، طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٣)، ص ١٨٦-١٨٧؛ علي، من ألواح سومر، ص ١٨٦.

(٣٤) أنظر: علي، من ألواح سومر، ص ١٨٨.

ملخص

كان لإمارة فلورنسا وإمارة فينيسيا في إيطاليا ، في بدايات النهضة العلمية والفكرية لأوروبا ، الدور الرئيسي في نشوء وتنمية وتطوير فكرة وقاعدة القيد المزدوج التي أسست للتقنية والعلوم المحاسبية الحديثة. غير أن الممارسة المحاسبية كانت موجودة قبل ذلك ، وفي كل الحضارات وبمختلف مسمياتها وطرق أدائها وأهدافها ، حاضرة في كل زمان ومكان ، وخاصة في الدول العربية والإسلامية التي كان لها الأثر

المعتبر على تطور العلوم الحسابة والمحاسبية. فبعد أن كانت المحاسبة فكرة وضرورة حسابية وأداة تذكيرية للأحداث التجارية في بداياتها الأولى ، أصبحت إحدى فروع المعرفة الإنسانية المهمة التي تختص بتوليد البيانات والمعلومات عن أوجه النشاط الاقتصادي وتوفيرها في صورة ملائمة لذوي الحاجة إليها. ولم يتم إبداع المحاسبة في زمن معين أو في تاريخ أو في حضارة بعينها ، بل تطورت ونمت عبر مختلف الأزمان والحضارات الإنسانية.

مقدمة

المحاسبة هي أحد فروع المعرفة الإنسانية التي تهتم بتوليد البيانات والمعلومات عن أوجه النشاط الاقتصادي ، وتوفر هذه المعلومات في صورة ملائمة لذوي الحاجة إليها. ولقد تطورت أهداف المحاسبة ووظائفها ومن ثم البيانات التي تتولد عنها على مر القرون لتتسق مع تطور الحاجة إلى المعلومات وتزايد الطلب عليها ، كنتيجة لتداخل أوجه النشاط الاقتصادي وتعددتها وتعقدتها.

فعندما نشأت المحاسبة لم تكن هي التي نعرفها اليوم أو التي عرفت منذ نصف قرن أو قرن مضى. وبالتالي ، فعندما نبحث عن نشأة وأهداف المحاسبة المالية ووظائفها ومرجعيتها الفكرية وتطورها ، فإننا في واقع الأمر نبحث عن الفكرة التي تطورت على مر الزمن ونمت بفضل الممارسة الفعلية حتى وصلت إلى ما نسميه اليوم المحاسبة.

وفي الواقع فإن المحاسبة لم تنشأ في زمن معين وفي تاريخ أو في حضارة بعينها ، بل تطورت حتى وصلت إلى هذا الوضع مثلها في ذلك مثل باقي فروع المعرفة الإنسانية الأخرى. وقد تنشأ المعرفة عن فكرة أو رأي أو ابتكار وسيلة للتغلب على مشكلة محددة ، ثم تطور بعد ذلك وتنمو وتكبر وتتعمق إلى أن تصبح فرعاً من فروع العلم والمعرفة ، له أهدافه ومداركه وأساسه ومفاهيمه وفرضياته ونظرياته.

ومن هذا المنطلق نشأت المحاسبة كفكرة وضرورة حسابية وأداة تذكيرية للتغلب على مشكلة النسيان التي تلازم الطبيعة البشرية وكذلك لإبراء الذمة والاستشهاد بما هو مكتوب ومثبت ، وخاصة فيما يتعلق بالتعاملات التجارية والعلاقات الإنسانية.

فعند البحث في الآثار التاريخية الخاصة في هذا الميدان ، وجدنا كتابات ودراسات كثيرة في مجال المحاسبة وعلومها تشير إلى نشوء المحاسبة وعلومها في إيطاليا ومدينة البندقية - فينيسيا Venetia. وذلك ، في نظرنا ، أمر منطقي لأن أول كتاب نشر وفصل في تقنيات المحاسبة كان سنة ١٤٩٦ ميلادية كان في هذا البلد والذي ألفه عالم الرياضيات الراهب الفرنسي سكاني لوكا بيسيولي^(١). ولقد عرضت في بعض أجزاء هذا الكتاب اثنان وثلاثون فصلاً قصيراً يتكلم عن المعرفة المحاسبية بشكل منهجي وتعليمي متكامل ، واصفاً لها كان سائداً ومطبوعاً عملياً في مجال المحاسبة وإمساك الدفاتر كما أن إمساك على



معالم تاريخية للمحاسبة المالية

عبد الكريم منصور بن عوف

استاذ مساعد

عضو المجلس العلمي لجامعة معسكر
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



am.benaouf@laposte.net

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الكريم منصور بن عوف ، معالم تاريخية للمحاسبة المالية - دورية كان التاريخية - العدد العاشر ؛ ديسمبر ٢٠١٠. ص ٥١ - ٥٨. (www.historicalkan.co.nr)





أدوات المحاسبة التي طورتها الحضارة الإسلامية

وقد يعتقد البعض أننا نقول أن الحضارة الإسلامية هي التي أنشأت علم المحاسبة وتقنياتها، بل أننا نؤكد على أن الحضارة العربية الإسلامية قد ساهمت كغيرها من الحضارات^(٧)، كالحضارة الصينية والمصرية والبابلية واليونانية والرومانية والفارسية التي سبقتها في تطوير مختلف الأدوات والقياسات والحسابات التي ساعدت العلماء الإيطاليون في عصر النهضة لمواصلة ما بدأ به غيرهم، حيث أفرز الاتصال الثقافي بينهم وبين المشرق العربي وأوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أسساً جوهرية لتطوير العلوم والمعرفة في أوروبا عامة وفي إيطاليا على وجه الخصوص.

ولكن ما دام البناء المحاسبي المعاصر مبني على قاعدة القيد المزدوج، فإننا سوف نرى مسار تطور تقنيات المحاسبة من المهد الذي رعاها، أين تطورت عبر محورين أساسيين^(٨):

المحور الأول: محور فلورنسا

لعبت فلورنسا دوراً محورياً في تطوير علم الرياضيات والمحاسبة في آن واحد. فقد عرفت فلورنسا أوروبا لأول مرة بنظام التقييم العشري، حيث نشر في عام ١٢٠٢ ميلادي في كتاب للرياضيات باسم Abaci liber لصاحبه ليوناردو فيبوناتسي بيزانو

Leonardo Fibonacci Pisan

ولم يكن التقييم العشري ليقبل ويستعمل بسهولة. فاعتبره الأوربيون غامضاً وصعباً. و أتهم آخرون الرياضيين العرب الذين يمارسون المهارات الجديدة بالسحر والشعوذة^(٩). وضلت هذه الأرقام تزامح النظام الروماني اليوناني لمدة تتجاوز القرنين حتى تم لها الانتشار الواسع وخاصة بين التجار الإيطاليين الذين وجدوا في الأرقام العربية من السهولة المطلوبة للعمليات الحسابية الأربعة: الجمع والطرح والقسمة والضرب، عكس نظامهم القديم الذي يعتمد على تجميع الحروف ليعطي قيمة للعدد ناهيك عن الصعوبة في العمليات الحسابية^(١٠).

وقد ظهرت في فلورنسا أقدم وثيقة محاسبية في عام ١٢١١، مكتوب عليها حسابات أستاذ وترحيلات لكنها اقتصر على الحسابات الشخصية فقط من المدينين والدائنين. وفي نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر (١٢٩٦-١٣٠٥) أظهرت بعض الدفاتر المحاسبية الحسابات الاسمية كحساب السلع والمصاريف. وبدأت

أساس القيد المزدوج الذي ظهر آنذاك في سجلات التجار في بعض المدن الإيطالية في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي. وبالفعل، فلقد استمدت من كتاب بيسولي، بعد ذلك، كل الكتابات في مجال المحاسبة في ألمانيا وهولندا وفرنسا وإسبانيا وإنجلترا وبعض البلدان الأوربية الأخرى في القرون الموالية. لكن هل نشوء المحاسبة بمختلف تقنياتها المعرفية والممارسة المحاسبية ولدت ونشأت في إيطاليا فقط؟ وهل المحاسبة هي التي تركزت في مفاهيمها وتقنياتها على قاعدة القيد المزدوج أم هناك دعائم أخرى لذلك؟ وهل بقيت أهداف الممارسة المحاسبية على ممر الزمن نفسها وب نفس البناء الفكري والمرجعي لها؟

في البداية سوف نعرض باختصار لجذور هذه الفكرة وكيف تطورت وفسرت في مراحل تطورها الأولى وخاصة في إيطاليا أين نمت وترعرعت فكرة وقاعدة القيد المزدوج. ثم نعرض على أهداف المحاسبة وإمساك الدفاتر في مراحلها الأولى، وخاصة عندما كان الهدف منها تزويد التاجر والمالك للمشروع التجاري بالبيانات الخاصة بممتلكاته وديونه المختلفة. إلى أن نصل إلى مرحلة بدأ فيها التفكير في المفاهيم وخلفية لما تستند إليها قاعدة القيد المزدوج، بداية من مفهوم حقوق الملكية ثم الوحدة الاقتصادية واستقلالها واستمرارها. وفي آخر المطاف نحاول أن نعدد أهم المفاهيم والفرضيات التي وصل إليها الفكر المحاسبي المعاصر، والتي على ضوءها ومنطلقاتها نبين الغاية التي ينبغي التوصل إليها، والمعيار الذي على أساسه يمكن قياس مدى تقدم المحاسبة المالية وتطورها في عصرنا هذا.

(١) تطور الممارسة المحاسبية

إن الممارسة المحاسبية في إيطاليا وخاصة في إمارة صقلية وإمارة فلورنسا وإمارة فينيسيا كانت كنتيجة لتطور العلوم والمعرفة عموماً وبداية عصر النهضة والتنوير في أوروبا. وكانت هذه الإمارات قنوات اتصال مع الدول العربية والإسلامية عبر الإسكندرية-مصر-وبلاد الأندلس-إسبانيا-وشمال إفريقيا على يد التجار والعلماء، أين كانت المحاسبة في هذه البلدان بمختلف مسمياتها^(١١) جد متطورة، وخاصة من حيث الأدوات اللازمة لأداء العمل الحسابي والمحاسبي، كأدوات الكتابة والحساب والقياس والنقود وأسعار صرفها والأسعار ومستواها العام.

فحين كانت أوروبا في القرن الثالث عشر تستعمل رقائق الجلود والقماش في الكتابة، كان العرب يستعملون الورق والجبر والدواة والأقلام الصغيرة والمبرة وغيرها من الأدوات المساعدة والمتمة للكتابة. أما في مجال الحساب والعد فإن العرب والمسلمين قدموا للبشرية خدمة غير مسبوقة وما زالت باقية حتى الآن، وذلك بنشرهم للأرقام الهندية المنقحة التسعة^(١٢)، والتي زاد من حيويتها عالم الرياضيات الخوارزمي^(١٣) باستخدام الصفر لتصبح عشرة أرقام عربية أصيلة.

كما أهتم العرب والمسلمون بأدوات القياس التي امتازت بالدقة، حيث توجد العلاقة بين المثلثات من الموزونات والمقاييس والمكاييل (الكيل، ذراع، الصاع...) لمعرفة المقدار الكمي والمقدار القيمي بالأموال (الدينار الذهبي والدرهم الفضي) ليكتمل بينهما السعر^(١٤).

ويمكن تلخيص أدوات المحاسبة التي طورتها الحضارة الإسلامية في الشكل التالي^(١٥):

في حياة المالك. وبالرغم من ذلك فهناك بعض الدلائل التي تشير إلى وجود فكرة الوحدة المحاسبية حيث وجد أن كثير من التجار يحتفظ بمجموعة دفترية مستقلة لعملياته المعيشية الخاصة وأخرى لعملياته التجارية.

٣- لم تكن فكرة الفترة المحاسبية أو فرضية استمرار الوحدة المحاسبية من الأمور المعروفة في ذلك الوقت. وقد كان ذلك يرجع أساساً إلى أن معظم العمليات التجارية كانت عمليات محددة ومستقلة تنتهي بمجرد تحقيق الغرض المحدد منها وعلى هذا الأساس فكان تحديد الربح يتم عند انتهاء العملية. ومن ثم فلم يكن هناك حاجة للمحاسبة على أساس الاستحقاق ولم توجد مقدمات ومستحققات فيما يتعلق بالإيرادات والمصاريف. أضف إلى ذلك أن الأصول الثابتة في حالة وجودها كانت تلعب دوراً ثانوياً في نشاط التاجر ولم تمثل جزءاً ملموساً من أصوله ، ومن ثم لم تقم الحاجة الفعالة لحساب الإهلاك.

٤- كانت القيود في الدفاتر وصفية إلى حد كبير ، وتحدد مواصفات موضوع العملية بأدق التفاصيل ، وذلك لتعدد وحدات النقد الموجودة حينئذ وعدم وجود وحدة قياس يمكن الاعتماد عليها كمقياس للقيمة في كل العمليات التي يقوم بها التاجر. وعموماً ، فقد تركزت اتهامات الكتاب في أوروبا منذ منتصف القرن الخامس عشر كما يلي (١٣) :

- الفترة الأولى: منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى منتصف السادس عشر

تركزت على توصيف آلية القيد المزدوج والميكانيكية التي يقوم عليها كما يطبق عملاً ، دون تعرض لما تستند إليه هذه الميكانيكية من أسس أو قواعد ودون اهتمام بدلالة ما تؤدي إليه من نتائج. وكان إمساك الدفاتر في هذه المرحلة قد تطور إلى إثبات العلاقات الشخصية بين الدائنين والمدينين وعلى أساس التسجيل الإحصائي للعمليات غير الشخصية والأشياء الخاصة بالمؤسسة.

- الفترة الثانية: مع بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر

وهي مرحلة حاسمة في الفكر المحاسبي ، حيث بدأ في هذه الفترة اتهام الكتاب يتحول إلى خلفية القيد المزدوج وانتقاد إمساك الدفاتر على أساسه دون استناد إلى هذه الخلفية. كما امتد استخدام القيد المزدوج في هذه الفترة أيضاً إلى ميادين بخلاف النشاط التجاري ، وقامت بعض الحكومات بالتدخل في تنظيم التقارير التي تنتج عن إمساك الدفاتر. ففي خلال هذه الفترة وفي سنة ١٦٧٣ ميلادية ، اقتضت مواثيق التجارة في فرنسا أن يقوم التاجر أو رجل الأعمال بتصوير ميزانية عمومية عند انتهاء كل سنتين على الأكثر. كما أن ظاهرة الموازنة السنوية لحساب الأرباح والخسائر قد ظهرت خلال هذه الفترة أيضاً دون انتظار حتى انتهاء المشروع التجاري ، الأمر الذي كان سائداً قبل ذلك.

كما أن الكتابات المحاسبية في هذه المرحلة بدأت في إضفاء الشخصية المعنوية على كل الحسابات والعمليات (١٤). وقد كان هذا الاتجاه إلى افتراض الشخصية المعنوية للحسابات والعمليات ناتجاً عن محاولة الكتاب لتبرير قواعد القيد المزدوج من مدين ودائن كما تنطبق على الأشياء والعمليات غير الشخصية. فقد كانت الحسابات تستخدم للعناصر غير الشخصية مثل النقدية والمخزون في بداية

الحسابات تأخذ الشكل "منه- له" debito - credito ووفق الشكل المعروف بالحرف اللاتيني (T) ، وكانت البدايات الأولى لمساك الدفاتر وفق القيد المزدوج. كما أنشأت في فلورنسا منذ بدايات القرن الرابع عشر مدارس لتدريس تقنيات المحاسبة ومساك الدفاتر حسب هذه الأصول لتدريب الشباب و التجار عليها.

المحور الثاني: محور البندقية - فينيسيا

أكملت فينيسيا ، ومنذ النصف الأول من القرن الرابع عشر ، مسار تطوير تقنيات المحاسبة وفق قاعدة القيد المزدوج ، إذ بدأت التقنية ترسخ وتظهر بوضوح. وساعدها في ذلك الوسط الملائم أين أنتشرت أعمال الصيرفة والتجارة والاستيراد والتصدير من وإلى بلدان وراء البحار ، وبدأت بوادر انتشار ممارسة رأسمالية جديدة وهي الرأسمالية التجارية Mercantilisme.

ولم يكن حينها النظام المحاسبي ليكتمل. غير أن الدراسات التاريخية في علم المحاسبة تدل على أن تجار البندقية ، هم أول من استخدم إقفالاً شكلياً للحسابات. وتظهر حسابات التاجر البندقي سورانزو Soranzo عن الأعوام (١٤٠٦-١٤٣٢) إقفالاً بتوسط حساب الأرباح والخسائر ، وأحياناً بتوسط حساب رأس المال ، وذلك لتحديد أرباح وخسائر صفقات معينة. وتسمى طريقة تحديد نتيجة كل صفقة بمحاسبة الصفقات (١١).

فلم تكن الدورة المحاسبية محددة بزمان معين ، بل كانت مستمرة ولم يكن من الضروري لإقفالها. كما ظهر مفهوم رأس المال بشكل منفصل عن مفهوم الربح والخسارة ، و تحدد مفهوم الإيراد والمصروف ، ليسمى ككل: نظام مساك الدفاتر لإمارة فينيسيا. كما أنتشرت مدارس لتعليم هذا النظام ، وتأسس بعد ذلك في عام ١٥٨١ أول معهد للمحاسبة في المدينة نفسها.

ولعل من أهم الظروف التي أقامت الفرصة للتفكير في القيد المزدوج في ذلك الوقت ، سواء في فلورنسا أو فينيسيا ، هي قيام شركات الأشخاص في شكل شركات محاصة وشركات تضامن. حيث ظهرت الحاجة إلى فكرة الوحدة المحاسبية وعملية حساب الأرباح على العمليات التجارية حتى يتحدد لكل شريك نصيبه فيها.

(٢) أهداف المحاسبة وإمساك الدفاتر في

مراحلها الأولى

حدد هندركسون (١٢) أربع خصائص مميزة لإمساك الدفاتر على أساس القيد المزدوج في الفترة السابقة على بداية القرن السادس عشر كالآتي:

١- كان الهدف من المحاسبة في تلك الفترة هو إمداد المالك بالبيانات التي توضح أصوله والتزاماته. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت تستخدم البيانات المحاسبية كأساس لمنح الائتمان وكوسيلة لتحديد الشركاء. وقد ترتب على ذلك أن الحسابات كانت تعد من أسرار التاجر الخاصة ولم يتوفر أي ضغط خارجي يلزم بالتحقق من صحتها أو من إمساكها وإعدادها طبقاً لقواعد محددة.

٢- لم يكن للوحدة المحاسبية حدوداً واضحة ، فكثيراً ما كانت الحسابات تظهر العمليات الخاصة بالمالك بالإضافة إلى عملياته التجارية. فقد ذكر هندركسون نقلاً عن بسيولي (Pacioli) على سبيل المثال أن المخزون كان يشتمل على النقدية والأشياء الثمينة ، والملابس ، والسلع المنزلية وكل الممتلكات التي تقع

وتجدر الإشارة هنا إلى أن للكتاب الأمريكيين مثل "سبراغ" Sprague و"هاتفيلد" Hatfield و"كستر" Kester فضل السبق في نشر تعليم هذه الأسس الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن العشرين ، مع أن جذورها ترجع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر^(١٨).

وبالرغم من انتشار أساس الملكية كخلفية منطقية لإمسك الدفاتر في الولايات المتحدة وبعض دول أوروبا في الربع الأول من القرن العشرين إلا أنه لم يظهر في الكتابات الإنجليزية والبلدان الأوربية الأخرى ، إلا مع نهاية النصف الأول من القرن تقريباً.

(٣) الوحدة الاقتصادية وفرضية استقلال الوحدة المحاسبية

أدت التطورات الاقتصادية في القرن العشرين وخاصة في مجال التنظيم القانوني للشركات ، إلى قيام شركات المساهمة. والمعروف عن هذا النوع من المنظمات هو انفصال ملكية الشركة عن الإدارة السيرة. فلم يعد المساهم ، الذي يمكن أن تختلف حقوقه طبقاً لنوع الأسهم التي يمتلكها ، مالكا مباشراً لأصول الشركة بالمعنى التقليدي. كما تعددت مصادر التمويل التي يمكن للشركة الحصول منها على رأس المال اللازم لمزاولة نشاطها بخلاف الحصص والأسهم المكونة لرأس مال الاجتماعي.

وتقوم فرضية الوحدة المحاسبية على أن المؤسسة لها شخصيتها المعنوية المستقلة تماماً عن شخصية ملاك رأس المال. فالمؤسسة ، بهذا المفهوم ، تزاوّل نشاطها باستقلال تام عن نشاط المساهمين فيها. وقد ترتب على ذلك أن معادلة الميزانية الرئيسية أصبحت تمثل تعادل الأصول مع الخصوم ، بصرف النظر عن مكونات كل منهما. حيث تتكون الأصول من الموارد التي تتاح للوحدة المحاسبية ، أي المؤسسة ، للاستخدام في مزاولة أوجه نشاطاتها المختلفة. أما الخصوم فهي الالتزامات وحقوق الغير في هذه الموارد ، سواء كان هذا الغير يمثل أصحاب رأس المال وهم الملاك المساهمون ، أو المقرضين من البنوك والأفراد ، أو الدائنين من مختلف الذمم كالموردين والعمال ومصالح الضرائب وغيرهم. ومن ثم ، أصبح هدف المحاسبة هو تسجيل أنشطة المؤسسة فيما يختص باستخدام الموارد المتاحة لها واستغلالها بصرف النظر عن من ساهم في تقديمها لها ، وتقرير نتائج هذه الأنشطة لمن يهمه الأمر داخلها وخارجها. أما نتيجة النشاط في ظل أساس الوحدة المحاسبية فهي الفرق بين الإيرادات والمصاريف.

غير أن هناك من يرى^(١٩) أن فرضية الوحدة المحاسبية ظهرت في الكتابات المحاسبية كأساس للقيد المزدوج المحاسبية في إيطاليا سنة ١٨٣٨ وفي إنجلترا سنة ١٨٦٩ وفي الولايات المتحدة سنة ١٨٧٣ أي قبل ظهور شركات المساهمة. كما أن فضل تطور فرضية الوحدة المحاسبية في بداية القرن العشرين يرجع للكتاب الألمان^{٢٠} في الوقت التي كانت فيه الكتابات الأمريكية تتأثر إلى حد كبير بأساس حقوق الملكية وفرضية الوحدة المحاسبية بصورة مختلطة ، بحيث يصعب التمييز بين طرق العرض التي تقوم على أساس حقوق الملكية وتلك التي تقوم على فرضية الوحدة المحاسبية.

ونستنتج مما تقدم ، أن المحاسبة في بداية تطورها لم تكن إلا أداة تذكيرية بالعمليات التي يقوم بها التاجر وسجل لحقوقه على الغير وما عليه للدائنين. كما تركز الإهتمام ، بعد ذلك ، أساساً على شرح و تبرير

مراحل تطور إمساك الدفاتر على أساس القيد المزدوج ، كما تم استخدام نفس الأسلوب فيما بعد العناصر الإيرادات والمصاريف. ولم يكن إضفاء الشخصية المعنوية على الحسابات خلال هذه الفترة يمارس على نفس الأسس من قبل. ففي بعض الكتابات كان يفترض أن كل حساب من الحسابات له شخصيته المعنوية المستقلة بصرف النظر عن طبيعته. وفي أحيان أخرى كان يفترض أن الحسابات تمثل مالك المؤسسة ، كما أنه في بعض الأحيان كانت الحسابات تعامل كأفراد مسؤولين قبل صاحب المؤسسة ، وفي هذه الحالة يفترض أن حساب رأس المال هو شخص حقيقي يستخدم بمعرفة المالك لإدارة شؤون ثروته ولتقرير ما يطرأ عليها من تغيرات نتيجة هذه الإدارة ، و تكون النقدية أو المخزون أو أي حساب من حسابات الأصول بمثابة أشخاص مستخدمين بمعرفة رأس المال ليكون كل منهم مسؤول عن ذلك الجزء الذي يتمثل فيه من الثروة^(٢١).

وقد كان لهذا الاتجاه في تفسير القيد المزدوج على أساس إفتراض الشخصية المعنوية المستقلة للحسابات كبير الأثر في إعاقه المحاسبة عن تطوير أهدافها ووظائفها بصورة مجدية على مدار هذه الفترة. ذلك لأنه أدى إلى إحلال القواعد التفصيلية الصماء والتي تستند إلى إفتراضات ليس لها مبرر منطقي محل المنطق العلمي السليم^(٢٢). ولذلك فقد تميزت الكتابات المحاسبية قبل القرن التاسع عشر بعرضها لإمسك الدفاتر عن طريق التركيز على دفتر اليومية كأهم السجلات والعمود الفقري لنظام القيد المزدوج. وكانت النتيجة أن فشل هؤلاء الكتاب في التصور الشامل لعلاقة الحسابات بعضها ببعض الآخر كما تظهر في دفتر الأستاذ مثلاً. كما لم يوجه الكتاب والمحاسبين عناية كافية للحسابات والقوائم المالية الختامية. وقد كان تعليم المحاسبة في نظريهم ينطوي على مجرد قائمة طويلة من القواعد إذا ما حفظها الطالب كان قادراً على إعداد قيود اليومية^(٢٣).

- الفترة الثالثة: وتمتد هذه المرحلة من بدايات القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين

وهي الفترة التي نشأت فيها فكرة حقوق أو أساس الملكية كمحاولة لإيجاد خلفية منطقية قادرة على تفسير إمساك الدفاتر على أساس القيد المزدوج. ويقوم أساس الملكية على أن مالك المؤسسة ، يمثل ثقل التوازن اللازم لمعادلة القيد المزدوج. فلاصول تمثل الأشياء المملوكة للمالك والحقوق التي تعود له. أما الالتزامات فتتمثل مديونيات المالك وحقوق الغير عليه. وعليه فإن الفرق بين الأصول والالتزامات يمثل حقوق المالك. كما أن أساس حقوق الملكية ينظر لعناصر الإيرادات والمصاريف على أنها عوامل تؤدي إلى حدوث تغيرات في حقوق الملكية نفسها.

ومن ثم ، فقد أصبح هيكل النظام المحاسبي والقيد المزدوج مبنياً على أساس التوازن الرياضي لمعادلة المحاسبة أو معادلة الميزانية ، بدلاً من قيامه على أساس دفتر اليومية كمحور الاهتمام الرئيسي كما كان. وترتب على ذلك أن التغيرات التي تحدث في حقوق الملكية يتم تحليلها أولاً كمتغيرات مؤدية إلى زيادة العناصر المكونة لمعادلة الميزانية أو نقصها قبل ترجمتها إلى طرفيها المدين والدائن ، وذلك بالتركيز على ما يحدث في حسابات الأستاذ والتي تتكون منها في النهاية معادلة الميزانية. أما دفتر اليومية فأصبح مجرد أداة لتسهيل وتنظيم إجراءات تسجيل العمليات المختلفة التي تقوم بها المؤسسة.

وإذا كان الهدف المحاسبي هو تحديد وقياس وإيصال المعلومات المالية، الناتجة عن إجراءات تكون المؤسسة طرفاً فيها لكي تعين أصحاب العلاقة على التصرف في ظل رؤية واضحة، فمعايير المحاسبة إذن، هي بيان للطريقة التي تتم بها معالجة مفردات القوائم المالية (الميزانية أو قائمة المركز المالي، وجدول النتائج أو جدول الأرباح والخسائر أو قائمة الدخل) بشكل يؤدي إلى تجانس المعالجة بسجلات وقوائم الوحدات الاقتصادية التي تظهر بها مثل هذه البنود. ونبدأ بتعريف عام وموجز لأهم المبادئ والمفاهيم والفرضيات المحاسبية، وهي الدعائم الأساسية للهيكل العام للفكر المحاسبي المعاصر، ثم نعدد بعد ذلك أهم المعايير الدولية.

A- المبادئ والفرضيات Principales and Assumptions

- ١ - الوحدة الاقتصادية Business entity
- ٢ - الاستقرار أو الاستمرار Going concern
- ٣ - الفترة المحاسبية Time periodicity
- ٤ - الوحدة النقدية ثابتة القيمة محاسبياً
- ٥ - التكلفة التاريخية Historique cost
- ٦ - تحقق الدخل Income realization
- ٧ - المقابلة Matching
- ٨ - الاستحقاق Accrual
- ٩ - الإفصاح التام Adequate Disclosure
- ١٠ - الثبات و القابلية للمقارنة Consistency and comparability
- ١١ - الأهمية النسبية Relative significance
- ١٢ - الحيطة والحذر Conservatism and prudence
- ١٣ - الملائمة Relevancy
- ١٤ - الثقة في المعلومات Reliability

١. **مبدأ الوحدة الاقتصادية:** تعتبر المؤسسة محاسبياً جهة مستقلة عن مالكيها أو المساهمين فيها أو عن المؤسسات الأخرى، حتى يمكن حصر ممتلكاتها وتحديد التزاماتها ومعرفة نتيجة أعمالها خلال فترة زمنية محددة.
٢. **فرضية الاستقرار:** أي أن المحاسبة المالية تتم في ظل تصور بأن المؤسسة قائمة ومستمرة في الزمن.
٣. **مبدأ الفترة المحاسبية:** لقد تم اختيار السنة (١٢ شهراً) كوحدة زمنية لقياس دخل المؤسسة خلالها، وذلك باعتبار أن السنة هي الوحدة الزمنية التي تمر فيها المؤسسة بدورة اقتصادية كاملة. وتحمل على السنة، بناء على ذلك، الإيرادات والمصاريف الخاصة بها.
٤. **فرضية الوحدة النقدية ثابتة القيمة محاسبياً:** تستخدم المحاسبة الوحدة النقدية كأساس للقياس. ولما كان يشترط ثبات المقياس حتى يكون صالحاً لقياس القيمة، إقتضت الضرورة فرضية ثبات الوحدة النقدية المستخدمة للقياس.
٥. **مبدأ التكلفة التاريخية:** ويقصد بها التكلفة الفعلية في حينها التي قدمتها المؤسسات من أجل الحصول على الأصل (ثابت أو متداول)، ويترتب على تطبيق هذا المبدأ في المحاسبة تحقيق الموضوعية الذي من شأنه أن يؤدي إلى الزيادة في الثقة في المعلومات المحاسبية.
٦. **مبدأ تحقق الدخل:** لا تعترف المؤسسة بالدخل وتسجله

ميكانيكية وتقنية القيد المزدوج والبحث عن الخلفية التي يمكن أن تساعد على ذلك. فلم تكن المحاسبة، حينئذ، تهدف إلى قياس ثروة الوحدة المحاسبية أو قياس ما يطرأ عليها من تغيرات نتيجة تدفق الإيرادات وإستنفاد الخدمات المختلفة التي صرفت من أجل جلب هذه الثروة. ولم تبدأ المحاسبة في توسيع نظرتها العامة إلا عندما نشأت فكرة حقوق الملكية كأساس منطقي للقيد المزدوج في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وبناءً على هذا الأساس، بدأت المحاسبة، عملياً، بقياس ثروة المالك وما يطرأ عليها من تغيرات. فالقياس، كان وما زال إلى حد كبير حتى في زمننا هذا، يقوم على أساس التسجيل التاريخي للعمليات التي تقوم بها المؤسسة ثم تحديد أثر هذه العمليات تاريخياً على حقوق ملكية المالك في نهاية الفترة المحاسبية.

أما فرضية استقلال الوحدة المحاسبية فقد بدأت تتأثر بها الكتابات المحاسبية منذ العشرية الأولى من القرن العشرين، حيث نشأت في بداياتها كإطار نظري منطقي وملائم لتبرير إمساك الدفاتر على أساس القيد المزدوج، وأصبحت بعد ذلك منطلقاً ملائماً لأهداف القياس المحاسبي.

وبما أن قياس الثروة ينطوي على فرضية إستقلال الوحدة المحاسبية، فإن الهدف من القياس، في هذا الصدد، هو قياس القيمة الاقتصادية لعناصر الثروة التي تتصرف فيها الوحدة المحاسبية والمتاحة لاستغلالها في عملياتها الإنتاجية وأنشطتها الاقتصادية بصرف النظر عن المالك الفعلي لهذه العناصر. ويستوي في هذه الحالة المساهمون والدائنون وكل من لهم حقوق على هذه الثروة. وبهذا المنطق، أصبحت فرضية إستقلال الوحدة المحاسبية ضرورة لتوضيح مضمون الثروة وحدود قياسها وليس أداة لتبرير منطق القيد المزدوج وإمساك الدفاتر.

لقد شكل أساس حقوق الملكية وفرضية إستقلال الوحدة المحاسبية طفرة في تطور الفكر المحاسبي وتنظيره، ووفرا الخلفية الملائمة ضمنها لما يجب أن تكون عليه أهداف المحاسبة وما يجب أن تتطور إليه وظائفها بحيث تصبح قادرة على تحقيق هذه الأهداف. وكانت هذه الفرضيات، جميعها، مهداً وقاعدة للوصول إلى نظرة شمولية "متعارف عليها ومقبولة قبولاً عاماً" لها يمكن أن يتحقق عن المحاسبة من أهداف وما يلزم لذلك من معايير وأسس ومبادئ عامة في زمننا المعاصر.

(٤) الهيكل العام للفكر المحاسبي المعاصر

قبل استعراض القواعد والمبادئ والمفاهيم التي تشكل الهيكل العام للمحاسبة وللفكر المحاسبي المعاصر، لا بأس من التذكير بأن العملية المحاسبية تتمثل في حصول الإجراء (البيع و الشراء) و توثيق الإجراء (إعداد الفاتورة أو شريط تسجيل المبيعات)، ثم تقييد الإجراء (في اليومية العامة أو اليومية المساعدة) و بعد التقييد يتم الترحيل للحسابات الخاصة في الأستاذ العام و سجلات الأستاذ الأخرى، ثم تأتي المرحلة الأخيرة من مراحل العملية المحاسبية وهي إعداد التقارير المالية من واقع ما سجل في سجلات الأستاذ^(٢١) أي أن العملية باختصار تحديد الحدث ثم توثيقه ثم تقييده ثم ترحيله ثم توصيله إلى من يهمه الأمر في تقارير نهائية ملائمة ومناسبة.

B- معايير المحاسبة الدولية

International Accounting Standards (IAS)

أصبح للمحاسبة في هذا العصر دور ومكانة وأهمية في كل المجتمعات ، وخاصة في المجتمعات والدول المتطورة. فقد أفردت لها دراسات متخصصة في الجامعات والمدارس والكلية العلمية لتدريس أصولها وقواعدها ونظرياتها. كما أسست لها جمعيات مهنية محلية تحرص على تطوير مستوى الكفاءة والممارسة والسلوك المهني بين أعضائها ، وحماية سمعة المهنة سواء فيما يتعلق بالممارسة المهنية أو الخدمة في مختلف المجالات الاقتصادية.

وتختلف تقنيات المحاسبة عن غيرها من التقنيات من حيث أصولها وقواعدها. فالمحاسبة علم اصطلاحي ، غرضه قياس الوضع المالي ونتائج العمليات للنشاط الاقتصادي في إطار " الأصول المحاسبية المتعارف عليها ".

وتعبر معايير أو أصول المحاسبة المتعارف عليها ، تعبير فني مصطلح عليه عند المحاسبين يشمل كل ما هو متفق على أنه مقبول في الممارسة المحاسبية المتبعة في زمن معين. وإلى أمد قريب ، كانت الخبرة والعادة والضرورة العلمية ، هي التي تقرر نوع المعالجة للمشاكل التي تطرأ على هذه الممارسة. وقد تبنت الشركات والمؤسسات هذه المعايير ، غير أن هذا التبنّي لم يكن ليصل محل إجماع. ولم يكن ، حينها ، على المحاسبين والمراجعين أو المدققين سوى إقرار الطرق والمعالجة المحاسبية المطبقة من طرف هذه الشركات.

ولقد ساهمت هيئات وجمعيات مهنية تهتم بالممارسة المحاسبية ، فضلاً عن هيئات علمية أكاديمية ، كالجمعية الأمريكية للمحاسبة^(٢٢) ، في تطوير وإرساء قواعد ومعايير أكثر انسجاماً وتوفيقاً وموضوعية. فمنذ بداية الستينيات ، طرح المهتمون بالشؤون المالية والاقتصادية في الدول الصناعية تساؤلات عديدة حول دور المحاسبة في النشاط الاقتصادي ودور المحاسبين في المجتمع ككل. ونشطت الجمعيات والمعاهد المحاسبية المهنية في هذه الدول ، وتشكلت لجان خاصة من ذوي العلم والخبرة للبحث وتحديد ووضع قواعد عامة ومعايير محاسبة تكون أساساً للأحكام المحاسبية المتفرقة. فقام علماء وخبراء في المحاسبة بدراسات محاسبية مقارنة بين البلدان الصناعية ، للاستفادة من الخبرات المتوفرة فيها.

ولم يكن وضع معايير عامة تحكم مهنة المحاسبة أمراً كما يبدو سهلاً ، وبقي التوفيق صعباً بين المعالجات المحاسبية الموجودة المتباينة والمتضاربة ، أحياناً ، في هذه البلدان. ونظراً للحاجة إلى معايير عالمية محاسبية موحدة تكون أساساً لتحديد وقياس الأحداث المالية للوحدة الاقتصادية ، وإيصال نتائج القياس إلى مستخدمي القوائم المالية بالطريقة المناسبة والسليمة للقياس حتى يتسنى لها اتخاذ القرار المناسب ، بدأ الإهتمام بمعايير المحاسبة الدولية في بدايات السبعينيات من القرن الماضي وذلك لأسباب عديدة أهمها:

- زيادة في حجم المعاملات التجارية بين شركات الأعمال الدولية.
- تضاعف الاستثمارات بين مختلف الدول.
- تضاعف التضخم على المستوى الدولي.
- الحاجة للعمولات الأجنبية وتحديد سعر التبادل بين دول العالم والشركات الدولية.

في سجلاتها وتظهره في قوائمها المالية إلا بعد أن يتحقق فعلاً. ومقياس التحقق هو الدليل المادي ، وأن يتم من الإجراءات ما يجعل هذا الدخل أصلاً من أصول المؤسسة.

٧. **مبدأ المقابلة:** تقتضي هذه الفرضية أن يحمل إيراد كل فترة محاسبية ، كالمنتجات التامة أو قيد التصنيع مثلاً ، بالمصاريف التي ساهمت في جلب ذلك الإيراد أو تحقيقه.

٨. **مبدأ الاستحقاق:** تتم المحاسبة للإجراءات المالية التي صاحبها تدفقات نقدية ، أي ذات أساس نقدي. كما تتم كذلك للإجراءات المالية الفعلية التي لم يصحبها تدفق نقدي ، أي أساسها الاستحقاق والدين. وتطبيقاً لهذا الفرضية ، فإن الإيرادات تسجل ولو لم يتم قبضها ، كما تسجل المصاريف عند تحققها ولو لم تسدد نقداً. وتعد فرضية الاستحقاق والمقابلة من المعايير الأساسية التي يحكم في ضوءها على عدالة تمثيل القوائم المالية لحساب الأرباح والخسائر والميزانية الختامية.

٩. **مبدأ الإفصاح التام:** يجب أن تشمل التقارير المالية وملحقاتها كافة المعلومات التي تمكن مستعملها من الإعتقاد بأن القوائم المالية تمثل بعدالة دخل المؤسسة ومركزها المالي ومصادر واستخدامات الأموال فيها.

١٠. **مبدأ الثبات والمقارنة:** أي الثبات في استخدام السياسات المحاسبية كطريقة حساب إهلاك الأصول الثابتة مثلاً. من أهم الصفات النوعية للقوائم المالية أن تكون قابلة للمقارنة مع غيرها من القوائم المالية للسنوات الماضية أو مع قوائم المؤسسات المماثلة ، وهذا يقتضي توفر أساس واحد لإيجاد وعرض المعلومات حتى تكون الموضوعية عند المقارنة.

١١. **مبدأ الأهمية النسبية:** تقتضي هذه الفرضية بالسماح للوحدة الاقتصادية العدول ، ولو مؤقتاً وللضرورة و في ظروف معينة ، عن التطبيق حرفياً للمعايير المحاسبة المعروفة ، إذا قدرت الأهمية النسبية لعملية ما ، وإذا كانت هذه الإجراءات المحاسبية لا تؤثر تأثيراً ملحوظاً على عدالة وموضوعية القوائم المالية.

١٢. **مبدأ الحيطة والحذر:** يتطلب من المؤسسة جانب الحيطة والحذر في تقدير الأصول والإيرادات المحتملة بأقل قيمة ، وتقدير المصاريف والديون المستقبلية بأعلى قيمة.

١٣. **مبدأ الملاءمة:** لا بد أن تكون المعلومات المالية التي تظهر في القوائم المالية مناسبة في الزمن وذات علاقة بمن يستعمل هذه المعلومات وبما يتخذه أصحاب القرار.

١٤. **الثقة في المعلومات:** يجب أن تتصف المعلومات المالية بالثقة والموضوعية وبصحة القياس ، فتكون خالية من أي دليل أو إشارة للتخيز والذاتية.

ولإيصال نتائج القياس إلى مستخدمي القوائم المالية بالطريقة المناسبة والسليمة للقياس ، مع احترام جميع المبادئ والفرضيات المتعارف عليها ، حتى يتسنى لها اتخاذ القرار المناسب ، بدأ الإهتمام بمعايير موحدة يمكن الاستناد إليها ، مما دعي إلى التفكير في إعداد معايير محاسبية دولية.

الأشخاص والممتلكات بالتوثيق والتسجيل والتقرير ، لم يتم إبداءها في زمن معين وفي تاريخ أو في حضارة بعينها ، بل تطورت ونمت عبر مختلف الأزمان والحضارات الإنسانية.

ولا يمكن للتاريخ أن ينفي دور إمارة صقلية وإمارة فلورنسا وإمارة فينيسيا في إيطاليا في بدايات النهضة العلمية والفكرية لأوروبا في نشوء وتنمية وتطوير فكرة وقاعدة القيد المزدوج التي أسست للتقنية والعلوم المحاسبية الحديثة. غير أن العدالة التاريخية تقتضي كذلك ذكر جميع من كان له إسهام في أي مجال معرفي معين. ومن هنا عرفنا أن الممارسة المحاسبية كانت ، وفي كل الحضارات وبمختلف مسمياتها وطرق أدائها وأهدافها ، حاضرة في كل زمان ومكان.

ولم تكن أوروبا وإيطاليا وإماراتها المزدهرة في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي لتصل إلى ما وصلت إليه من ازدهار ورقي مادي ومعرفي ، وخاصة في مجال الممارسة المحاسبية ، لولا اتصالها بالدول العربية والإسلامية ، أين كانت العلوم والمعارف في هذه الحضارة ، ومنها كما رأينا ، العلوم الحسابة والمحاسبية المتطورة في زمنها ، تشع نوراً لجميع المعمورة.

لقد كان لفكرة القيد المزدوج أكبر الأثر على تطور ونمو الممارسة المحاسبية الحديثة. فبعد أن بدأ المهتمون والكتاب في المراحل الأولى بتوصيف آلية القيد المزدوج والميكانيكية التي يبنين عليها ، راح غيرهم ، بعد ذلك ، يتحول إلى خلفية القيد المزدوج. وضلت الأفكار والعلوم المحاسبية تنمو وتتطور عبر الزمن ، بدءاً بإضفاء الشخصية المعنوية على كل الحسابات والعمليات ، إلى أن نشأت فكرة حقوق الملكية. وأخيراً ، وبعد قيام شركات المساهمة المبنية على انفصال ملكيتها عن الإدارة المسيرة ، وتعددت مصادر التمويل ، نمت فرضية الوحدة المحاسبية والشخصية المعنوية والمستقلة عن نشاط المساهمين فيها ، فأصبحت معادلة الميزانية الرئيسية تمثل تعادل الأصول مع الخصوم ، بصرف النظر عن مكوناتها.

إن البناء الفكري والخلفية المنطقية للمحاسبة والقوائم المالية ، سواء سميت فرضية Assumption أو أساساً Foundation أو غيرها من المصطلحات ، هي عبارة عن مقدمات علمية تمثل في مجموعة من الحقائق المعروفة بالفعل ، أو تمثل نتائج بحث مقبولة عموماً لتصبح متعارف عليها ، بحيث تساعد على تفسير وتحليل المبادئ العلمية المطبقة في الحياة العملية أو تساعد على تطويرها وتحسينها.

وعموماً يمكن تقسيم الفرضيات المحاسبية إلى نوعين رئيسيين تندرج منها عدة فرضيات فرعية.

- فرضيات تتعلق بوجود الوحدة المحاسبية نفسها.

- فرضيات تتعلق بوجود مجموعة من العمليات المالية المتبادلة داخلها ومع غيرها.

وقد تطورت الفرضيات المحاسبية منذ منتصف القرن السادس عشر وشكلت نقطة بداية للوصول إلى المبادئ المحاسبية المتعارف عليها والمقبولة قبولاً عاماً ، والتي أصبحت في نفس الوقت دعائم تركز عليها النظرية المحاسبية الحديثة.

لقد أصبحت تقنية ومهنة المحاسبة كغيرها من التقنيات الأخرى تركز على معايير ومبادئ وممارسة وأخلاقيات متعارف عليها دولياً ، حيث يمكن الرجوع إليها والوقوف عليها عند الحاجة ، والتقيد بها للحد من الاجتهادات وتعدد المعالجات للموضوع الواحد.

- ظهور المنظمات المحاسبية والدولية في عملية إشراكها في المحاسبة الدولية.

ولهذه الأسباب وغيرها بدأ الاهتمام بالمحاسبة الدولية التي بدأت بدراسة الفرضيات والمفاهيم والأسس والقواعد المحاسبية المطبقة في الدول المختلفة والتحرري عن أسباب اختلافها. ثم بدأ التنسيق ، بعد ذلك ، بين الدول المختلفة والهيئات المعنية بالتأسيس للمعايير.

والمعيار في اللغة هو النموذج Standard ، يقاس على ضوئه وزن الأشياء أو طولها أو درجة جودتها. أما في المحاسبة فتعني القاعدة المحاسبية ، ويقصد بها المرشد الأساسي لقياس العمليات والأحداث والظروف التي تؤثر على المركز المالي للوحدة الاقتصادية ونتائج أعمالها وإيصال المعلومات إلى المستفيدين من هذه المعلومات. فالمعيار المحاسبي بهذا المعنى يتعلق عادة بعنصر محدد من عناصر القوائم المالية أو بنوع معين من أنواع العمليات أو الأحداث أو الظروف التي تؤثر على المركز المالي للوحدة الاقتصادية ونتائج أعمالها ، مثل الأصول الثابتة ، البضاعة أو غيرها .

وقد عرفت لجنة القواعد الدولية التابعة للهيئة الدولية للمعايير المحاسبية القاعدة المحاسبية بأنها قواعد إرشادية يرجع إليها المهنيون لدعم اجتهادهم واستلهم حكمتهم ، ولكنها لا تلغي الحكمة أو الاجتهاد أبداً ، كما أنها وصف مهني رفيع المستوى للممارسات المهنية المقبولة قبولاً عاماً ، كما تهدف إلى تقليل درجة الاختلاف في التعبير أو الممارسة في الظروف المتشابهة ، وتعتمد كإطار عام لتقييم نوعية وكفاءة العمل الفني ولتحديد طبيعة وعمق المسؤولية المهنية^(٢٣).

تأسست لجنة معايير المحاسبة الدولية (IASB) في ٢٩ جوان - يونيو ١٩٧٣ على يد الهيئات المهنية المحاسبية الرائدة في عشر دول وهي: الولايات المتحدة الأمريكية ، المملكة المتحدة ، أستراليا ، وكندا ، فرنسا ، ألمانيا ، اليابان ، المكسيك ، هولندا ، إيرلندا. وتمثل اللجنة في الوقت الحاضر أكثر من ١٠٠ جمعية محاسبية مهنية من أكثر من ٨٠ دولة. وهي هيئة مستقلة عهدت إليها مسؤولية وسلطة إصدار معايير محاسبية دولية. أما أهداف لجنة معايير المحاسبة الدولية الرئيسة فهي:

١- تطوير وتعزيز تقنية محاسبية مترابطة وذات أصول منسقة ومعروفة ومحددة.

٢- صياغة ونشر المعايير المحاسبية التي ينبغي مراعاتها لما فيه المصلحة العامة عند عرض البيانات المالية والسعي لجعلها مقبولة ومعمولاً بها على المستوى الدولي.

٣- العمل على تحسين الأنظمة والمبادئ المحاسبية لعرض البيانات المالية والسعي لإقناع الحكومات وأسواق المال والأوراق المالية والأوساط التجارية والدولية لتطبيق هذه المبادئ.

٤- توثيق العلاقة والتعاون بينها وبين الاتحادات المهنية المحاسبية الوطنية والدولية كالإتحاد الدولي للمحاسبين (IFAC) والهيئات الدولية التي تمثل المؤسسات المالية ، وأسواق الأوراق المالية ، والمنظمات الأممية التي تهتم بالمالية والمحاسبة ، ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية والبنك الدولي.

الخاتمة

بعد هذه الإطلالة السريعة والمختصرة على المراحل التي مرت عليها الممارسة المحاسبية ، نستنتج أن المحاسبة ، كفكرة وضرورة حسابية وأداة تذكيرية للأحداث التجارية والحفاظ على ممتلكات

١٦- نفس المرجع ، ص ١٣٤

١٧- نفس المرجع ، ص ١٣٤

Of Investment, 1906 / H.R.Hatfield, Modern Accounting, 1909 / R.B.Kester.Accounting Theory

18- The Accountancy C.E. Sprague, And Practice,1917

19- A.C. Littleton ,Accounting Evolution To 1900,New York, American Institute Publishing Co,1933, Pp 193- 200, In Hendriksen.Op, Cit.

٢٠- دراسات في تطور الفكر المحاسبي ، مرجع سابق ، ص ١٣٧

٢١- عبد الله محمد الفيصل ، المحاسبة. مبادئها وأسسها ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٣ ، دار الخريجي للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة السعودية ، ابتداءً من ص ٤ وبتصرف.

٢٢- (AAA) Accounting American Association وهي هيئة علمية أكاديمية تهتم بالمحاسبة من الناحية النظرية وكانت تسمى من قبل جمعية مدرسي المحاسبة الأمريكية.

23 - Iasc, site web

المراجع الأساسية:

- عبد الله محمد الفيصل ، المحاسبة. مبادئها وأسسها ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٣ ، دار الخريجي للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية.
- دراسات في تطور الفكر المحاسبي ، عبد الحي مرعي ومحمد سمير صبان ، الدار الجامعية ، ١٩٩٠.
- ماكليش جون ، من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر ، ترجمة خضر الأحمد وموفق دعبول ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٥١ الكويت.
- رضوان حلوة حنان ، بدايات نشوء علم المحاسبة في إيطاليا ، مجلة المجمع العربي للمحاسبين القانونيين ، العدد ١١٧.
- سامر مظهر قطنجي ، دور الحضارة الإسلامية في تطوير أدوات المحاسبة (www.Katankji.com).
- الهيئة السعودية للمحاسبين المهنيين (www.socpa.org.sa).
- هيئة معايير المحاسبة الدولية (www.iasb.org).
- Eldon. S. Hendrickson. Accounting Theory, Homewood. Ill. Richard D. Irving, 1965

إن الإطار الفكري لنظرية المحاسبة المعاصرة يتكون من أهداف التقرير المالي والخصائص النوعية للمعلومات المحاسبية ومن مفاهيم وعناصر القوائم المالية. فالفرضيات المحاسبية هي المسلمات الفكرية التي يعتمد عليها علم المحاسبة ، وبناءً عليها وعلى درجة الثقة فيها يتم التوصل إلى المبادئ المحاسبية ، والتي بدورها باتت أحكاماً عامة يعتمد عليها للاختيار فيما بين بدائل التطبيق العملي ، أي أنها تمثل المرجع الذي يُحتكم إليه لحسم أي خلاف قد ينشأ في ميدان العلوم المحاسبية.

إن صلاحية أي نظرية مرتبطة بصلاحية فرضياتها التي تحدّد بمدى فاعليتها في مواجهة مشاكل الواقع ، أي اليوم والمستقبل القريب. ولذلك فهي لم ولن تكون ثابتة ، وهي دائماً في انتظار نظريات أفضل تحل محلها في المستقبل حسب ظروف الحال ، لأن البيئة المحاسبية ، كما نعلم ، تأثر تأثيراً مباشراً على أهداف المحاسبة وعلى المبادئ والقواعد التي يمكن استخلاصها منها.

الهوامش:

1-Luca Pacioli , Essumma de arithmetica geometria proportion et proportionalita

مراجعة عامة في الحساب ، الجبر ، الهندسة ، والنسبة والتناسب- و الكتاب مخصص أصلاً للرياضيات ، يحتوي في قسم منه على وصف إمساك الدفاتر على أساس القيد المزدوج.

٢ - كانت تسمى في الحضارة الإسلامية بكتابة الأموال وعلم الكسب ومسميات عديدة أخرى

٣- الأرقام الهندية: ١٢٣٣٥٢٧٨٩ ، الأرقام الهندية المنقحة (العربية): ٢ ١ ٠ ٤ ٣ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ حيث تحسب القيمة حسب مراتب الأرقام.

٤- الخوارزمي: عالم الرياضيات والفلسفة وعلوم أخرى ٦٠-١٣٢ هـ - ٦٩٠ م ٧٥٠

٥ - السعر = عدد الوحدات بالكمية × عدد الوحدات بالمال

٦ - سامر مظهر قطنجي ، دور الحضارة الإسلامية في تطوير أدوات المحاسبة www.katankji.com.

٧ - تم استخدام طرق مختلفة لمسك الدفاتر منذ سنة ٢٣٠٠ ق م بداية بالسمريين الذين استخدموا أقراص الطين التي نقشوا عليها البيانات وجففوها تحت أشعة الشمس ، ثم الرومانيون استخدموا الأخشاب المغطاة بالشع ، ثم المصريين القدماء والهنود الحمر استخدموا ورق البردي للتسجيل. واستبدل القماش والجلد بالورق في العصر الإسلامي.

٨- د. رضوان حلوة حنان ، بدايات نشوء علم المحاسبة في إيطاليا ، مجلة المجمع العربي للمحاسبين القانونيين ، الكويت العدد ١١٧

٩- ماكليش جون ، من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر ، ترجمة خضر الأحمد وموفق دعبول ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٥١

١٠- مثال: لكتابة الرقم ١٧ بالأرقام العربية تكتب XVII بالحروف الرومانية

١١- د. رضوان حلوة حنان ، مرجع سابق

12- Eldon. S. Hendrickson. Accounting Theory, Homewood.Ill.Richard D.Irving,1965,pp 18-19

من كتاب دراسات في تطور الفكر المحاسبي ، عبد الحي مرعي ومحمد سمير صبان ، الدار الجامعية ، مصر ، ١٩٩٠ ص ١٣١

١٣- دراسات في تطور الفكر المحاسبي ، عبد الحي مرعي ومحمد سمير صبان ، الدار الجامعية ، مصر ، ١٩٩٠ ، ص ١٣٢-١٤٠.

١٤- نفس المرجع ، ص ١٣٣

١٥- نفس المرجع ، ص ١٣٣

السّمك والتغذية



في المغرب الوسيط



ملخص

تحاول هذه المقالة تتبع مدى حضور التغذية السمكية عند المغاربة في العصر الوسيط ، وهل كان المغاربة بجميع فئاتهم يقبلون على تناول الأسماك ؟ أم أن الأمر كان مرتبطا بسكان السواحل ؟ وما هي أشهر الأطباق التي كانت تعد بها الوجبات السمكية ؟

مقدمة

ما تزال القلة تطبع بشكل حاد الأبحاث في مجال التغذية بالمغرب الوسيط ، وأن أغلب الدراسات التي حاولت الحفر في بعض ظواهر المجتمع ، لم تول هذا موضوع إلا اهتماما قليلاً ، ولم تعمل إلا على إثارتها دون البحث فيه أو إمالة اللثام عن بعض السلوكات الغذائية التي تميزت بها الأسر المغربية الوسيطة. ونعتقد أن شح المادة الذي ميز المصادر الوسيطة في هذا الصدد ربما حال دون ذلك ، إلا أننا لا نعدم بعض المحاولات الرائدة التي حاولت البحث في هذا الجانب ، ^(١) مبرزة بعض العادات التي ميزت المائدة المغربية الوسيطة.

وعلى هديها سنحاول البحث في هذا الموضوع ، مركزين كل التركيز على مدى حضور السمك -الحوت- ضمن الأنظمة الغذائية المغربية متسائلين إلى أي حد كان المغاربة يقبلون على تناول السمك سواء في المناطق الساحلية أو الداخلية ؟ وكيف كان يتم تهيئ مادته ؟ وما هي أنواع الأطباق السمكية المشهورة في هذه الفترة ؟ وكيف كان يتم نقله بعيداً عن الساحل ؟ وهل كان تناول الأسماك غذاء رئيسياً أم تكميلياً بالنسبة لسكان المغرب الوسيط ؟

الموقف الفقهي من مسألة تناول الأسماك

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات ارتأينا استحضار الموقف الفقهي وبعض الأحكام التي أصدرها بعض الفقهاء حول تناول الأغذية السمكية ، وهي أمور نعتقد أنها ضرورية لفهم إقبال أو عزوف المجتمع الإسلامي على إستهلاك هذا المنتج البحري ، ونشير إلى توفرنا في الأدب الديني على نصوص قرآنية وأحاديث صريحة في هذا الباب إلا أنها أثارت اختلافاً كبيراً بين الفقهاء والمحدثين في مستويات فهم النص وإنزاله منزلة التطبيق.

جاء في سورة المائدة الآية (٩٨) " أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ " ، وقال تعالى في سورة النحل الآية (١٤) " هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَتَأْكَلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ جَلِيَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " . فإذا كان ورود الآية الأولى تبياناً لما يمكن للمحرمين من الحجاج قصه وقت إحرامهم ، فإن الآية الثانية جاءت ببعض التفصيل لتفرق بينهما كان يستخرج من البحر لغرض الغذاء وما كان يجلب منه بغرض الزينة والتجميل ، مثل الأصداف والأحجار الكريمة واللؤلؤ.

وفي السنة النبوية نجد العديد من الأحاديث التي تعرضت لما يستخرج من البحر ، فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله (ص) قال: "أحللت لنا ميتتان الحوت والجراد" ^(٢) وعن سعيد بن سلمة أن أبا هريرة قال ، قال رسول الله (ص): البحر الطهور ماؤه الحل ميتته" ^(٣) .

د. الطاهر قدوري

شعبة التاريخ - كلية الآداب

جامعة وجدة

وجدة - المملكة المغربية

taharkaddouri@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

الطاهر قدوري ، السمك والتغذية في المغرب الوسيط - دورية كان التاريخية - العدد العاشر ؛ ديسمبر ٢٠١٠ ص.

ص ٥٩ - ٦٥ . (www.historicalkan.co.nr)



حضور السمك ضمن الأنظمة الغذائية

في المغرب الوسيط

من خلال مجموعة من الإشارات التي تتوفر عليها يتضح أن المغاربة من سكان السواحل خاصة وبعض المناطق الداخلية كانوا يقبلون على تناول الأسماك بطريقة مختلفة ، وإن كنا نسجل أن هذا الإقبال كان متفاوتا بين المناطق الساحلية وبين المناطق البعيدة عنها نسبيا ، ونلمس الاختلاف ذاته بين المناطق الساحلية نفسها والتي كانت لها عادات وتقاليد وثقافة استهلاكية خاصة فيما يتعلق بالثروة السمكية ، فإذا كانت بعض مناطق الغرب الإسلامي قد تعاملت مع السمك كغذاء مكمل مثل سبتة وسلا ومدن ساحلية أخرى ، فإن مدنا بحرية أخرى كان تناول السمك فيها غذاء رئيسيا ، فهذه مدينة تغسة^(١٨) كان الغذاء الرئيسي لسكانها — فقراء وأغنياء — ينحصر في خبز الشعير والبصل والسردين ، وحسب شهادة الوزان الذي أقام في المدينة ثلاثة أيام سجل "أن رائحة السردين تفوح من الجدران والأزقة"^(١٩).

لكن رغم التحفظ الذي يمكن أن نبديه بخصوص رواية الوزان التي لا تغطي كل المرحلة التي نحن مقيدون بها إلا أنها يمكن اتخاذها شهادة على مدى غلبة السمك في تغذية ساكنة بعض المناطق الساحلية ، اقتناعا منا بعدم تغير العادات الغذائية إلا قليلاً.

إن إقبال سكان السواحل المتوسطية على تناول السمك ، بشهادة العديد من الجغرافيين والمؤرخين كان إقبالا هاما ، فهذا صاحب الاستبصار يورد شهادة في غاية الأهمية حول تناول سكان سواحل إفريقية للسمك وخاصة سكان قابس الذين أشاد بنظامهم الغذائي فقال: "إنه ما اجتمع في مائدة رجل ثلاثة أشياء متضادة المواضع إلا في مائدة من يسكن قابس ، يجتمع فيها الحوت الطري ، ولحم الغزال الطري ، والرطب الجني"^(٢٠).

كان إعداد السمك وتناوله يتم في محلات خاصة ، بالأسواق التي يختلف الناس إليها ، ويجدون في أطباقه خير أكلة أعدت من قبل طبّاخين ماهرين قد احترقوا هذه المهنة مدة طويلة ، ونلمس من خلال ما أورده أحمد بن عبد الرؤوف في مصنفه نوعا من التجاوز الذي كان يقع فيه "القلالون"^(٢١) ، وهو ما نبه إليه المحتسب ليأخذ حذره منهم ، ويمنعهم من عدم المتاجرة إلا في الطري من السمك ولا يطبخوا إلا الجيد منه ، ويلزمهم بعدم خلط البائت من السمك بالطري^(٢٢) ، كما يحظر عليهم تمليح البائت منه لأن في ذلك مضرّة بالمستهلكين ، فلا يملحون إلا طريه ، ويحثهم على تنظيفه وتنقيته^(٢٣) . وإذا استعمال الزيت الجديدة "ولا يقلوه بزيت رديء ويجتنبوه وينهون عن كثرة الدقيق الذي يلث فيه الحوت عند القلي"^(٢٤).

وينهي "القلالون" على عدم غمس الحوت المقلي في الماء والملح بما يعرف بـ "الشرمولة" بغية تزيينه في أعين الناظرين لأن ذلك وإن كان يلقي استحسانا من قبل المستهلك الذي يجعل في ناظره السمك المقلي ، غير أن ذلك قد يتحول إلى تدليس عليه بما تسببه هذه الشرمولة من إقبال السمك في الميزان^(٢٥).

وبالإضافة إلى كل هذه النواهي التي وجب تذكير بائعي السمك بها ، فإنه حرصا منه على نظافة السوق ككل ، يعين لهؤلاء مكانا خاصا يتعاطون فيه لمهنتهم ، لأن اختلاطهم بباقي الحرف أو المحلات قد يسبب إزعاجا وضرا للمارة ولباقي التجار الذين يتأذون بتلك الروائح

إلا أن هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أثارت اختلافات عديدة بين المفسرين بصد ما يستخرج من البحر من أحياء أخرى دون السمك وأنواعه مثل دواب البحر التي لها أسماء أو صفات قريبة من الدواب البرية التي حرم أكلها وصيدها. فالمالكية يؤكدون أن ما وجب أكله من مستخرجات البحر هو السمك وأنواعه "وأما محل الصيد فإنهم أجمعوا على أن محله من الحيوان البحري وهو السمك وأصنافه"^(٤) مما يدفع إلى الاستنتاج أن الأنواع الأخرى من غير السمك لا يجوز أكلها ولهذا أيضا كان مالك يكره أكل خنزير الماء^(٥) ، وأساس الكراهية عنده هو الاسم الذي أطلق على هذه الدابة —الخنزير— أما الشافعي فلم ير بأسا من أكله^(٦) وقال الليث "ليس بميتة البحر بأس ، قال: كذلك كلب الماء وفرس الماء وقال: لا يؤكل إنسان الماء ولا خنزير الماء"^(٧).

إلا أن الفقهاء اختلفوا في صيد وأكل الحيوانات البرمائية ، لكنهم مالبثوا إلا قليلا حتى تجاوزوا المشكل وأخذوا بعين الاعتبار غالبية عيش الحيوان ، هل هو البر فيحسب من حيوانات البر ، أم البحر فيعد من حيواناته ، ويرى مالك أن "كل ما يعيش في البر وله فيه حياة فهو صيد البر وإن قتله المحرم فده"^(٨) وفصل أحد الفقهاء في هذه الحيوانات فذكر "الضفادع والسرطان والسلاحف وأن حرمتها لا خلاف فيها بين الحنفية والشافعية والمالكية"^(٩).

ومن جهة أخرى ناقش الفقهاء مسألة "ذكاة" السمكة ، إلا أنهم أجمعوا على أن كل الأنواع السمكية الموجودة في البحر مذكاة ، أي لا يحتاج الصيد إلى إذكائها على غرار ما يفعل بالحيوانات البرية^(١٠).

ووقف الفقهاء عند طريقة استخراج السمك ، وحددوها في صيده وانحسار البحر عنه وطفوه على لجته أو لفظه أياه ؟ ولا شك أن هذه الحالات الأربع هي الحالات التي يمكن من خلالها الحصول على الأحياء البحرية ، وإذا كان صيد الأسماك لا يطرح أي مشكل ، فإن الأمر يختلف عند الفقهاء بخصوص الحالات الثلاث الأخرى. فالدارقطني^(١١) يستند لحديث مروي عن النبي (ص) يبيح فيه ما انحسر عنه البحر ولم يبح الأصناف الأخرى: "كلوا ما حسر عنه البحر وما ألقاه وما وجد ميتا أو طافيا فوق الماء فلا تأكلوه" إلا أن الفقهاء يؤكدون أن طعام البحر كل ما قذفه البحر أو طفا على سطحه أو لفظه^(١٢).

واستشهد الفقهاء بما وقع للصحابه الذين خرجوا في سرية ، تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح ، فنال منهم الجوع الشيء العظيم ، ولم يكن لديهم من الزاد سوى جراب تمر ، فألقى البحر إليهم بحوت عظيم ، ولم يختلف الصحابة في كونه ميتة بدليل رمى البحر به ولم يصطادوه ، غير أنهم أباحوا لأنفسهم استهلاك لحمه اضطرارا ، فأكلوا منه لمدة تتراوح بين الشهر^(١٣) ، ونصف الشهر حسب رواية أخرى^(١٤) ، وكانوا ثلاثمائة رجل^(١٥) ولما عادوا إلى المدينة وقصوا على الرسول (ص) ما حدث لهم لم ينكر فعلهم ، وسألهم شيئا من لحم الحوت فناولوه بعضا منه فأكله^(١٦).

فإذا كان الصحابة قد أكلوا من الحوت وهم مضطرون إلى ذلك لنفاد زادهم فكيف نفسر إقدام الرسول (ص) على الأكل من الحوت وهو غير مضطر ؟ ولا نجد حول هذه المسألة من إجابة غير ما ذكره أحد الفقهاء حين قال : "لها أكل النبي (ص) غير مضطر [فإنه بين] لهم أنه حلال مطلقا وبالغ في البيان بأكله منه لأنه لم يكن مضطرا ، فيستفاد منه إباحة ميتة البحر سواء مات بنفسه أم مات بالاصطياد وهو قول الجمهور"^(١٧).

وفي مدينة فاس كان صيادو البوري والأنواع الأخرى يتولون نقلها على ظهور الحمير^(٣٣)، ويفيدنا صاحب "كتاب الاستقصا"^(٣٤) أن جوهر القائد العسكري للجيش الفاطمي، عندما قدم إلى بلاد المغرب ووصل ساحل المحيط "صاد سمكا وجعله في قلال الماء وأرسله إلى مولاه المعز" إلا أن هذه الإشارة رغم طرافتها تثير العديد من التساؤلات حول أنواع الأسماك التي تم نقلها إلى تونس، وما الغرض من ذلك؟ وما مغزى ذلك سياسياً ونحن نعلم بعد الشقة بين جناحي الغرب الإسلامي؟ ثم هل كان يتم تغيير الماء أم لا؟ وقد استنتج أحد الباحثين أن هذا السلوك الذي أقدم عليه القائد جوهر كان يهدف من ورائه التأكيد على وصوله الساحل الأطلسي، كما أن الباحث نفسه ذهب إلى القول بإمكانية تغيير الماء بحسب المسافة المقطوعة^(٣٥).

ونميل إلى الاعتقاد أن هذه الأنواع المحمولة بهذه الطريقة ربما كانت من الأنواع النادرة غير المعروفة في إفريقية، وحملها إلى المعز كان من باب إطلاعها على الأشياء النادرة التي وقف عليها جنده، وهو أمر كان سائداً بين الملوك والأمراء وقتذاك، وربما كان الهدف من وراء ذلك تربيتها في الصحاري التي كان قد بناها أمراء بني الأغلب، لكن هل فعلاً وصلت هذه الأنواع السمكية بهذه الطريقة حية إلى تونس؟ هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه في ظل غياب إشارات مصدرية تجلي الغموض عن هذه القضية.

ومجمل القول إن هذه التقنيات، رغم بساطتها، تعكس في الفترة الوسيطية دراية وحسن معرفة سكان المغرب بالمحافظة مدة طويلة على طعامهم، وكيف أنهم سخروا إمكاناتهم الذاتية للحفاظ على جودة الأسماك المستهلكة، وتبقى الطريقة الأكثر شيوعاً هي تلك التي كانت تتم بواسطة تصبير وتجفيف وتقديد السمك، فما هي مميزات هذه العمليات؟ وما هي الأنواع السمكية التي كانت تطالها هذه العملية؟ أشارت العديد من الأبحاث إلى قدم عملية التصبير عند المغاربة وخاصة في المناطق الممتدة بين طنجة واللكوس^(٣٦)، وقد أكدت الأبحاث الأثرية التي أجريت في المنطقة على وجود صناعة تصبير السمك^(٣٧) تمتد على عشر مجموعات صناعية قدرت أحواضها ب ١٤٧ حوضاً بسعة تصل إلى ١٣.٠ م^(٣٨).

واستمرت هذه الصناعة طيلة المرحلة الوسيطية، لكن رغم تعدد النصوص والإشارات التي تفيد شيوعها في العديد من الجهات الساحلية مثل بنزرت^(٣٩) وتونس^(٤٠) وباديس^(٤١) وجزيرة شلطي^(٤٢)، فإننا لا نملك نصوصاً تفصل في مراحل هذه الصناعة، مما يبقّي المجال مفتوحاً أمام العديد من التساؤلات من قبيل كيفية الحصول على مواد التصبير؟ ولماذا لجأ المغاربة إلى هذه الطريقة؟ فهل الأمر مرتبط بكثرة الإنتاج الذي يدفع السكان إلى الاحتفاظ بالأسماك مصبرة لاستهلاكها في أوقات النذرة؟

رغم أهمية هذه التساؤلات فإن الإجابة عنها صعبة في ظل غياب وثائق تهتم الموضوع مباشرة، ويبقى الأمل معقوداً على ما يمكن أن تكشف عنه الأيام من وثائق جديدة وتطور الأبحاث الأثرية في المناطق الساحلية، أما النصوص المتوفرة فيمكن أن نستفيد منها وجود هذه الطريقة في أغلب المدن الساحلية، كما أنها تشير إلى أن الأسماك المصبرة كانت تحافظ على جودتها رغم مرور عدة أعوام على عملية تصبيرها، وفي هذا الصدد أشار "صاحب الاستبصار" إلى أن الأسماك المملحة في بنزرت "تبقى أعواماً صحيحة الجرم لذيدة الطعم"^(٤٣).

المنبعثة عن قلي السمك^(٣٦). والقلاوون ملزمون بتنظيف الساحة التي يشتغلون فيها "ويمنعون عن طرح حوت البحر في الماء العذب فإنه يفسده"^(٣٧).

وتجدر الإشارة إلى أن عملية بيع الحوت لم تكن تتم دون إثارة العديد من المشاكل بين البائع والمشتري في حالة الإخلال بأعراف البيع والشراء، فمن خلال وقوفنا على إشارة أوردها صاحب المعيار^(٣٨) تسجل أن بعض باعة السمك كانوا يعتمدون إلى خلط كبيره بصغيره، فيضعون الأسماك الكبيرة في الأعلى والصغيرة في الأسفل استغفالا للزبون الذي ما إن يكتشف العيب حتى يطالب بإلغاء البيع، وقد انتقل صدى هذه المعاملة إلى الإفتاء، فرأى أحد الفقهاء أن "ما كان من ذلك -السمك- قريباً بعضه من بعض لم يرد، وما كان من ذلك بائناً مثل أن يجد في قاع العدل الحوت الدون المخالف للحوت الذي في أوله خلافاً بينا فإن ذلك عيب يرد به"^(٣٩).

توضح هذه الإشارات وغيرها مدى إقبال المغاربة على تناول السمك، خاصة في المناطق الساحلية المتضرسة كما هو الشأن بالنسبة لمدينة سبتة وسواحل الريف عموماً التي تميزت بافتقارها لضاحية فلاحية غنية، فكانت مدينة سبتة مثلاً متفتحة على البحر الذي شكل عنصراً حيوياً سواء بالنسبة لتجارتها أو بالنسبة لصيد السمك الذي كان يدخل ضمن العادات الغذائية لسكانتها.

أما بالنسبة للمناطق الداخلية فلا نعدم نصوصاً وإشارات تفيد أيضاً إقبال ساكنتها على أكل مختلف أنواع الأسماك خاصة تلك المناطق التي كانت تهر منها أنهار فاس وسبو وأبي رقراق وأم الربع... فتكونت لدى ساكنة هذه المناطق النهرية عادات وطرائق خاصة في التعامل مع السمك سواء من حيث صيده أو إدخاله ضمن الوجبات الغذائية^(٤٠).

طرق المحافظة على جودة الأسماك

إن استهلاك السمك يبقى مرهوناً بمدى صلاحيته ومحافظته على جودته، وهذه الصفات من الصعب الإبقاء عليها وقتاً طويلاً خلال عملية نقل أنواع السمك من المناطق الساحلية إلى المناطق الداخلية، لذلك أبدع السماكون من الطرائق ما أبقى على جودتها وقد ذكر البكري أن صيادي مدينة باجة الذين عرفوا بصيد سمك البوري، كانوا يحملون لعبيد الله الشيعي بعض ما يصطادونه من هذا النوع في العسل^(٤١)، وقد مكنتهم هذه التقنية من الحفاظ على جودة السمك فيصل عبید الله طرماً لم يتغير طعمه. ويشير البكري كذلك إلى تقنية غريبة تعكس مدى رغبة السكان في الحفاظ على جودة السمك وتربيتها بعيداً عن الموانئ التي كانت تعيش فيها، فقد كان أمراء بني الأغلب يعتمدون على تعبئة صهريجين بماء البحر ويملؤنها بمختلف الأسماك^(٤٢)، وإن كنا لا نعرف دواعي إقدام أمراء الأغالبة على اتخاذ هذه الطريقة للحفاظ أو بالأحرى لتربية الأسماك، فإنهم كانوا يريدون دون شك تنويع مآذبيهم. وأياً كان الأمر، فإن هذه الطريقة تكشف عن حس وذوق خاصين تولدوا عند أمراء الأغالبة، وبشكل أقل عند ساكنة المناطق الساحلية التي كانت تعتمد على اتخاذ أساليب مختلفة تتولى من خلالها الحفاظ على جودة الأسماك، وبالإضافة إلى هذه التقنيات كانت تسخر الدواب لنقل أحمال السمك من أماكن الاصطياد إلى أماكن الاستهلاك، وهذه العملية كان يرجى منها السرعة حتى تحتفظ الأسماك بجودتها، بخلاف لو تم نقلها بواسطة الإنسان.

تلك الأنواع التي كانت تستهلك طرية وتلك التي كانت تستهلك مجففة أو مقعدة أو مصبرة ، وبين هذه وتلك ، ظل البحث في النظام الغذائي الذي ميز الهائدة المغربية من الأمور التي لا تزال في حاجة إلى سبر ، وأن ما أنجز فيها حتى الآن لا يعدو كونه إثارة للمشاكل أكثر من البحث عن إجابات مقنعة .

لكن إذا كانت مسألة تناول الأسماك إبان الأوقات العادية أمرا واقعا لا يمكن نفيه في الفترة الوسيطة ، فما تأثير سنوات الجفاف التي تعتبر أوقاتا غير عادية على استهلاك الأسماك ؟ في هذا المستوى ، استنتج أحد الباحثين^(٤٩) أن غياب أية إشارة إلى ذكر السمك ضمن المواد التي كانت تؤكل في زمن المسغبات أو تلك التي كان يرتفع ثمنها عندما يشح الإنتاج ، يعتبر دليلا قويا على أنها لم تكن تستهلك ، لكن رغم أهمية هذا الطرح فإننا لا نسايره كليا وذلك لعدة أسباب منها إن الأخبار ذات الصلة بأيام المسغبة والشدة في كتبنا الإخبارية جاءت مقتضبة وخصت بعض المدن دون أخرى كما هو الشأن بالنسبة لفاس أو مراكش أو تلمسان... وركزت على المواد الرئيسية مثل القمح والخبز أكثر من باقي المواد الأخرى ، كما كانت تعرض أخبار أسعار البضائع التي كان يتزود بها الجيش إبان خروجه إلى المعارك^(٥٠) .

كما تنوفر على إشارة أكثر دلالة تتعلق بالولي أبي حفص عمر بن معاذ الصنهاجي الذي كان يشغل بتربية النحل وصيد الأسماك ، وقد عمد في عام ٥٣٥هـ/١١٤١م^(٥١) عندما عم القحط إلى إطعام خلق كثير من المساكين مما كان يصطاده من أسماك واستمر على حاله إلى أن أخضب القوم^(٥٢) .

ثم ألا يمكننا اعتبار أن تلك الطرق التي كان يلجأ إليه سكان السواحل من تقديد وتجفيف وتمليح لمختلف أنواع الأسماك كان يرجى منها ادخار الثروات السمكية المجففة أو المملحة التي كانت تبقى صالحة للاستهلاك رغم مرور السنوات الطويلة على خضوعها لهذه العملية^(٥٣) ليستهلكوها أيام القحط ؟

ومهما يكن من أمر فربما أمكننا أن ننزع إلى اعتبار أن العادات الغذائية التي تكونت للمغاربة في الفترة الوسيطة تكون قد تحكمت في استهلاك السمك بكميات قليلة لصالح الاستهلاك الواسع لأصناف اللحوم الأخرى خاصة لدى الفئات الميسورة ، لكن مع ذلك نسجل الإقبال على استهلاك الأسماك في المناطق الساحلية وتلك القريبة من الساحل والمناطق الواقعة على ضفاف الأنهار ، فما هي إذن أشهر الطرق التي كانت تحضر بها أطباق السمك في هذه الفترة ؟

طرق تحضير السمك

قبل المضي في رصد مختلف الطرائق التي كانت تحضر بها أطباق السمك ارتأينا أن نقف قليلاً عند بعض النصوص التي كانت ترغب في تناول أجزاء معينة من السمك دون باقي الأجزاء الأخرى ، فقد أشار ابن زهر^(٥٤) إلى أن شر أعضاء الحوت رأسه وأنفعه قلبه وكبدته وقد فضل القلب على الكبد لموقع القلب من كل حيوان ، وبفضل ابن زهر كذلك في لحم السمك مؤخره عن مقدمه ، وإن الحكمة في ذلك أن مؤخر السمك دائم الحركة ، فكان ذلك أفضل الأجزاء التي تؤكل من السمك^(٥٥) .

بالإضافة إلى هذا ، أشار أحد المهتمين بالأغذية والأدوية^(٥٦) إلى أن تناول السمك في عمومته رديئ لما يتولد عن تناوله من مشاكل على مستوى الهضم^(٥٧) ، ويرى في تناول الأسماك تلك التي تكون قليلة

وتكشف إشارة أوردها الوزان^(٤٤) أن سكان السواحل الريفية كانوا يلجؤون إلى تمليح الأسماك التي يحملونها إلى ساكنة المناطق المرتفعة (الجبل) وهي طريقة كانت تساعدهم في الحفاظ على جودة الأسماك لتصل طرية إلى هذه المناطق البعيدة نسبيا عن الساحل ، وفي هذا ما ينبئ على شيوع استهلاك الأسماك في المناطق الداخلية . وبالإضافة إلى استعمال هذه الطريقة للحفاظ على السمك ، كان يتم اللجوء لتقنية تجفيف الأسماك وتقديدها ليتم استهلاكها لاحقا وهي من الأمور المعروفة بين الأسر المغربية ، وهو ما يدعونا إلى التساؤل عن حدود إقبال المغاربة على التغذية السمكية ؟

مغاربة المرحلة الوسيطة وتناول الأسماك

يكاد يكون التوجه العام للدراسات التي بحثت في موضوع تناول المغاربة للسمك في الفترة الوسيطة ينحو إلى جعله غذاءً تكميليا حتى في المناطق الساحلية التي اشتهرت بثرواتها السمكية ، فكان يغلب على النظام الغذائي للسكان أكل اللحوم الحمراء والدواجن^(٤٥) ، ويقل أكل الأسماك التي اعتبر استهلاكها من الأشياء التي "تبلد العقل" ، ومن هنا ربما يفهم لماذا كانت بعض الفئات المجتمعية لا تحمس كثيرا لتناول الأسماك خاصة رجالات الفكر والثقافة ، فهذا القاضي عياض يقر أنه لم يتناول قط السمك منذ أن أخذ يعقل ويميز الأمور ، فكان ذلك أمرا عجيبا عند القاضي أبي الوليد بن رشد لما زار القاضي عياض قرطبة ، فقال أبو الوليد بن رشد : "عجبا لرجل ينشأ في البلاد البحرية على أكل السمك من أن يكون له هذا النبل والذكاء ، قال : "فبلغ كلامه القاضي عياض أبا الفضل فقال : والله ما أكلت سمكا منذ عقلت"^(٤٦) .

هذه الإشارة رغم قصرها تشير إلى انصراف طائفة من أهل العلم ومن اشتهر منهم بالنباهة والكياسة عن تناول السمك تقوية لبدنهم وشحذا لذكاؤهم ، وإذا افترضنا جدلا سيادة مثل هذه الذهنية ، فما هو تأثيرها على خيوان من كان يفترض فيهم الذكاء من الأمراء والسلاطين والأدباء ؟

لكن إذا كانت لإشارة عياض كل هذه الحمولة ، فإن فئة اجتماعية أخرى على العكس من ذلك تماما أقبلت على تناول السمك بكثرة ، إنهم المتصوفة والأولياء الذين كانوا يفضلون الأكل مما عملته أيديهم ومما اصطادوه من أسماك ، وهذا ما يستفاد من الإشارات العديدة التي أوردتها كتب المناقب^(٤٧) ، وجعلتنا نتساءل عن سبب هذا الموقف الذي اتخذه المتصوفة من تناول الأسماك والمناقض لموقف الأدباء والفقهاء والأمراء ؟ فهل كان الأولياء يرغبون في التميز عن البلاط وحاشيته والاتصاف بالفئات الشعبية التي احتضنت التيار الصوفي وانتصرت له ؟ كما أن حضور السمكة والبحر في سيرة وتراجم الأولياء تبدو ظاهرة لافتة للنظر ، وهو ما طرح عدة فهوم في قراءة الكرامة الصوفية المعتمدة على السمكة والبحر والتي تنتهي عموما إلى مجال التجدد والطهر والصفاء .

وبناء على ما أوردهنا سلفا فإن تناول الأسماك بأنواعها المختلفة كانت تغذية معروفة في أوساط فئات اجتماعية مختلفة ، وكان تحضيرها مصدر عيش العديد من المهتمين لهذه الحرفة^(٤٨) التي تطلبت تنظيمها خاصا ومراقبة صارمة من قبل المحتسب ، أما في المناطق الداخلية فإن بعد الشقة ربما حال دون الإقبال على تناول الأسماك التي كانت تصل مملحة أو مجففة ، ولعل الفرق واضح بين

الأسماك؟ كما لا نعرف مدى التأثير الخارجي في هذه الطرائق، فهل كانت طرائق خاصة من إبداع المغاربة بناء على ما كونه من ثقافة اتجاه البحر؟ أم أن احتكاكهم ببعض الأجانب، خاصة التجار في المدن الساحلية، حملهم على اقتباس البعض من طرائقهم؟ ويمكن القول إن هذه الأطباق كانت تختلف باختلاف أنواع الأسماك، فبعض الأسماك تطبخ بطريقة دون أخرى، وما يصلح ليؤكل مشويا قد لا يصلح ليتناول مقليا، وما يصلح ليعد "طجينا" قد لا يصلح لأن يشوى أو يقلى.^(٧٠)

تحضير طبق الطجين:

من بين الأساليب التي كان يعد بها "طجين السمك" أن يتخذ السمك الكبير أو الأحرش وبعد عملية تنظيفه يعمد إلى "طجين" من الفخار فيوضع فيه بعض الثوم وأوراق "الكرفس" والنعنع و"الفليحن" ويدق الجميع ثم يوضع في هذه الآنية مع الخل ليغلى وبعد ذلك توضع عليه شرائح السمك.^(٧١)

وهناك طريقة أخرى تعتمد أساسا على اتخاذ السمك الطري الذي يترك ليلة كاملة مملحا ثم يغسل ويغلى حتى يتخذ لونا أبيضاً وبعد ذلك يخرج ويغسل من جديد بماء بارد ثم يوضع في طجين وتضاف إليه الزيت ومختلف أنواع التوابل كالصعتر وعيدان البسباس وورق أثلج وفلفل وزعفران وسنبل وزنجبيل ويسير مصطلكي ويضاف إلى الكل بعض البصل ويوضع الطجين في الفرن حتى يأخذ السمك لونا أحمر ثم يخرج بعد ذلك.^(٧٢)

وإلى جانب هذه الطريقة، تطرق ابن رزین لوصفة فريدة تعتمد الجمع بين أنواع السمك في إطار ما يمكن أن نسميه بالسمك "المحشي"، وكانت هذه الطريقة تقوم على اتخاذ سمكة تنظف وتملح وتترك إلى حين، وبعد ذلك تحضر سمكة أخرى وتنظف وتزال أشواكها ثم تدرس جيدا وتضاف إليها مختلف أنواع التوابل وماء البصل وفتات الخبز والبيض فيحرك الجميع حتى تمتزج الأجزاء المختلفة فيما بينها ثم توضع في المقلاة، وبهذا يجري تحضير السمكة الأولى -الصحيحة- حيث تقلى لوحدها ثم توضع في صحن ويضاف إليها محشي السمكة الثانية^(٧٣)، وهكذا يمضي ابن رزین في ذكر أنواع الأطباق السمكية الأخرى.

الاستعمالات الأخرى للسمك

قبل أن ننهي هذه الدراسة تجدر الإشارة إلى أن للأسماك فوائد متعددة، لا تنحصر فقط في القيمة الغذائية، بل كانت تتخذ كذلك في تحضير الوصفات الطبية، ونصح الأطباء بتناولها لتجاوز بعض الأعراض المرضية، فالحوث المعروف بالرضاضي اعتبره ابن زهر أجود الأنواع السمكية وأنفعها في صناعة الأدوية^(٧٤). أما سمك موسى، فحسب البكري، نافع من الحصة مقولاً له^(٧٥)، كما كان الأطباء ينصحون بتناول أنواع معينة من الأسماك لأولئك الذين يعانون من مشاكل على مستوى الجماع، فينصحونهم بتناول سمك القمرون، وهذه الخاصية في هذا النوع من السمك اختبرها العديد من الأطباء مثل جالينوس^(٧٦). وفضلاً عن هذا كانت السرطانات النهرية تتخذ لعلاج أولئك الذين يتعرضون لحالات التسمم أو أولئك الذين يتعرضون لبعض الكلاب، فتؤخذ هذه السرطانات وتوضع في قدر فخار جديد ويجعل على النار حتى تقترب السرطانات من الاحتراق، وبعد ذلك تسحق ثم

السهوكة لأنه كلما كان السمك كثير السهوكة كلما كان قليل الجودة ومن ثم ينصح أن لا يتم تناوله^(٥٨)، وحتى تسهل عملية هضمه كان ينصح شرب سوائل خاصة كشراب الزنجبيل الذي يمكن المتناول له من مقاومة العطش^(٥٩)، ويرى ابن رزین أن يشرب عليه رب العنب أو شراب العسل المفوه وأن لا يتناوله البرء بعد تعب ولا يقوم بعمل متعب بعد أكله^(٦٠)، وأن لا يشرب بعده الماء وإذا ما غلبه العطش يكتفي بالأشربة التي بإمكانها أن تحد منه دون تناول الماء^(٦١). أما بشأن الطرائق التي كانت تحضر بها أطباق الأسماك فقد كانت متعددة ومتنوعة مما يعكس تنوع العادات الغذائية التي اكتسبتها الأسر المغربية المقبلة على هذا النوع من اللحوم، ولعل أشهر هذه الطرائق شي السمك وقلبه وتحضيره على شكل "طجين".

طريقة شي السمك:

انتشرت هذه العملية بشكل واسع في المغرب الوسيط ولعل في انتشارها ما يكشف عن سهولة تحضيرها، ويعتبر السمك المشوي أخف على المعدة من أكله مقليا أو مطبوخا^(٦٢). وتتم عملية الشي التي تبقى معلوماتنا عنها على قدر كبير من الندرة، على الجمر وفي التنور، وهي عملية صالحة لشي الأنواع الصغيرة من السمك كالسردين والجركم، ويشترط في النار المعدة للشي أن لا تكون ذات لهب ولا ذات دخان، ويستحسن تملح السمك مع إضافة بعض الثوم والزيت، ثم توضع الأسماك على النار وتقلب بين الحين والآخر إلى أن تحمر منبئة بنضجها^(٦٣) أو تشوى على السفود^(٦٤) ولا ندري هل كانت السفافيد تتخذ من الخشب أو من حديد؟ وإن كان يغلب على الظن أنها كانت تتخذ من الحديد.

طريقة قلي السمك:

من شروط عملية القلي العناية الفائقة بعملية تنظيف السمك خاصة ما تعلق بإفراغ جوفه من الأحشاء ومخلفات الغذاء^(٦٥)، وكانت عملية القلي تتم بواسطة تملح السمك وتمريغه في الدقيق ثم وضعه في زيت مغلي^(٦٦)، وتجدر الإشارة إلى أنه ينبه إلى عدم الإكثار من الدقيق المغلف للسمك لأن من شأن ذلك أن يؤدي إلى تكوين طبقة سمكة تغطي السمك مما يزيد من عسر الهضم^(٦٧) وكان يشترط في السمك الكبير نزع أشواكه^(٦٨).

إن ما يمكن أن نخلص إليه من خلال دراسة الطريقتين السالفتين، أنهما كانتا منتشرتين خلال الفترة الوسيطة بشكل كبير في الأوساط المغربية على الأقل في المناطق الساحلية، وقد شدد المحتسب أحمد بن عبد الرؤوف على النظافة العالية للمتعاظين لهنة القلي وعلى مراقبة المحتسب لمختلف العمليات التي يقومون بها، وينبههم إلى عدم الإكثار من رش السمك بالدقيق لأن ذلك يثقل الميزان، ويكون على حساب المستهلك^(٦٩).

أما باقي الطرائق الأخرى التي كانت تحضر بها أطباق السمك، فإن ابن رزین أورد منها حوالي ثلاثين طريقة في كتابه الشهير "فضالة الخوان"، وهذا العدد الكبير من طرائق تحضير السمك يبرز أهمية التغذية السمكية في هذه المرحلة، ويعكس كذلك مهارة الطباخ المغربي.

وبالمقابل لا ندري هل كانت هذه الأطباق خاصة بالمناطق الساحلية؟ أم أنها كانت معروفة في كل المناطق التي اعتاد أهلها تناول

وفضلاً عن هذا كله كان سكان المناطق الساحلية خاصة في سفاقص^(٨٦) وشنترين^(٨٧) وطبرقة^(٨٨) وفي السواحل الغربية للأندلس^(٨٩) يحرصون على جمع ما اصطلاح على تسميته بصوف أو وبر البحر الذي كان ينتج عن طريق احتكك إحدى الدواب البحرية بالصخور فينتج عن هذه العملية نوع من الصوف أو الوبر الذي يستخدم لنسج الملابس الرفيعة التي قد يتجاوز ثمن الثوب المصنوع منه ألف دينار^(٩٠)، أما العنبر فتعددت الإشارات لفوائده الطبية، حيث كان يستخدم لتقوية القلب والدماغ والقضاء على الأمراض التي تصيب البلغم والمعدة والرياح الغليظة العارضة والشقيقة والصداغ وفضلاً عن هذا فإنه كان مقويا للأعضاء^(٩١).

وهكذا، يتضح من خلال وقوفنا عند مختلف الإشارات المصدرة التي اهتمت بالثروة السمكية وطرق استخراجها واستغلالها أن المغاربة عموماً وسكان المناطق الساحلية خاصة تكونت لديهم ثقافة بحرية مهمة تراكمت عبر سنوات وأفرزت لديهم تقاليد خاصة انعكست مظاهرها في تقنيات استخراج الثروات البحرية المختلفة وتطوير تقنيات الصيد حتى يؤمنوا حاجاتهم من مختلف الأنواع السمكية التي تقننوا في طهيها وتحضير الأنواع المختلفة من الأطباق التي كانت تعكس الذوق الرفيع الذي تكون للإنسان المغربي خلال الفترة الوسيطية.

الهوامش

- ١- نخس بالذكر هنا أعمال كل من إبراهيم القادري بوتشيش في: المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، ط ١٩٩٣، ١، ص ٦٩ وما بعدها. ومحمد الشريف، سبته الإسلامية، دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، منشورات جمعية تطوان، سبتمبر ٢٠٠٤، ص ٣٤ وما بعدها.
- ٢- ابن ماجة، صحيح ابن ماجة، مكتبة التريفة العربية لدول الخليج، ١٩٨٨، مج ٢، ص ٢١٦.
- ٣- نفسه، ص ٢٢١، ورد الحديث بصيغة أخرى عند النسائي: "في ماء البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته"، كتاب السنن الكبرى، تح، الففار سليمان البندراوي وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٩١، ج ٣، ص ١٦٣.
- ٤- أبو الوليد بن رشد (الحفيد)، شرح بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق عبد الله العبادي، دار السلام، القاهرة، ط ١٩٩٥، ج ٣، صص ١١٦٧ و ١١٦٨.
- ٥- ابن رشد، البيان والتحصيل والشرح والتعليل في المسائل المستخرجة، تحقيق جماعة، ط ٣. دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٤، ج ٣، صص ٢٩٩-٣٠٠، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، ١٩٥٤، ج ٦، ص ٣١٧ وما بعدها.
- ٦- القرطبي، م.س، ج ٦، ص ٣١٧.
- ٧- نفسه، ابن رشد، البيان، ج ٣، صص ٢٩٩-٣٠٠.
- ٨- القرطبي، م.س، ج ٦، ص ٣١٧ وما بعدها.
- ٩- نفسه.
- ١٠- الدارقطني، سنن الدارقطني، ط ٢، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤، ج ٤، ص ٢٦٧-٢٦٨.
- ١١- ج ٤، ص ٢٦٨، وما بعدها.
- ١٢- القرطبي، ج ٦، ص ٣١٧ وما بعدها، وحتى الحديث الذي أورده الدارقطني فقد علق عليه بأنه تفرد به عبد العزيز بن عبد الله وهذا الرجل لا يحتج به، ج ٤، ص ٢٦٨.
- ١٣- الإمام مسلم، صحيح مسلم، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت. ج ٦، ص ٦١، ابن كثير، تفسير ابن كثير، ط ١٠، دار الفكر، ١٩٨٨، ج ٢، ص ٦٤٥.
- ١٤- الدارقطني، م.س، ج ٤، ص ٢٦٦.
- ١٥- الدارقطني، نفسه، صحيح مسلم، م.س، ج ٦، ص ٦١. ابن كثير، م.س، ج ٢، ص ٦٥٤.
- ١٦- الدارقطني، م.س، ج ٤، ص ٢٦٦، ٦٥٤.
- ١٧- الدارقطني، م.س، ج ٤، صص ٢٦٦-٢٦٧.
- ١٨- تقع قرب مدينة بادس من أعمال الساحل الريفي، الوزن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١٩٨٣، ٢، ج ١، ص.

تسقى للمصاب بالكلب فيشفى، وقد تكرر هذا السلوك بناء على إخضاعه للتجربة عدة مرات^(٧٧).

ومن جهة أخرى اتخذت منتجات البحر للزينة، وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن الإنسان القديم في الشمال الإفريقي استخدم أصداغ وعظام الحيوانات البحرية أدوات يتزين بها^(٧٨)، وخلال المراحل الأخيرة من القرون الوسطى، سجل الوزن وهو شاهد عيان لمعلومات من خلال ملاحظاته للمناطق التي مر منها، فلاحظ خارج مدينة ماسة وجود مسجد على شاطئ البحر له سقف محمول على عظام سمك البالين^(٧٩)، والملاحظة ذاتها أشار إليها ابن بطوطة عند طوافه بسواحل عمان، حيث كان سكان مرسى حاسك يستخدمون عظام السمك في بناء بيوتهم^(٨٠).

ولعل التشابه في هذا السلوك المجتمعي بين غرب العالم الإسلامي وشرقه يعكس حقيقة أساسية، فمن جهة أن الإنسان كان يستعين بما توفره الطبيعة من مواد لبناء منازل ورفع سقف البنايات العالية، ومن جهة أخرى فإن وفرة عظام سمك البالين الذي كان يعيش بكثرة في سواحل "المحيط الأطلسي" ربما تكون قد عوضت قلة الأشجار التي كانت تتخذ جذوعها لرفع أسقف المساجد والمنازل.

وكما كان للسمك تأثير في غذاء المغاربة، فإن هذا المنتج البحري استطاع أن يترك في نفوس أهل البلاد أثراً كبيراً وصل إلى حد الاحترام والتقدير، فالإشارة السالفة التي أوردها الوزن تفيد أن العامة كانت تقدر كثرة البالين بالبركة التي منحها الله لهذا المسجد الذي ما إن تقترب منه الأنواع السمكية الكبيرة مثل البالين حتى يقضى عليها، إلا أن هذا التأويل لم يكن ليرض الوزن الذي اطمأن للتفسير الذي أعطاه أحد شيوخ اليهود لهذا الأمر، فكان يرى أن هذه الأسماك الكبيرة والكثيرة التي يلقي بها البحر إنما تصطدم بمجموعة من الصخور على بعد ميلين من البر فتحدث بها جروحاً بليغة تؤدي إلى وفاتها وبعد ذلك يقذف بها البحر نحو الساحل^(٨١).

أما في مدينة سبته فيشير القزويني^(٨٢) إلى أن الناس كانوا يتبركون بسمكة يبلغ طولها حوالي الذراع وعرضها شبر واحد، وربما كان سبب تبرك الناس بها راجعاً إلى شكلها الذي يمجج بعض من يشاهد هذه السمكة التي كان أحد جانبيها صحيحاً والجانب الآخر عبارة عن أشواك وعظام، ولا تتوفر إلا على عين واحدة ونصف رأس، وربما كان هذا التكوين الخلقي هو الذي فعل فعله في المخيال الاجتماعي للسبتيين الذين كانوا يقدرون بركة هذه السمكة ويقدمونها هدايا لأشخاص بعينهم، أما اليهود فكانوا يقددونها ويحملونها إلى المناطق البعيدة ويجعلونها ضمن هداياهم التي يهدونها لبعض الشخصيات أو الزعامات السياسية^(٨٣).

أما سكان مالقة فكانوا يعتقدون في سمكة الرعاد معتقدات خاصة يضمنون بها استمرار العلاقات الزوجية "فإذا علققت المرأة شيئاً من الرعاد عليها لم يطق زوجها البعد عنها وكذلك إن علق منه الرجل عليه لم تكد المرأة أن تفارقه"^(٨٤)، ولعل هذه الاعتقادات لم تكن خاصة بالمغاربة فقط، بل كانت مشتركة بين العديد من المناطق ذات الاتصال الوثيق بالبحر، وفي هذا الصدد تشير بعض المعلومات إلى أن الصيادين كانوا يرجعون سمكة سقنورة إلى البحر إذا ما وجدوها في شباكهم، ويستبشرون خيراً إذا طلع عليهم سمك الدلفيل وسمكة زامو^(٨٥).

٣٢٧

١٩- نفسه.

٢٠- مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥. ص. ١١٣.

٢١- هم الذين كانوا يتولون قلي السمك ، وفي إشارة أوردتها صاحب بيوتات فاس ، أن الموالى في بيت بني شيبون كانوا قد احترقوا العديد من المهن منها بيع الحوت ، ص. ٢٥.

٢٢- أحمد بن عبد الرؤوف ، ثلاث رسائل في الحسبة ، جمع بروفصال ، القاهرة. ١٩٥٥. ص. ٩٧.

٢٣- أحمد بن عبد الرؤوف ، م. س. ، ص. ٩٧.

٢٤- نفسه تجدر الإشارة إلى أن أبا مروان بن زهر في كتاب الأغذية ، تحقيق محمد أمين الضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨. لا يحيد أكل السمك المقلي. " وكل شيء يقلى فإنه مضر وخاصة لمن يكون حار المزاج. " ص. ٣٢.

٢٥- نفسه.

٢٦- نفسه.

٢٧- نفسه.

٢٨- لونسريسي أبو العباس ، المعيارالمغرب..، أخرجه جماعة بإشراف محمد حجي ، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ج. ٦. ص. ١٧٦.

٢٩- المعيار.. ، ج. ٦. ص. ١٧٦.

٣٠- أبو عبيد البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، تقديم وتحقيق M.G.DESLANE. د. ت. ص. ١١٧. "ابن عبد ربه الحفيد" ، الاستبصار.. ، م. س. ، ص. ١٨٤-١٨٥. ابن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرباس.. ، دار المنصور ، الرباط. ١٩٧٢ ، ص. ٣٥.

٣١- البكري ، م. س. ، ص. ٥٧.

٣٢- نفسه ، ص. ٣٩.

٣٣- الاستبصار.. ، م. س. ، ص. ١٨٤-١٨٥ ، روض القرباس.. ، م. س. ، ص. ٣٦.

٣٤- أبو العباس الناصري ، كتاب الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، دار الكتاب. الدار البيضاء. ١٩٥٤ ، ج. ١ ، ص. ١٩٩.

٣٥- محمد الطويل ، النقل والتنقل في الغرب خلال العصر الوسيط ، رسالة مرقونة كلية الآداب الرباط ، ، ص. ٢٨٩.

٣٦- أرجعها علي وحيدى إلى زمن الفينيقيين ، " ليكسوس ، ميناء لتصنيع وتصبير السمك " ، في ندوة المغاربة والبحر ، ص. ٢٠٢-٢٠٣ ، ويورد مولاي رشيد ، الغرب الأقصى عند الإغريق واللاتين. ق. ٦. م. ق. ٧. م. ط. ١. الدار البيضاء. ١٩٩٣. ص. ٢٧ إشارة أوردتها سطرابون نقيد قدم عملية تملح السمك في المغرب.

٣٧- علي وحيدى ، الصفحة والمكان نفسه.

٣٨- علي وحيدى ، مقال سابق ، ص. ٢٠٢-٢٠٣.

٣٩- مجهول ، الاستبصار ، م. س. ، ص. ١٢٥.

٤٠- المقرئزي ، خطط المقرئزي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٧. ج ١ ، ص ١٧٣ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار الكتاب العربي. بيروت ، د. ت. ، ج ٢ ، ص. ٦١.

٤١- الوزان ، وصف.. ، ج ١ ، ص: ٣٢٤-٣٢٥-٣٢٦.

٤٢- المقرئ ، نقح الطيب.. ، تحقيق. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت. ١٩٨٦. ، ج ١ ، ص. ١٦٧-١٦٨.

٤٣- الاستبصار ، م. س. ، ص. ١٢٥.

٤٤- الوزان ، ج ١ ، م. س. ، ص. ٣٢٤-٣٢٥-٣٢٦.

45-Ferhat Halima, Sabta des origines au XIVeme siècle, Publie par la ministère des affaires culturelles, s.d pp278-443

٤٦- المقرئ ، أزهار الرياض.. ، م. س. ، ج ٥ ، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب ، ١٩٨٠. ص. ٧٩. يرجع ل: le Nouveau Bien- Etre , Encyclopidie, p. 11-21-29-113. NAEF, p.

٤٧- ابن الزيات التادلي ، التشوف إلى رجال التصوف.. ، تحقيق ، أحمد توفيق ، منشورات كلية الآداب. الرباط ، ط. ١٩٨٤ ، ص. ٩٣-١٣٢ و ١٨٣ ، البادسي عبد الحق ، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، تحقيق سعيد أعراب ، المطبعة الملكية. الرباط ، ١٩٩٣. ص. ١٠٣. ، الغبريني أبو العباس ، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق عادل نويبيض ، ط. ٢. بيروت ، ١٩٧٩ ، ص. ١٢٧.

٤٨- أحمد بن عبد الرؤوف ، م. س. ، ص. ٩٧.

٤٩- محمد الطويل ، الفلاحة.. ، م. س. ، ص. ١٣٩.

٥٠- ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب.. ، قسم الموحدين ، تحقيق جماعة ، دار الغرب

الإسلامي ، ط ١. بيروت. ١٩٨٥. ص ١٦. و ص. ٢٥٩. و ص. ٣٢٥. ٣٢٦.

٥١- معلوم أن هذه السنة كانت تواكب استمرار الحروب بين الموحدين والمرابطين وأن الحرب بينهما كانت مازالت لم تحسم بعد.

٥٢- التشوف.. ، م. س. ، ص. ١٨٣.

٥٣- الاستبصار ، م. س. ، ص. ١٢٥. الوزان ، م. س. ، ج ١ ، ص. ٣٢٤-٣٢٥-٣٢٦.

المقرئزي ، م. س. ، ج ١ ، ص. ١٧٣ ، ياقوت ، م. س. ، ج ٢ ، ص. ٦١.

٥٤- ابن زهر ، م. س. ، ص. ٣٣.

٥٥- نفسه.

٥٦- ضياء الدين أو محمد بن عبد الله بن أحمد الأندلسي (ابن البيطار) ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ ، ص. ٤٣-٤٤.

٥٧- نفسه. السهوكية من سهك وهي الرائجة الكريهة. لسان العرب ، م. س. ، ج ١٠. ص. ٤٤٥.

٥٨- ابن زرين التجيبي ، فضالة الخوان في طبقات الطعام والألوان ، تحقيق ، محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ط. ١. بيروت ، ١٩٨٤ ، ص. ٢٠٩.

٥٩- نفسه.

٦٠- نفسه ، ص. ٢٠٩.

٦١- نفسه.

٦٢- ابن البيطار ، م. س. ، ص. ٤٣-٤٤.

٦٣- ابن زرين ، م. س. ، ص. ٢٠٠.

٦٤- ابن زهر ، م. س. ، ص. ٣٢.

٦٥- أحمد عبد الرؤوف ، م. س. ، ص. ٩٧.

٦٦- أحمد عبد الرؤوف ، م. س. ، ص. ٩٧. أما ابن زرين فيرى أن عملية وضع السمك في الدقيق كانت تتم بعد أن يكون السمك قد تقلى وبالأخص عندما يأخذ في التقطيع أثناء عملية تحويله ، وبعد ذلك يرجع إلى المقلاة ليتم طهيه للمرة الثانية. ص. ٢٠١-٢٠٢.

٦٧- ابن البيطار ، م. س. ، ص. ٤٣-٤٤ ، ابن زهر ، م. س. ، ص. ٣٨.

٦٨- ابن زرين ، م. س. ، ص. ٢٠١.

٦٩- أحمد عبد الرؤوف ، م. س. ، ص. ٩٧.

٧٠- ابن زرين ، م. س. ، ص. ٢٠١-٢٠٢.

٧١- نفسه.

٧٢- نفسه.

٧٣- نفسه ، ص. ٢٠٢.

٧٤- ابن زهر ، م. س. ، ص. ٣٠.

٧٥- البكري ، م. س. ، ص. ١٠٦.

٧٦- ابن زهر ، م. س. ، ص. ٢٩.

٧٧- نفسه ، ص. ٤١-٤٢.

٧٨- إنسان ما قبل التاريخ ، ص. ١٧-١٨ ، ندوة البحر في تاريخ المغرب ، نشر كلية الآداب المحمدية ، سلسلة ندوات رقم ٧. سنة. ١٩٩٩

٧٩- الوزان ، م. س. ، ج ١ ، ص. ١١٤-١١٥..

٨٠- ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تح علي منتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت. ١٩٨١. ج ١ ، ص. ٢٩٢.

٨١- الوزان ، ج ١ ، ص. ١١٤.

٨٢- القزويني ، آثار.. ، م. س. ، ص. ٢٠١.

٨٣- نفسه.

٨٤- المقرئزي ، م. س. ، ج ١ ، ص. ٦٦.

٨٥- نفسه ، ص. ١٨٢-١٨٣.

٨٦- أحمد التجاني ، رحلة التجاني ، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا. تونس ، د. ت. ، ص. ٦٨.

٨٧- أبو القاسم الصطخري ، كتاب الأقاليم ، مكتبة المثنى بغداد ، د. ت. ، ص. ٤٢.

٨٨- الاستبصار ، م. س. ، ص. ١٢٦.

٨٩- المقرئ ، نقح الطيب.. ، م. س. ، ج ١ ، ص. ١٩٧-١٩٨..

٩٠- الاصطخري ، م. س. ، ص. ٤٢ ، التجاني ، م. س. ، ص. ٦٨.

٩١- ابن البيطار ، ج ٢ ، م. س. ، ص. ١٨٣.

تاريخ الأمازيغ

مقدمة

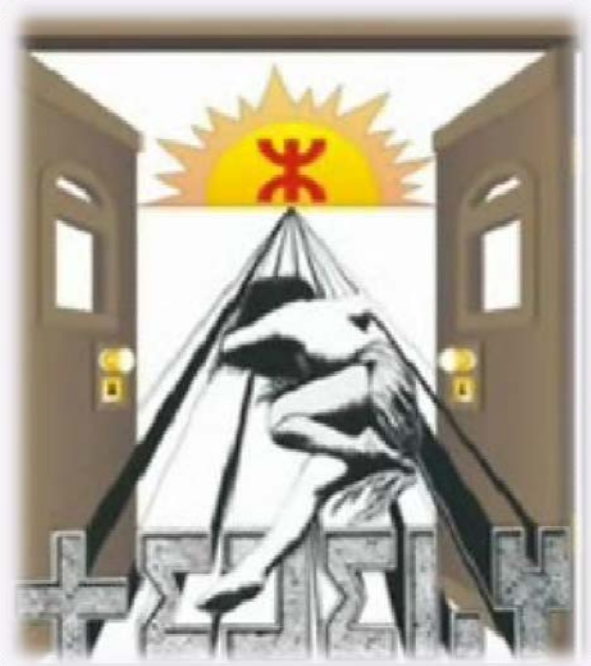
بدأت بعض الأصوات داخل المجتمع العربي الإسلامي تطرح جملة من التساؤلات: كيف يمكن رفع التحدي؟ كيف السبيل إلى تحقيق التطور دون التنكر للذات؟ وقد اندرج الجدل حول تحرير المرأة في سياق المساعي الهادفة إلى تحقيق النهضة السياسية والثقافية والدينية لمجتمع المجتمع الإسلامي.

إن الحديث عن مصطلح الأمازيغية يستلزم بالضرورة التطرق إلى أصل البربر والبربرية حيث يرى بعض الباحثين أن هذه الكلمة يعود أصلها إلى اللغة الليبية (Lybique)^(١) وكلمة "الليبي" اشتقت من ليبو (Libou)، وكانت تعني عند المصريين القدامى سكان إفريقيا^(٢). وهناك من ذهب إلى أن كلمة البربر ظهرت في العصر الروماني، والبربري عندهم هو الوحشي^(٣)، وكانت تطلق على الشعوب الغربية عن حضارتهم وخاصة سكان المغرب كونهم يعيشون في الجبال^(٤)، ثم خص بها أهالي شمال إفريقيا.

وتبقى كلمة "البربر" مفتقرة هي الأخرى إلى دقة المعنى والأصل نظراً لتعدد الآراء حولها، والتي تبقى مجرد فرضيات قابلة لعدة تأويلات، مع العلم أن البربر اختاروا لأنفسهم تسمية "أمازيغ"^(٥) خلافاً لكلمة البربر، والتي تجمع على "إمازيغن" ومؤنثها "تَمازيغت" ومعناها الرجل الحر والشريف.

الموقع الجغرافي للبربر

يعيش البربر في حوض حضاري شاسع ممتد من مصر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً^(٦). وهم المعمرون الأوائل لشمال إفريقيا وهذا منذ عشرات آلاف السنين. وحسب إحصائيات سنة ١٩٨٦، فقد قُدِّرت النسبة المئوية للأمازيغ كالتالي: يعتبر المغرب الأقصى البلد الأكثر كثافة سكانية لأصل البربر، فهم يشكلون نسبة ٤٠% من سكان هذا البلد، أي ما يُعادل تقريباً ٩,٥ ملايين بربري من مجمل ٢٤ مليون. وهم متواجدون بجل المناطق: بالجبال والكتلة الريفية (Le Massif du Rif) والأطلس الأوسط (Moyen Atlas) بالشمال الشرقي والأطلس الكبير وأطلس الجنوب الغربي، أي أنهم موزعون على معظم المناطق المغربية^(٧). وتأتي الجزائر في المرتبة الثانية بنسبة ٢٠% (٥,٤ ملايين بربري من ٢٢ مليون نسمة). ومن أهم مناطق تركزهم: القبائل بالكتل الشمالية (Les Massifs du nord) والأوراس بالشرق والتل الجزائري (العاصمي) والوهراني وجبال البليدة والورسنيس وبني مسوس ... ويتواجدون بكثرة في الجنوب، وبواحات وادي ريغ بورقلة ونُفُوسَ ومنطقة وادي ميزاب وقصور قورارة وثَوَات وتِدِكَلْت^(٨). وحتى ليبيا بها نسبة معتبرة من البربر وكل مناطق شمال إفريقيا فهم يقطنون الأماكن الجبلية كَبْرَقَه وغُورِيَام ونُفُوسَة، وبواحات غدامس وسكنه وتيسس وزَوَز على الحدود التونسية بالشمال الساحلي. أما بربر تونس فنسبتهم ضعيفة جداً إذا ما قُورنت ببلدان المغرب العربي، فهم يمثلون واحداً بالمائة (١٠%) ويتمركزون في جربة بكثرة وفي وسط وجنوب البلاد من تَمَاقُورَت وتَمَزَزَات وزَوَاز ... ويوجد أثر البربر كذلك بواحة سيوا (Siwa) بمصر والتي لا تبعد عن الحدود المصرية الليبية. وإضافة إلى ما سبق هناك جماعة من التوارق تعيش في شمال مالي والنيجر ونيجيريا^(٩).



د. حجوي غوجي

دكتوراه في الآداب

عضو هيئة التدريس بجامعة تلمسان

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

g.hadjoui@yahoo.co.uk

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حجوي غوجي، تاريخ الأمازيغ - دورية كان التاريخية - العدد العاشر؛ ديسمبر ٢٠١٠، ص ٦٦ - ٧٠.

(www.historicalkan.co.nr)



البربر "الخلفية التاريخية"

ما ينبغي ذكره هنا هو أنَّ البحث في موضوع القضية الأمازيغية وليد القرن ١٩م ، ودراسات هذا الموضوع تداخلت فيها الكثير من العوامل والأغراض الذاتية. لكنَّ هذا لا ينفي وجود العديد من الأبحاث التي تناولت البربر وتاريخهم بدءاً بالعصور القديمة إلى وقتنا الحاضر. ومن بين من بحثوا في هذا الميدان هم: المؤرخ الروماني سالوستس (Salluste)، وبليني (Pline l'ancien)، وبروكوب (Procopé) وابن خلدون، وكذا محفوظ قداشي في كتابه "الجزائر في العصور القديمة"، والعديد من الأنثروبولوجيين الفرنسيين. وكانت آراؤهم مختلفة ومتباينة بتعدد الفرضيات حول أصل البربر الأوائل، فمنهم من وصل إلى أنهم من الفراعنة المصريين واستدلوا بالكتابات والصور التي وجدت على جدران آثارهم^(١١). لكنها اعتُبرت فرضية أسطورية وإتيولوجية في نفس الوقت.

وهناك من أرجع أصل البربر إلى كنعان كالمؤرخ بروكوب (Procopé) الذي رافق الجنرال البيزنطي بليسار (Bélisaire) إلى إفريقيا^(١٢) حيث قام بأبحاث في تاريخ البربر والتي جاءت كلها تدعياً للمعطيات التي تُنسب الأمازيغ إلى أصل كنعاني، نزحوا من الشرق الأوسط إلى إفريقيا بحثاً عن بسط نفوذهم... وكان يُطلق عليهم آنذاك ما يُسمَّى باللغة الفرنسية "Maures"^(١٣) أي مغربي.

وفي موقع آخر ذكر أبو جعفر بن جرير الطبري (توفي سنة ٣١١ هـ) أنَّ جنس الأمازيغ من ذرية سام بن نوح، فهم بنو ثملان بن مازاث بن قران بن عمر بن عمليق بن لود بن سام بن نوح. وما خلاصتها أنها وكثامة فإنهما بنو إفريقش بن قيس بن صيفي بن سبا^(١٤). وأما المسعودي (توفي سنة ٣٤٦ هـ) يرى أنَّ البربر من ولد كوش بن كنعان بن نوح. ولما تفرق أولاد نوح في الأرض، توجه ولد كوش بن كنعان إلى المغرب...^(١٥) وحتى ابن خلدون ترك أثراً حاسماً في دراسته العديدة في سياق الكلام عن تاريخ البربر وأصلهم إذ ينقل عن النسابة من أنَّ البربر يجمعهم أصلان كبيران هما: "برنس" وماذغيس الملقب بالأبثر من نسل مازيغ^(١٦). وأثبت ذلك بقوله: "إنَّ النسابة يجمعونهم في إزادجة ومصودة وأوربة وكثامة وصنهاجة وأورغة"^(١٧). وفي موضع آخر يُشير إلى أنَّ صنهاجة وكثامة ذوات أصول عربية من قبائل جُمَيْر من أصول حامية من اليمن^(١٨).

ويرى المؤرخ الجزائري عبد الرحمن بن محمد الجبالي^(١٩) أنَّ أصل البربر هم ساميون من أبناء مازيغ بن كنعان، فهم الأمازيغ كما جاء في تصريحهم أمام الخليفة عمر بن الخطاب حينما ذهب إليه الوفد بعد فتح مصر، فانتسبوا أمامه إلى مازيغ. ويؤكد الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" على أنَّ الأمازيغ هم عرب متقدمون في نزوحهم إلى شمال إفريقيا وأنَّ موجة الفتح الإسلامي كانت فرصة التقى فيها أبناء العمومة على أرض إفريقيا بعد أن كانوا قد التقوا على أرض الشام^(٢٠).

وخلافاً لآراء كلِّ المؤرخين السابقين أعطى الفرنسيون استنتاجات تُوحي بأنَّ البربر من أصل أوروبي، وأولهم المؤرخ برترون (A. Bertrand) الذي توصل في أبحاثه التي قام بها سنة ١٨٦٣م إلى النتائج التي افترض فيها أنَّ البربر منحدرين من نسب كلتي (Celtique)^(٢١). وفي نفس الفترة قام (M. Olivier) رئيس أكاديمية

بون (Bône) -مدينة عنابة حالياً- بأبحاث في هذا الميدان اكتشف من خلالها أنَّ "البربر من الإغريق الذين غزوا إفريقيا"^(٢٢).

ولكن ليس من المنطق العلمي المنصف أن نحكم على قوم و نُصنّف سلالته من خلال دراسة الأوصاف الفيزيولوجية للجسم والتي توحي بطبع الإنسان، وهذا هو منهج الفراسة الذي اعتمده برترون (Bertrand) في بحثه. أما (Olivier) فابتعد عن الملاحظة واتخذ طريقة التحليل العلمي كوسيلة يتقرب بها إلى نتائج موضوعية تُبرر رأيه في تقارب لهجات البربر والإغريق متخذاً علم اللسانيات التقريبية منهاجاً، ودعم رأيه بر ثولون (Bertholon) سنة ١٩٠٧م بتصنيف اللغة البربرية ضمن اللغات "Illygro - Pelasgiques" التي أتت بها الإغريق أثناء استعمارهم لشمال إفريقيا.

وأهم ما يمكن استخلاصه من خلال سياق الكلام عن تاريخ البربر أنَّ معظم النتائج أجمعت على أنَّ الجذور الأولى للبربر تفرّعت من نسل حام بن نوح، وقد اعتُبرت هذه الرؤى والافتراضات غير موضوعية لأنها ليست قائمة على معايير علمية دقيقة. فلماذا تعذر علينا وضوح الأساس التاريخي لهذا الجنس، لكن لا أحد يشك في أنَّ الأمازيغ هم السكان الأوائل لشمال إفريقيا، عاصروا الرومان وعاشوا اليونان والعرب.

التاريخ اللغوي للبربر

يتضح أنَّ اللهجات الأمازيغية لم تنقرض ولم تُمت، بل أضحيت محط أنظار واهتمام وجدال العديد من الباحثين الذين سارعوا في إبراز الحقائق التاريخية واللغوية عبر تعاقب الأمم العديدة باختلاف لغاتها وإلزام الأهالي التكلم والتعامل بشكل تعسفي بلغة المحتل من فينيقيين وإغريق ورومان وفرنسيين... باستثناء العرب في تعاملهم الودي، الأمر الذي جعل البربر يتقربون إليهم ويسارعون في تعلم لغتهم.

(١) علاقة الأمازيغية باللغة البونيقية:

كان الغزو الفينيقي للمغرب القديم سبباً مباشراً في تدمير الوحدة الاقتصادية والثقافية وحتى اللغوية للبربر، مما أدى بظهور عدة بطون من القبائل نسبهم واحد^(٢٣). فتنوعت اللغة البربرية إلى عدة منطوقات واختلفت من منطقة لأخرى: مثل الشليحة والشاوية والميزابية والترقية في الجزائر، ولهجات أوجيل (Awjila) ونفوسة وغدامس وصكنا (Sokna) في ليبيا، ولهجة سند (Sened) في تونس، ولهجة سيوا (Siwa) في مصر، ولهجات الشلح والريف والبربر وتمازيت بالمغرب الأقصى^(٢٤).

لقد خُصص استعمال هذه اللهجات في التعبير عن المجالات العامة من (فلكلور شعبي وعن أمور ذات الاستعمال اليومي الدائم مثل المأكولات والفلاحة والشؤون المنزلية...) أي اقتصر على التراث الشعبي الشفهي بعيدة عن الحياة الرسمية كالتعامل الإداري وشتى العلوم التي لا تتحقق تواصلاتها إلا عن طريق اللغة المكتوبة.

ويتمثل سبب انتشار اللغة البونيقية وحلولها محلَّ اللغة البربرية في مرحلتين: الأولى حينما استحوذ الفينيقيون على سيرا (قسنطينة) حالياً وكانت عاصمة النوميديين تحت حكم ماسينيسا) وجعلوها عاصمة لهم واستقرّوا فيها. ثمَّ تأتي مرحلة تهميش اللهجات البربرية عن الحياة الرسمية^(٢٥) والتي ظلَّ فيها اللسان البربري مدحوراً على مرَّ

السنين لأن الحضارة الفينيقية كانت مزدهرة ولم يكن للجزائريين لغة تماثل لغتهم ولا حضارة ثقافية في مستواهم.

إن فرض اللغة البونيقية على الأسر البربرية الحاكمة في التعاملات الرسمية جعلتهم يُدَوَّنُون أساطيرهم وينقشون (يطبعون) نقودهم بالأحرف والكتابة البونيقية وحتى الإغريقية فيما بعد ، وخير دليل على هذا يتمثل في النقوش التي وُجدت في معبد ثوغا (Thugga) والتي تحمل كلمات تذكارية قد نحتها ميسيسا (Micipsa) في شأن أبيه ماسينيسا (سنة ١٣٨ ق.م)^(٢٦).

ومن خلال مقارنة وتحليل بعض النصوص القديمة يقول شابوط (Chabot): "بدأت النصوص المكتوبة بالبونيقية مترجمة عن النصوص الأصلية المقدّمة باللغة الليبية"^(٢٧). وهذا ما يؤكد أول ازدواجية لغوية (ليبية وبونيقية) عرضها اللسان الأمازيغي ، وهذا أثناء فترة الوجود الفينيقي في شمال إفريقيا ، وينفي اندماجهم الثقافي كما أثبتته وأظهره شاكرك (Chaker) حين أحصى بعض الأسماء لحكام البربر كـ: "يوبا JUBA ، غايا GAYA ، يوغرطا JUGURTHA وماسينيسا MASSINISSA"^(٢٨). وهي أسماء موجودة كلها عند التوارق حالياً.

(ب) علاقة الأمازيغية بالإغريقية:

دخلت اللغة الإغريقية اليونانية إلى شمال إفريقيا ابتداءً من القرن السابع قبل الميلاد ، وكان الإغريق متركزين بكثرة في سيرتا ، وكان استعمال اللغة اليونانية رسمياً في الحياة العملية والعلمية. فلذلك توجّب على رجال النخبة من البربر كمهندسين ورسامين وموسيقيين تعلم الأبجدية الإغريقية ، ومن بينهم ميسيسا وماسطنبال (Mastanbel)^(٢٩) والدليل على ذلك "المسلات والنصب التذكارية المنقوشة بالحروف اليونانية والتي وُجدت في معبد الحفرة"^(٣٠). بالإضافة إلى ١٣٠ لقباً ذي أصل إغريقي والذي تمّ التنقيب عنها في نفس المنطقة^(٣١) من طرف علماء الآثار.

استبعدت الدراسات التاريخية حقيقة تفتح البربر وذوبانهم الكلي في ثقافة الإغريق ، ومن جهة أخرى أكدت على احتمال تأثر الأقلية من حكام البربر باللغة اليونانية. وإن صحة وجود اللغة الإغريقية بشمال إفريقيا لا شك من وقوعها لما فيه من بقايا أثرية مادية كتلك التي وُجدت منقوشة في المعابد وعلى الأضرحة. ولكنّ الدرس اللغوي ينفي أية علاقة لغوية تأثرية بين لغة الإغريق والبربر ، لأنّ تطور اللغة واللهجة يحمل في طياته أصولاً لبعض الكلمات المأخوذة أو الدخيلة.

(ج) علاقة الأمازيغ باللاتينية:

بدأ الرومان في احتلال شمال إفريقيا سنة ١٤٦ ق.م. فوجدوا مقاومة بربرية قوية ، خاصةً بالمناطق الجبلية والداخلية^(٣٢). كما انتهج الرومان سياسة تستهدف المواقع الريفية لغرس اللغة اللاتينية ، لأنّ البدو أقل الجماعات اللغوية « Communauté Linguistique » تعرضاً للتأثير والتأثر والأكثر تمسكاً بعاداتهم وثقافتهم. ولكن هذا الاستعمار فشل في سيطرته على المناطق المستهدفة ممّا دفع الرومان إلى طرد البربر من المدن نحو الأرياف والصحاري. وكان هذا يُدعى بـ"الهجّج التاريخي"^(٣٣) والذي قد صان الأغلبية الساحقة من البربر من التكلم باللغة اللاتينية.

إنّ الواقع التاريخي المتمثل في الغزو الروماني المستبد يُوحى بأنّ البربر رفضوا ثقافة ولغة المستعمر الذي استطاع حينذاك أن يُثبتها في المدن الكبرى ولو بشكل نسبي. وتَمَّ ذلك عن طريق قوانين كانوا قد أتوا بها من بلادهم والتي لا تخدم مصالح البربر وخاصة الذين يعيشون

في المدن حيث فُرضت اللغة البونيقية من قبل ، بسبب تعاملهم الرسمي في الإدارات والمحاكم. ونتج عن هذا التنوع اللغوي ما يُسمى في علم اللسانيات "ثلاثية اللغة"^(٣٤) (Trilinguisme) بين الليبية والبونيقية واللاتينية. وهذا لا يُراد به اندماج وذوبان البربر في لغة الغير ، بل الحفاظ على المصالح العليا لأقلية أمازيغ المدن جعلتهم يتصنعون في تكلمهم باللغة اللاتينية. وأكد هذا ابن عبو بقوله: "أثناء تواجده في شمال إفريقيا جعل الحكم الروماني من تعدّد اللغات قاعدة ... وتعايشها يتحقق إلا برغبة الفرد في التعلم والتكلم بهذه اللغات معاً"^(٣٥). وحتى الأبحاث الأثرية الليبية أعطت كالعادة دليلاً مادياً بتمسك البربر بلغتهم والذي أوضحته النقوش الموجودة على المعابد كـ (ضريح ماسينيسا بالخروب وضريح أبنا لس بمقبرة تِن هِنّا ...) ^(٣٥).

يُعتبر الاستعمار الروماني المسؤول الرئيسي في زعزعة الكيان الحضاري البربري بحصاره له وتهميشه لثقافته ولغته ، فالأمازيغ استضعفوا بالاستعمار وبالاحتلال المتتالي عليهم ، وهو الشيء الذي جعل اللغة الخطية المكتوبة تندثر وتتحول إلى لهجات منطوقة. فمهما يكن ، فإنّ عودة اللهجات الأمازيغية إلى طبيعتها وصفتها الأولية (الشفوية) جعلت شخصية الأمازيغي تنزّن بتطويرة لثقافته وبضبطه للغته وترقيتها والتي من المفروض أن تكون لها قواعدها الخاصة بها ، وهذا لا يعني أنّ اللغة الأمازيغية لم يكن لها نظامها الخطي الأبجدي ، "إنه قد ضُبط وأُحكم في القرن السادس قبل الميلاد"^(٣٦).

ومن هذا المبحث التاريخي للعلاقة اللغوية البربرية باللغات القديمة ، يُلاحظ أنّ هذه اللغات كانت دائماً وباستمرار في مكان الرفض من طرف البربر. وحتى التحاليل والأبحاث اللغوية أجمعت على أنّ اللهجات الأمازيغية الحالية خالية من الكلمات الدخيلة من بونيقية وإغريقية ولاتينية ولو أنّ هناك بعض الكلمات القليلة المستعملة حالياً كما اتضح في الجدولين السابقين.

(د) علاقة الأمازيغ بالعرب:

تُعَدّ اللغة العربية أكثر اللغات الرسمية انتشاراً في شمال إفريقيا. وإذا كانت قد نشأت في آسيا وانتشرت في غربها بعد الفتح الإسلامي ، فانتشارها زاد مع مرور الزمن بصورة سريعة حتى أصبح أبناء العربية في المغرب العربي كثيرين^(٣٧). وكانت درجة انتشار العربية متفاوتة من مكان إلى آخر ، وهذا راجع إلى اختلاف ظروف التعريب التي مرت بها كلّ منطقة من مناطق شمال إفريقيا الذي يتميز بشساعة موقعه الجغرافي ، والذي عرف تعاقب الأمم العديدة بلغاتهم المختلفة والتي لم تجد مكانتها على لسان الأمازيغي ، وعلى عكس الأوائل ، قد تمّ قبول العرب من البربر بسهولة وأبدوا لهم رغبتهم في التعايش معهم وتعلم لغتهم.

إذن ما هي الأسباب والعوامل التي جعلت الأمازيغ يعتنقون باللغة العربية منذ الفتوحات الإسلامية الأولى إلى يومنا هذا؟ وما هي العلاقة الاجتماعية اللغوية بين البربر والعرب؟

(١) العامل الديني:

إذا ما تصفحنا الكتب التي قامت بدراسة تاريخ البربر ، سواء كانت أوربية أو عربية أو مغاربية ، يمكننا استخلاص أنها تتفق على أن سبب سرعة انتشار اللغة العربية يعود بالدرجة الأولى إلى علاقتها الوطيدة بالدين الإسلامي الذي اعتنقه الأمازيغ بفضل الفتوحات الإسلامية ، إذ "امتزج العرب بالبربر في أمة واحدة"^(٣٨). وانتهجوا

سياسة السلم والمحبة والمودة والتآخي بينهم. تجسيمياً لقوله: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ} (٣٩).

لقد أقبل البربر على الإسلام جمّة عندما أدركوا أنه يرفع عنهم ظلم المستعمر البيزنطي (٤٠)، وكان هذا منذ الهولة الأولى لأن الاستعمار البيزنطي قد فرض عليهم الجزية وضريبة العقار. فزادت "رغبتهم في مزايا هذا الدين" (٤١)، واندمجوا فيه بسرعة وهذا منذ أن شرع في إرسال البعثات العلمية إلى شمال إفريقيا لخدمة الإسلام. لأن معتنقيه لا يفهمون شريعة هذا الدين إلا بتعلم لغة القرآن الذي نزل {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} (٤٢) و كقوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} (٤٣).

وهذا لنشر الثقافة الدينية، وتعليم الناس الفرائض، والحلال والحرام. فساهم البربر بدورهم في الفكر الإسلامي بترائهم الذي كُتب باللغة العربية الفصحى بحيث أدركوا بوعيهم الإسلامي - لا إسلام بدون قرآن ولا قرآن يُدرك ويُفهم جوهره بدون لغة عربية فصيحة (٤٤). دون أن يهملوا اللغة الأم والاعتزاز بها وعدم تعصبهم لها. وهناك جماعة من البربر ذهبت إلى حد بعيد في إسلامها فاعتمدت الإباضية مذهباً لها. فمثلاً أن منطقة وادي ميزاب (والتي هي محور هذه الدراسة اللغوية) منذ القديم، قد انطلقت من الواقعة القرآنية الثابتة وعلومها لأن القرآن الكريم هو الأصل فلا يمكن فهمه وإدراك أسرار علومه وبلغته إلا بتعلم اللغة العربية الفصحى الخالية من اللحن. فمن هنا يتضح أثر اللغة العربية في المؤسسات الثقافية، لاسيما في المساجد التي جسّمت هذه الحقيقة في كتابات الأطفال الصغار. وفي هذا الشأن يقول محمد علي دبوب (إن الميزابي يعني بحفظ القرآن كل الاعتناء، إنه أساس العربية والدين، وبعني كذلك بتعلم العربية اعتناء كاملاً، فمن لا يعرف العربية الفصحى من العلماء لا يحض في ميزاب بأي احترام...) (٤٥). إذن إن تعليم القرآن والشريعة والفقه لا يمكن أن يُستوعب بدون تعلم اللغة العربية وهذا ما جعل البربر يتعربون.

(٢) العامل الإنساني السلوكي:

قد اعتُبر العرب في بداية الأمر غزاة دخلاء فقاومتهم قبائل البربر مقاومة عنيفة، ثم انقلب الحال وإذا بالعرب يُنظر إليهم كمحررين لشعب الجزائر من الاضطهاد البيزنطي (٤٦) الذي لم يترتب عنه إلا التأخر والانحطاط لأهل هذه المنطقة. فزرعوا فيهم الاستقامة والمساواة والعدالة الاجتماعية التي لم تكن موجودة إبان الاحتلال الفينيقي والروماني... فأروا فيهم "النقد الوحيد مما هم فيه من الميز العنصري والجور السياسي والفوضى الشاملة" (٤٧).

وكذلك هناك أحداث أخرى جعلت البربر يذوبون في الكيان العربي، ومنها كما يرى أبو القاسم سعد الله (٤٨) في مقارنته بين "الإنسان العربي" و "الإنسان الأمازيغي" التشابه الكبير في الأوصاف والسمات الخلقية والخلقية. وأكد عبد الرحمن محمد الجيلالي (٤٩) هذا التطابق في ملاحظته أن زناته وبرغواطة ونفوسة ولوانة و هوارة... كلها قبائل ذات تشابه كبير مع العرب في حياتهم وميولاتهم واتجاهاتهم. فمثلاً كلاهما، العربي والبربري، يكره السلطة والتسلط وكلاهما محب للحرية إلى حد كبير. وعلى هذا المستوى تجمعت العوامل كلها لتصنع من العامل اللغوي عنصراً أساسياً في التواصل اللغوي اليومي بين العرب والأمازيغ، وهذا ما زاد في تدعيم الأواصر اللغوية بين الفئتين بحيث استطاع الأمازيغ أن يتقبلوا اللغة العربية لأنهم لم يكونوا مجموعة لغوية متميزة (٥٠).

لم تكن لغة الأمازيغ لغة راقية ذات ثقافة وحضارة في المستوى الذي يمكنها أن تقف في وجه أية لغة. لقد كانت لغة التخاطب ولم يكن لديها تراث مكتوب يحفظها (٥١). وهذا مما زاد في انتشار تعريب البربر الأوائل لأنه لم يكن يوجد لديهم يومئذ مدينة سالفة تتركز على لغة متينة وآداب متصلة راسخة الجذور، أو فلسفة عريقة ذات مقومات تستطيع أن تقف في وجه الفاتح ولغته فتقاومهما (٥٢). فلماذا هجر البربر لغتهم وبادروا بتعلم اللغة العربية حتى طفت على لغتهم. وأوضح برهان على هذا هو معجزات البيان على لسان القائد البربري طارق بن زياد النفري (٥٣) في تلك الخطبة المؤثرة البليغة التي سجلها التاريخ، وهي خطبته أمام جيشه المغوار يوم تقدم به لفتح الأندلس.

وكانت الموجة الثانية من نزوح العرب على المغرب العربي عامة والجزائر بالأخص بمثابة الخطوة الجبارة لتعريب الأهالي، وكان هذا في القرن ١١م عن طريق قدوم الهلاليين الذين كانوا يتكلمون بلهجات عربية بدوية. حيث توغلوا في القرى والأرياف وخاصة الجنوبية منها، فساعدوا البربر في تعريبهم. ويرى عبد الرحمن الجيلالي (٥٤) أن هذا المنطلق التاريخي هو البداية الجديدة لفساد اللسان الأمازيغي وحتى العربي، وهذا عن طريق تداخل الألفاظ بين اللهجات الأمازيغية والعربية من جهة، وبسبب اقتباس وتداخل الأصوات اللغوية بينهم من جهة أخرى، وبالتالي ظهور التغير اللغوي تدريجياً.

وقد أوضح فليب مارسيه (Philippe Marçais) هذا الخلط اللغوي الذي أنتجته التوصلات اللهجية العديدة والتي كانت سائدة خاصة ما بين فترة الفتوحات الإسلامية والهجرة الهلالية. واعتبره بـ "الدلالة التاريخية القاطعة في حدث الجماعة اللغوية" (٥٥). وأما عرب الأندلس الذين جاءوا فارين من إسبانيا واستقروا في سواحل المغرب العربي فقد كان لهم تأثير قوي في تعريب بربر الشمال المتمركزين في السواحل. وحتى الوجود العثماني والاحتلال الفرنسي كان سبباً في تمتين العلاقة بين العرب والبربر الذين أزيحوا من أراضيهم الخصبة ليحلوا محلهم. وهذا ما جعل البربر ينحازون أكثر للعرب وللغتهم.

الهوامش والإحالات:

(١) ينظر:

Julien, (Ch. A), « Histoire de l'Afrique du nord - Tunisie, Algérie et Maroc ». Tome I, Des origines à la conquête Arabe (647 Après J.C), Coll. « Bibliothèque Historique » 2^{ème} ED. Payot, Paris 1964. Page 59

(2) ينظر:

F. Decret et M. FANTAR, : « L'Afrique du Nord dans l'antiquité », Histoire et civilisation des origines au V^{ème} Siecle, Ed. Payot, Paris 1991. Page 17

(3) أبو القاسم سعد الله: "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر". ش.و.ن.ت، الجزائر ١٩٧٨. ص. ٦٠.

(4) بلعيد صالح: "في المسألة الأمازيغية". دار هومه. ط.ن.ت. الجزائر ١٩٩٩. ص. ٢٨.

(5) ينظر: Julien, Ch. A. op. cit. page 10

(6) عبد الرحمن محمد الجيلالي: "تاريخ الجزائر العام"، الجزء الثاني، بيروت ١٩٨٢. ص. ٣٥.

(٧) ينظر:

- F. Decret et M. Fantar : « L'Afrique dans l'antiquité », op. cit. ينظر: (٣٠)
 F. Decret et M. Fantar : « L'Afrique dans l'antiquité », op. cit. p. 113
 « L'Afrique dans l'antiquité », op. cit. p. 140
 A. LAROUÏ : « L'histoire du Maghreb », op. cit. p. 06 (33) ينظر:
 Gautier, E. F. : « Le passé de l'Afrique du nord » op. cit. p. 143
 BENABOU, M. : « La résistance africaine à la Romanisation (35) ينظر: », op. cit. p. 70
 BENABOU, M. Ibid. p. 269
 F. Decret et M. Fantar : « L'Afrique dans l'antiquité », op. cit. p. 346 (٣٦) ينظر:
 « L'Afrique dans l'antiquité », op. cit. p. 346 (٣٧) د. محمد فهمي حجازي : " علم اللغة العربية " مدخل تاريخي مقارنة في ضوء التراث و اللغات السامية. الكويت. ١٩٧٣. ص. ٢٧١
 (٣٨) لقبال موسى : " المغرب الإسلامي " المرجع السابق. ص. ١٢٥
 (٣٩) القرآن الكريم ، سورة الحجرات. الآية ١٣
 (٤٠) لقبال موسى : المرجع السابق. ص. ١٣٨
 (٤١) المرجع نفسه : ص. ١٧٩
 (٤٢) سورة الشعراء: الآية ٣
 (٤٣) سورة الزخرف : الآية ٣
 (٤٤) بكير بن سعيد أعوش : " ميزاب يتكلم تاريخيا - عقائديا - اجتماعيا " ط. غرداية ١٩٩٣. ص. ٤٤
 (٤٥) محمد علي دبوز : " نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة " ج ١ ، ط ١ المطبعة التعاونية ، دمشق ١٩٦٥. ص. ١٢٥
 (٤٦) علي الشلقاني : " ثورة الجزائر " ط. القاهرة. ص. ٩٥
 (٤٧) ينظر:
 Gautier, E. F. : « Le passé de l'Afrique du nord », op. cit. p. 244
 (٤٨) أبو القاسم سعد الله : " أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر " المرجع السابق. ص. ٧
 (٤٩) عبد الرحمن الجيلالي : " تاريخ الجزائر العام " المرجع السابق. ص. ١٤٠
 (٥٠) ينظر:
 A. HANOTEAU : « Essai de grammaire Kabyle », op. cit. p. 03
 (٥١) ينظر:
 Bousquet, G.H., « Les berbères », op. cit. p. 83
 (٥٢) د. إحسان حقي : " الجزائر العربية " ج ٢. بيروت ، ١٩٦١. ص. ١٨
 (٥٣) لقبال موسى : " المغرب الإسلامي " المرجع السابق. ص. ٢١
 (٥٤) عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق. ص. ١٤٢
 (٥٥) ينظر:
 MARCAIS Philipe : « Esquisse grammatical de l'arabe Maghrebin », Librairie d'Amérique et d'orient, Paris 1977, p. 08

الدكتور حجوي غوني في سطور:

- Doctorate in literature, April 2009
- Magister (Master) in dialectological studies, October 2000.
- Licence in languages and British literature (Bachelor of Art in English language), 1990.
- Teaching Certificate (Teaching English in secondary school), January 1994.
- Baccalaureate: literature, June 1985.

Salem Chaker : « Langue berbère et influence française ». Le point sur une question délicate, présence francophone, n° 40, 1992. p.p 79 - 80

(٨) ينظر:

Julien, (Ch. A), « Histoire de l'Afrique du nord - Tunisie, Algérie et Maroc ». Tome I, Des origines à la conquête Arabe (647 Après J.C), Coll. « Bibliothèque Historique » 2^{ème} ED. Payot, Paris 1964. Page 59

(٩) ينظر:

M.A. HADDADOU : « Guide de la culture et la langue Berbère ». ENAL, ENAP. Alger 1998. Page 22

(1٠) ينظر:

HADDADOU, M. A., op. cit. p. 23

(١١) ينظر:

Gautier, E. F. : « Le passé de l'Afrique du nord ». Le passé reculé. Coll. « Bibliothèque historique ». ED. Payot, Paris, 1952. p.p 24 - 25

Julien, (Ch. A), « Histoire de l'Afrique du nord ». Op. cit. p. 17

(١٣) ينظر: Ibid, p. 10

(١٤) بلعيد صالح : المرجع سبق ذكره. ص. ١٩

(١٥) مبارك محمد الميلي : " تاريخ الجزائر في القديم و الحديث " ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٦. ص. ٩٢

(١٦) لقبال موسى : " المغرب الإسلامي " منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج ، سياسة و نظم قسنطينة ١٩٦٩. ص. ١٦
 (١٧) المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

(١٨) مبارك محمد الميلي : المرجع سبق ذكره. ص. ٤١

(١٩) عبد الرحمن محمد الجيلالي : المرجع سبق ذكره. ص. ٣٥

(٢٠) أبو القاسم سعد الله : المرجع سبق ذكره. ص. ٧

(٢١) ينظر:

Bousquet, G.H : « Les berbères ». Coll. « Que sais-je ? » n° 718, 3^{ème} Ed. P.U.F., Paris, 1967. p. 10

HADDADOU, M. A., op. cit. p. 31

(٢٢) ينظر:

(٢٣) ابن خلدون: " المقدمة " تحقيق علي عبد الواحد وافي ، ٤ مجلدات، ط ٢. القاهرة ١٩٦٧. ص. ٦٨٤

(٢٤) ينظر:

HADDADOU, M. A., op. cit. p. 13

(٢٥) ينظر:

A. LAROUÏ: « L'histoire du Maghreb ». un essai de synthèse, Ed. F. Maspéro, Paris 1970. p. 06

(٢٦) ينظر:

Julien, CH. A., « Histoire de l'Afrique du nord ». op. cit. p. 59

(٢٧) ينظر:

Chabot, (J.B.), : « Recueil des inscriptions libyques ». Imprimerie Nationale. Paris, 1940. p. 03

(٢٨) ينظر:

Salim Chaker : « La situation Linguistique dans le Maghreb antique : Le berbère face aux idiomes extérieurs ». Libyca, tome 28, 1981. p. 141

(٢٩) ينظر:

St. Gsell : « Histoire ancienne de l'Afrique du nord », 4^{ème} Edition. Ed. Hachette, Paris 1920 - 1930. (6 tomes) p. 117

الزخرفة على الخشب في المعمار الفاسي: الفترة المرابطية والموحدية وبداية الفترة المرينية

LE décor sur bois dans l'architecture de Fès : époques almoravide, almohade et début mérinide



المؤلف : كاترين كومبازار أمهان Catherine Cambazard-Amahan
الناشر: المركز الوطني للأبحاث العلمية
تاريخ النشر: الطبعة الأولى ١٩٨٩
عدد الصفحات: (٢٤٠) من الحجم المتوسط

عرض

د. عبد الباسط المسنعين

كاتب وباحث في تاريخ المدينة المغربية
المملكة المغربية

abdelbasset73@yahoo.fr



تعريف بصاحبة الكتاب

كاترين كومبازار أمهان ، متخصصة في تاريخ الفن الإسلامي ، شغلت مهمة محافظة بمتحف البطحاء بفاس من سنة ١٩٨٠ إلى سنة ١٩٨٨ ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى البحث في المتحف الأثري بالرباط ، وقد تقدمت بمناقشة أطروحتها في جامعة باريس ٤ سنة ١٩٨٥ ، في موضوع: " تطور الزخارف المعمارية على الخشب بفاس من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر " ، كما ساهمت بعدة مواضيع ضمن المصنف الضخم المختص في الفنون المعمارية: " Palais et demeures de Fès " (القصور و المنازل بفاس) ، خاصة ما ارتبط منه بالحقة العلوية ، ولها عدة مقالات في مجال العمارة وفنونها بمجلات مختلفة.

محاور الكتاب

- ١- تقديم تاريخي.
- ٢- مكانة الخشب في كرونولوجيا الفن الفاسي.
- ٢- دراسة القطع المرابطية أو العوامل الجديدة للفن الفاسي:
 - ما قبل سيادة التأثيرات الأندلسية
 - الخشب المرابطي
 - البرونز المرابطي بفاس
- ٣- دراسة الخشب الموحدية:
 - حكم الموحدين أو الوحدة السياسية والفنية للمغرب والأندلس
 - الخشب الموحدية
- ٤- دراسة الخشب المريني:
 - باكورة تألق الفن المعماري الفاسي
 - أفاريز
 - العناصر المعمارية لفندق الشماخين
 - ثلاثة أعمال مختارة

وقد أرفقت هذه المحاور ببيان فهرس الموضوعات وتصدير بقلم GOLVIN LUCIEN ثم مقدمة لصاحبة الكتاب فإيضاح لرموز الاختصارات المستعملة في الكتاب ، وأسدت ستار مصنفها بخاتمة عامة وملحق الكتابات المترجمة للآيات القرآنية المخطوطة في بعض الشواهد المدروسة ، ثم عرض لبيبلوغرافيا الدراسة ، فمعجم بسيط شرحت من خلاله بعض المفردات العربية التي استعملت في الكتابة ، ففهرست عام للأعلام والأماكن وغيرها ، وفي الأخير عرض لاثنتين: الأولى خاصة بالرسوم والأشكال ، والثانية بالصور واللوحات التي وظفتها الكاتبة في دراستها.

محتوى الكتاب

حاولت صاحبة الكتاب منذ الوهلة الأولى أن تحصر اهتمامها في المجال الفني وما يرتبط به من زخرفة على الخشب في العصور المرابطية والموحدية وبداية عصر المرينيين بمدينة فاس ، إلا أن هذا لم يمنع في معرض التحليل أن تتطرق لمراحل زمنية لاحقة وأخرى سابقة من أجل وضع كل تطور في سياقه التاريخي ، كما أن ذلك لم يمنع أيضاً من توسيع دائرة التحليل أحيانا ليشمل الظروف السياسية وانعكاسها على مجال العمارة بشكل عام ، والتعرض تارة أخرى إلى الزخرفة على البرونز أو العاج من أجل الربط بين عناصر الدراسة واستخلاص قواعد معينة.

كما دعت ضرورة التحليل إلى تمديد المجال في جميع الاتجاهات: في الشرق إلى حدود تلمسان والقيروان ، وفي الجنوب إلى مراكش وفي الشمال إلى مختلف مراكز الحضارة الأندلسية (قرطبة - سرقسطة - غرناطة...) ، ومن ثم فإن موضوع هذه الدراسة جاء غنياً بالأفكار والملاحظات.

في البداية ، ومن خلال **الفصل الأول** تعرضت مؤلفة الكتاب إلى تقديم تاريخي بسطت من خلاله تمهيدا لدراساتها بينت من خلاله مكانة الخشب في تاريخ الفن الفاسي ، تعرض إلى:

أولاً: المعطيات الطبيعية الكامنة في المؤهلات التي يخولها موقع مدينة فاس كمنطقة فلاحية مهمة تتوفر على مواد أساسية كحاجار الملح ، والطين ، والحجر ، والجير ، والرمل ، ثم غابات الأرز المجاورة. وتطرق بعد ذلك إلى أهمية موقع المدينة في ملتقى



المظفر كنانب عن أبيه المنصور، وزير قرطبة، بعدما دخل فاس سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م. وقد تركزت جل منجزاته حول جامع القرويين، حيث أتم قبة عند مدخله وجعله بمنبر من خشب. وبدون شك فقد أشرت فنيون أندلسيون في هذا الإنجاز حتى أن هذا المنبر يبدو كما أشار إلى ذلك طيراس (H. Terrasse) كأنجاز أندلسي.

إن تحليل هذه الأخشاب التي تنتمي إلى حقة الوسيط الأعلى تبين أسبقية الهيمنة الشرقية في فاس طيلة القرن ١٠م، رغم الحضور الثابت للخطوط. وانطلاقاً من نهاية القرن ١٠م ستصبح التأثيرات الأندلسية واضحة المعالم في الفن الفاسي.

أما **الفصل الثاني**: فتناولت فيه الكاتبة دراسة قطع الخشب المرابطية أو العومل الجديدة للفن الفاسي، وتضمن ما يلي:

ما قبل هيمنة التأثيرات الأندلسية: ففي النصف الثاني من القرن ١١م دخل المرابطون إلى فاس وعملوا على توحيد عدوتي المدينة تحت سور واحد، وقد اشتهر يوسف بن تاشفين كأحد أكبر البنائين في تاريخ المغرب، وحققت المدينة في عهده إقلاعا اقتصاديا انعكس في جملة من الإنجازات العمرية منها قسبة بوجلود والمساجد بجميع الأحياء ثم شبكة القنوات والمطاحن والحمامات والسقايات والفنادق، فضلاً عن تنظيم الأسواق. ومنذ أن سيطر المرابطون على الأراضي الأندلسية دخلت هذه الأخيرة في علاقات حميمة مع المغرب وأخذت تمنحه طرزها الفنية، وزودته بالحرفيين المتمرسين، وقد ذكر الجزنائي استقدام يوسف بن تاشفين للعديد من هؤلاء من قرطبة إلى فاس قصد بناء أو استصلاح العديد من المنشآت. وقد سار علي بن يوسف على نفس منوال أبيه في التشييد والبناء، واهتم خاصة بعدوة القرويين حيث عمل على توسيع المسجد سنة ٥٢٩هـ إلى ٥٣٦هـ/١١٣٥م إلى ١١٤٢م. وفيها يتعلق بالخشب أنجز بابين في غرب المسجد: باب العدول سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م، وباب الشماعين ٥٢٨هـ/١١٣٣م أو ١١٣٤م، إضافة إلى باب الورد وباب الجنائز وباب السبطين، وهي أبواب عرفت ميلاد صناعة البرونز الأندلسي المغربي. كما تم إنشاء العنزة سنة ٥٢٤هـ، لكنها ضاعت وعوضت بأخرى مربية تم منبر مؤرخ بسنة ٥٣٨هـ، وهو مصنوع من خشب الصندل والعباب والبرتقال والأبنوس، وهو معطل حالياً ولا يستعمل إلا في المواقف.

الأخشاب المرابطية: تناولت المؤلفة هنا عدة نماذج من القطع الخشبية وحاولت تفكيك عناصرها الزخرفية وقد خلصت إلى النتائج التالية:

مساهمة الأندلس في الفن الفاسي: حاولت أن تبين بدقة العناصر التي استفادت فاس عبر القطع الخشبية المرابطية من التيارات الفنية الأندلسية، فالزخرفة النباتية الدقيقة في انتظامها بواسطة إطار، والسجل الذي تضمن تطور أشكال الفن المعماري الكبرى، يظهر قرابة وثيقة مع المذهب الفني للجعفرية بسرقسطة. وفي مجال الأشكال النباتية، يبدو أحد الأنواع كامتداد للأشكال النباتية الأندلسية خلال القرن ١٠م و ١١م: الورقة الطويلة غير المتماثلة، كما في المثلث المقوس أو المنعطف الذي يظهر كنصف أفنة، وحيث القاعدة تنحرف إلى حلقة دائرية والمنقوشة على العاج الأموي والجعفرية بسرقسطة. والورقة البسيطة المتماثلة سواء كانت مجوفة أم لا، في المحور وفي المصبعات المكسدة، حلت أيضاً محل مجموعة الجعفرية. إنها تتطابق مع الأوراق الخمس لمدينة الزهراء والتي تتركز بمصعبات القويس

المحاور الرابطة بين الشرق والغرب عبر مضيق تازة وبين الجنوب والشمال (بين إفريقيا جنوب الصحراء والسواحل المتوسطية). هذا فضلاً عن وفرة المياه من العيون وروافد واد فاس.

ثانياً: سياق تأسيس الدولة الإدريسية.

ثالثاً: تأسيس مدينة فاس الإدريسية التي شكلت قطيعة في تطور المدن المغربية "إنها شكلت مدينة مشرقية في المغرب"، ثم قدوم حوالي ٨٠٠ أسرة أندلسية للاستقرار بها سنة ٢٠٢هـ/١٨م - ٨١٧م بعد ثورة الربض بقرطبة، وبعد ذلك بقليل وفدت ٣٠٠ أسرة من القيروان فرارا من البطش الأغلب. هذه الوفود القادمة من أعرق وأكبر مركزين حضاريين بالغرب الإسلامي، قرطبة والقيروان، أثرت على المدينة بشكل واضح وخاصة على "مستوى تشكيل وتوجيه الفن الفاسي".

رابعاً: بفعل استمرار تدفق وفود من القيروان خاصة تحت حكم يحيى بن محمد بن إدريس الثاني (٢٣٤ - ٢٤٥هـ/٨٤٨ - ٨٥٩م) تسربت التأثيرات الفنية المشرقية. وقد شهدت هذه الفترة تأسيس مسجدي القرويين والأندلس سنة ٢٤٥هـ. وتحفظ لنا القرويين بقطعة خشبية مؤرخة بسنة ٢٦٣هـ/٨٧٧م، كشاهد فني على هذه التأثيرات. وهو الشاهد المعماري الوحيد الذي يخبرنا حول طبيعة الكتابة الإدريسية؛ لتخلص الكاتبة إلى الاستدلال على ظهور أولى التأثيرات الفنية الإفريقية على فاس خلال القرن ٩م.

خامساً: تعتبر المؤلفة الميلاذ الحقيقي للفن الفاسي قد حصل في القرن ١٠م، في فترة الصراعات الأموية الفاطمية للسيادة على المغرب الأقصى. هذا الصراع الذي انعكس على المجال المعماري من خلال الزيادة في مسجد القرويين سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م من قبل الأمير الزناتي أحمد بن أبي سعيد المتحالف مع الأمويين: (مثلت منارة القرويين جزء من التأثير الأندلسي - وفي أجزاء أخرى منها - القبة بالجزء العلوي - بالطراز الإفريقي، ثم كوة بثلاث قويسات في الواجهة الجنوبية تبين انتقال التأثيرات العباسية عبر إفريقية...). وبعد تدخل أمويي الأندلس في فاس بواسطة الغالب، القائد المكلف من قبل الحكم الثاني سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م، وإعلان هيمنتهم على الشمال المغربي. ثم انتقلت فاس سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م إلى هيمنة بلكين بن زيري أمير مملكة صنهاجة المتحالف مع الفاطميين. وقد انعكست السيادة الأموية الفاطمية على المغرب الشمالي وأفرزت وثيقة تاريخية نفيسة هي منبر مسجد الأندلس بفاس، المؤرخ ب ٣٦٩هـ/٩٨٠م. ويكتسي هذا المنبر دلالة خاصة، فهو يؤكد الوجود السابق لحرفة الاشتغال على الخشب من نقش وصباغة وغيرها، حيث تجد بعض الطرز من الفن الفاسي في القرون اللاحقة أصالتها في هذا العمل. وقد ربطت كاترين كومبازار الزخارف الخشبية لهذا المنبر بقطعتين خشبيتين محفوظتين بمتحف البطحاء، وهي الوثائق المعمارية المبنية الوحيدة التي ترجع إلى القرن ١٠م بالمغرب الأقصى، وتؤرخ لميلاذ أول فن مغربي انطلاقاً من فرضية التأثيرات المختلفة.

سادساً: إذا كان منبر مسجد الأندلس يمثل مرحلة ما قبل هيمنة التأثيرات المشرقية، فإن المنبر المندثر لمسجد القرويين المنجز في العهد العامري قد مثل المميزات الأندلسية في ظل منجزات



أما الفصل الثالث: "الحكم الموحدى أو الوحدة السياسية والفنية للمغرب والأندلس"، فانطلقت فيه الكاتبة من سؤال عريض: هل شكل هذا الفن قطعة مع الفن الخارجي أم استمرارا له؟ في معرض الإجابة عن هذا السؤال، وبعد فحص العناصر الزخرفية للقطع الموحدية المدروسة توصلت إلى عدة ملاحظات، مفادها أن هذه الوثائق (القطع) تشكلت من خشب منحوت أو مكتوب، وهو استعمال نادر في الفترة السابقة، غير أن هذا التفوق للعنصر الكتابي على العنصر النباتي هو وهي أكثر منه حقيقة، فالأشكال النباتية بتموضعها وتنسيقها تبدو كتشكيل لعمل كتابي مفسد بالعنصر الكتابي، ويتحول العنصر النباتي إلى دلالة كتابية. وإذا كانت الأخشاب المرابطة لا تكشف لنا أي تشابه على هذا المستوى، فإن البرونز بالمقابل يقدم لنا هذا الاستيعاب السابق للتفصيل النباتي في التفصيل الكتابي. لذا فإن النحاتين على الخشب في خدمة الموحدين ألغوا العديد من أعمالهم وهو ما يفسر الغياب الواسع للزخرفة.

وإذا استمرت الكتابة الكوفية في قبول الزخرفة النباتية، فإن هذه الأخيرة تقدم بشكل مختلف، خاضع للكتابة وتكشف الأخشاب الموحدية عن الغنى المدهش للمجسم، وخاصة التوفيق بين هذا الأخير والسلم الجديد للقيم: الحفر حيث كان الاستعمال محدود على القطع المرابطة، الذي شكل موضوعاً لأفضلية جديدة. ويكتسي هذا الحفر وظيفة مختلفة: إنه لا يحيط بتاتاً بالعنصر الكتابي الذي يفضل الفنان أن يعطيه قيمة، كما أدخل فنيو هذه الفترة وبكل مهارة لعبة الضوء والظل على العناصر الزخرفية سواء ثم إنجازها بالحفر (الساقات) أو النتوءات (الورقات). وتسجل الزخرفة النباتية الموحدية قطعة مع الإسراف الميسوط من قبل الأعمال المرابطة الذي يترجم بواسطة إلغاء الورقة ذات الجذور وتصبغات الأفتنة، ولثمة الصنوبر، فقائمة الزخارف ذات الجذور أو الحرشف التي تخفي الخطوط الأساسية، تكون غير مناسبة للبساطة المبحوث عنها، كما تم استبعاد بعض الأشكال الثانوية: النجمية، العقدية... وبالمقابل أعطيت النطاقات أهمية جديدة، محاطة أو مقطعة إلى قويسات صغيرة أو أيضاً قد ترسم محدبات كبرى لمساء. وإذا كانت أنواع الزخرفة النباتية ذات الهروحة تشكل تجديداً فإن الزخارف الأخرى نشأت عن تقليد محلي أصيل والذي يظهر سواء معدلاً (ورقة ذات الكأس — ورقة مزدوجة) أو بحالته الأولية (ورقة لمساء — قوس نباتي...). والترابطة الزخرفية التي تقدمها النبتة المرابطة على الخشب، تحققت في هذا العهد ليس بفواصل مستوى تفاصيل النوع النباتي، ولكن بالجمع بين مجسمين مختلفين: الحفر والنحت بنتوءات.

التأثيرات الخارجية: بعد طرح عدة أسئلة في هذا الصدد وافترض بعض الأجوبة أو الاحتمالات الممكنة، خلصت الكاتبة إلى أنه "سواء كانت الأندلس أم المشرق أم هما معا، فإن هذه التأثيرات نفذت بكل تأكيد".

وفيما يخض القيمة الوثائقية للأخشاب الموحدية سجلت صاحبة الكتاب ندرة هذه الأخشاب المعدادة: في مصلى الكتبية وبعض الأفاريز على طول مستوياتها، والموائد الحاملة للمداخل في مسجد الأندلس كنوع من تسقيفة مدخل جد مقربة التي تعد من بين القطع النادرة في الاستعمال المعماري، تضاف إليها بعض اللقى، مما يضيف عليها طابعا خاصا وأهمية كبرى.

الأعلى، والورقة البسيطة غير المتماثلة، والطويلة والمثلثة، والورقة المزدوجة في قويسات جد متباينة وغير المتساوية، تكررت في فن ملوك الطوائف. هذا الشكل النباتي الأخير بجذور منفصلة كما في جذور الأفتنة، التي وجدت من قبل في صهريج المدرسة بمرآش، و هو ترجمة لطيات قويسات ورقة الأفتنة الأموية لمدينة الزهراء وقرطبة والتي يجسدها العاج الأموي، لكن أطراف قويسات بعض الأوراق مسننة بواسطة سلسلة من الوريقات للمساء بدون جذور.

معالجة قاعدة الورقة البسيطة شكلت تأييداً لأساليب الأنساق الناضجة في الأندلس، مثل الكأس المصنوع من ورقتان قصيرتان لوزيتا الشكل، مجوفتان والقريب جداً من تلك الموجودة بقوة في مدينة الزهراء والجعفرية بسرقسطة، والكأس ذو الجذور الذي يغلف قاعدة الورقة المتماثلة أو غير المتماثلة يبدو محرفاً عن وعاء الورقة البسيطة المتجلية في صهريج مراكش المشكلة من اثنتين من القويسات الحادة المزينة داخلياً بالتصبغات.

إن أوجه الشبه التي يمكن أن نكتشفها على مستوى تفاصيل الزخرفة لا تذهب أبداً إلى حدود التطابق المطلق. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل التاريخية التي أدت إلى إعداد الفن الفاسي والقدرة الإبداعية المحلية وكذا مسار استيعاب التأثيرات الخارجية.

وبعد دراسة خمسة عشر ١٥ قطعة خشبية، تخلص الكاتبة إلى أن الفن الفاسي في العهد المرابطي عرف امتداداً ليس فقط لفن ملوك الطوائف، ولكن أيضاً للفن الأموي بقرطبة، وتستخلص أنه إذا كان السلاطين المرابطون قد حكموا الأندلس، فإن الأندلسيين بدورهم غزوا المغرب ثقافياً. وانطلاقاً من هذه الفترة أصبحت التأثيرات الفنية تقد إلى المغرب من الأندلس عوض المشرق.

استيعاب العناصر الزخرفية الموروثة عن الفن الفاسي الأول: إن زخرفة الأخشاب الأولى المرابطة المنسقة بواسطة مجالات زخرفية مرتبطة بعقد التشبيك الزهري المتداخل بواسطة إطارات مزينة بخطوط مسننة بأسنان جميلة، تذكر بجمالية المنبر الزيري: فالفن الفاسي الأول خلف لنا عدداً من العناصر التي نجدها جد قريبة أو مترجمة إلى أسلوب جديد على القطع المرابطة.

أما التجديدات الخاصة لهذا الفن في العهد المرابطي، فتظهر على مستوى بعض الأنواع النباتية، فالورقة البسيطة المتماثلة بكأس حيث الظل يقربها أحيانا من كوز الصنوبر والورقة المزدوجة بقويسات شبه متساوية ومتشعبة، كلها من إبداعات هذه الفترة، وإن البحث عن النوعية في هذا المجال وصل إلى الحد الأقصى واتسم بتبني مصبغات الأفتنة منذد واستعمال تمويهات الظل والضوء في هذا الوقت يعكس هذا الأسلوب طريقة أصيلة: أية ورقة لا تشبه الورقة المنحوتة في بعض البناءات وأي شكل نباتي لا يتكرر، بل كل عنصر يشكل مادة للتنوع والأصالة.

إن القطع الخشبية المدروسة المنتهية لهذه الفترة (ق ١٢ م)، تكتسي أهمية خاصة فهي ذات قيمة جد نفيسة بالنسبة لتاريخ الفن بمدينة فاس، أخذنا بعين الاعتبار تصدي الموحدين لمخلفات المرابطين وطمسهم لتجسيماتهم. وقد أضافت الكاتبة فقرة خاصة بالبرونز المرابطي بمدينة فاس، محاولة الكشف على مدى التشابه والتكامل بين فني الزخرفة على الخشب والزخرفة على البرونز من خلال تبيان مدى مساهمة البرونز في تطور الزخرفة النباتية الأندلسية المغربية.



خصائص كل مرحلة أن تمهد لها بأرضية سياسية تستعرض فيها أهم الأحداث والتطورات السياسية وأحياناً الاقتصادية لكي تضع الظاهرة المدروسة في الإطار الذي أفرزها.

- حاولت صاحبة الكتاب أن تختتم كل فصل بملخص تجميل فيه أهم النتائج التي توصلت إليها بعد التحليل.

أهمية الكتاب وما يستفاد منه

- يعتبر الكتاب بحق دراسة تخصصية في غاية الأهمية ، وقفت على عناصر دقيقة في فن الزخرفة المغربية على الخشب خلال الحقبة المدروسة ، كما حاولت أن تشرح ظروف تشكل هذا الفن وتطوره والعوامل المؤثرة فيه.

- استطاعت صاحبة الكتاب من خلال دراسة الخشب كمادة معمارية ، ووثيقة تاريخية أن تربط بين الكشف عن بعض مظاهر الجامعة في البنايات الأثرية أو متحف البطحاء ، والذي استفادت منه كذلك ، وبين الظروف الداخلية والخارجية التي تطبعها بهذه السمة أو تلك. أي أنها ارتقت بالزخارف كمادة صماء إلى أداة حاولت استنطاقها والاستفادة منها.

- يعتبر الكتاب بحق خزاناً لمعطيات ومفاهيم فنية فريدة تعد مفتاحاً لدراسة الفنون الزخرفية الإسلامية عامةً ، والمغربية خاصةً ، وبدونها لن يكون لتناول تلك الزخارف معنى ولا لدراساتها نتيجة ، بل إن تلك المصطلحات في حد ذاتها تعتبر جزءاً من الدراسة وقراءة أولية للعناصر الزخرفية بإعطائها اسماً معيناً مثلاً الورقة المزدوجة - الورقة البسيطة - الورقة المتماثلة وغير المتماثلة....

- اختبار الحقبة التاريخية المدروسة: الفترة المرابطية الموحدية الفترة المرينية لم يكن وليد الصدفة ، وإنما انصب على فترات القوة والإشعاع في تاريخ المغرب ، ليس فقط على المستوى الفني ، وإنما كذلك على المستوى السياسي والاقتصادي والفكري وغيره....

- أما اختبار مدينة فاس ، فإنه رغم أن المؤلفة لم تقدم من داع للاهتمام بهذا المجال سوى ظروفها المهنية التي ساقته لتكون على رأس محافظة متحف البطحاء فاستدعى منها ذلك مزيد اهتمام انطلاقاً من المادة المتوفرة ، فإن الخير بتاريخ المغرب ، لا تخفى عليه أهمية مدينة فاس التي كانت تنعته المصادر في هذه الفترة بقطب رحي بلد المغرب ، فقد كانت العاصمة السياسية والاقتصادية والعلمية للعديد من الدول التي حكمت المغرب الإسلامي. ورغم فقدانها لهذا الامتياز في العهدين المرابطي والموحدي ، فإن ذلك لم يخصم من ومكانتها الإقليمية إدارياً وعسكرياً واقتصادياً ، مما جعلها تختزل جميع معاني التطور التي وصلت إليها الدول الحاكمة وفي جميع الميادين ، شكلت مركز استقطاب كبير ، كما نالت عناية فائقة. فلا غرابة أن اعتماد الخشب الفاسي خلال هذه الفترة يعكس لنا المدى الذي وصلت إليه الفنون المرتبطة به في كل أنحاء البلاد ، بل وفي أقصى تطورها.

أما الفصل الرابع ، فخصصته الكاتبة لدراسة الخشب المريني.

وذهبت إلى أن المرينيين أرادوا أن يستخلفوا الموحيدين ، فحاولوا أن يأخذوا في اعتبارهم سياسة الضخامة والتوسع نحو الشرق لتوحيد المغرب من جديد. هذا الخط في القيادة ، انعكس على الفن المعماري في التخطيط كما في الخصوصيات الزخرفية. ويبدو أن الفن المريني الأول في جميع تفاصيله كان الوارث المخلص للفترة الموحدية مع إدخال جديد للنبتة. هذه الجمالية النباتية الجديدة تظهر أساساً بواسطة مرونة الورقة ، هذه الأخيرة التي حملت قفزة جديدة كيفت مع دورها الخاص الذي يكمن في إتمام التفاصيل والاهتمام بالتنوع: "أية ورقة في الحقيقة لا تشبه الأخرى". وفي المجال النباتي هذا يظهر طابع الاستمرارية الموحدية ، لكن ربما بشكل تقريرتي لأن النبتة المرينية ستظهر بعد ذلك ، وارثة النبتة المرابطية ، على الأقل في الزخرفة المنحوتة ، بشكل رئيسي على مستوى الورقة ، في تصبغاتها وتطورها. من خلال نموذج فندق الشماخين ، وبعد دراسة بعض قطعه الخشبية توصلت كاترين كومبازار إلى أن الأخشاب المرينية تجربنا عن مصير الورقات الخمس "التي نستطيع إعادة رسم تطورها ، مرحلة بعد أخرى ، ثم الورقة غير المتماثلة ذات الكأس التي وصلت إلى إيقان بارع في التنفيذ تتجاوب معها أساليب الجمالية المنجزة ، شاهدة على مهارة المحترفات الفاسية في عهد أبي يعقوب يوسف. البحث عن الأثر المستمر لكونها مأخوذة كما في القرن ١٢م بواسطة معارضة المحدثات والاستمرارية التي تمنحها الورقة أو ثمرة الصنوبر تنتمي إلى مخططين للزخرفة. بعض التجديدات تركت منذ ذلك ظاهرة: امتداد الشرائط المشتبكة في الإطارات. وظهرت كذلك خدع المجسم في المجال الهندسي والنباتي مقترنة مع البحث عن تعارضات ملموسة في تعاقب الأشكال بالحفر وبالتنوءات. ومن خلال التعارضات العنيفة للظل والضياء ، أو بالميلولات المتعارضة بين التأطير ورفض الإطار. ومن جهة أخرى حاولت الكاتبة توضيح المناحي التي شكلت استمرار الاستيحاء من الفن الأندلسي خلال الفترة المرينية سواء منها المعاصرة أو الأكثر قدماً.

تقييم الكتاب

ملاحظات حول منهج الكتابة:

- منهج علمي دقيق يركز أولاً على عرض نماذج من القطع الخشبية ، يقدمها للدراسة ويتناول عناصرها الزخرفية بالتحليل والمقارنة تبعاً لرؤية الكاتبة واستناداً إلى آراء دارسين آخرين يناقشها فيتبنها في النهاية أو ينفىها. وهكذا نلمس استعمال طرق الإيضاح التي لا تكتفي بعرض جل القطع الخشبية المدروسة وتعيين أماكنها الأصلية والمواطن التي يحفظ بها حالياً ، وإنما تتجاوزها إلى إنجاز رسومات ومخططات تتناول بالتفصيل والتوضيح العناصر الزخرفية الدقيقة سواء منها النباتية أو الهندسية أو الكتابية.

- إتباع الطريقة التصاعدية تبعاً لتكنولوجيا الأحداث ، بحيث انطلقت الكاتبة في معالجة موضوع دراستها من البوادر الأولى لظهور الفن الفاسي (المغربي) في القرن ٩م واستمرت في رصد التطورات التي لحقت هذه الفن عبر الحقب التاريخية مقسمة حسب الأسر المتعاقبة على حكم المغرب.

- الكتاب لم يلتزم بالتطرق لفن الزخرفة على الخشب فحسب ، ولكن المؤلفة كانت تعتمد من حين لآخر ، وقبل أن تتناول

مشاركة المرأة في الثورة اليمنية

بقلم : حنان محمد فارح

hanan.800@hotmail.com

التاريخ اليمني يفخر بمسيرة كوكبة كبيرة من النساء اليمنيات المناضلات اللواتي رفضن الظلم وقاومن الاحتلال وكان لهن سجل نضالي حافل لا يقل أهمية وقيمة تاريخية عن دور الرجل اليمني، حيث امتازت المرأة اليمنية بشعور عالٍ بالمسؤولية والوطنية وشاركت بدور وطني فاعل ورفعت راية الكفاح من أجل تحرير الجنوب اليمني من نير الاستعمار البريطاني وسجلت ملاحم بطولية خاضتها جنباً إلى جنب الرجل، فبالإضافة إلى تشجيعها للرجل ودفعه لميدان الشرف والشهادة بصمود وإصرار، وحجاً في الحرية والكرامة، فقد قدمت الغالي والنفيس ولم تبخل بالنفس والمال والجهد للدفاع عن الوطن والأرض. كانت البداية من التعليم، فقد حظيت المرأة اليمنية في عدن في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين بفرصة التعليم، وبدأ ينتشر تعليم الفتاة في عدن مما ساعد بشكل ملموس على تشكيل الوعي وكسر القيود الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي كانت تحول دون مشاركتها في النشاط العام، واستطاع الرعيل الأول من النساء المساهمة في خلق جيل جديد من المتعلّمات، إلى أن جاءت فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي حيث برزت نخبة من النساء المثقفات استطعن إثبات وجودهن عبر منابر العلم والصحافة والعمل، ومع هذا التطور الذي عاشته المرأة العدنية في تلك الحقبة أخذت في التفاعل مع الأوضاع الجارية وتكوين مواقف وآراء مؤمنة بالكفاح المسلح ضد المستعمر البريطاني ومساندة الحركات التحررية. كانت الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل أول تنظيم سياسي يفسح المجال للمرأة اليمنية للمشاركة في الكفاح المسلح حيث بلغ عدد النساء المنتهيات للتنظيم خلال فترة الستينيات حوالي ٢٠٠ امرأة منهن: (زهرة هبة الله، عائدة علي سعيد، فحجة باسنيدي، ونجوى مكاوي.....) وعملن على كسب عناصر نسائية مؤمنة ومناصرة للكفاح المسلح وتكوين خلايا وحلقات لعبت دوراً أساسياً في نجاح ثورة أكتوبر المجيدة وصولاً إلى تحرير الجنوب اليمني المحتل. وفي ساحات الوغى دفاعاً عن الأرض والوطن، أوكلت للمرأة اليمنية مهام عديدة منها: إعداد المنشورات وتوزيعها وإذاعة أخبار العمليات الفدائية والتحريض على القيام بالمظاهرات وإخفاء الأسلحة والبروز بها من نقاط تفتيش القوات البريطانية وإيواء الثوار المطلوبين من المستعمر، وعندما تعرضت الجبهة القومية لأزمة مالية تبرعت الموظفات برقع رواتبهن لحل هذه الأزمة، ولم يقف مشاركة المرأة اليمنية عند هذا الحد فكان لها شرف مساندة المناضلين والاشتراك في العمليات الفدائية وقد استشهدت في معارك البطولة والحرية والاستقلال الشهيدة خديجة الحوشية التي قتلت برصاص الانجليز، والمناضلة دعدة بنت سعيد التي حملت السلاح وقاتلت جنباً إلى جنب الرجل، والأخريات من النساء كنجوى مكاوي التي قادت دبابة بريطانية يوم سقوط مدينة كريتر في ٢٠ يونيو ١٩٦٧م واعتقلت مع زميلاتها فوزية جعفر، بينما عائدة يافعي وزهرة هبة الله وأنيسة الصائغ حاصرتن القوات البريطانية داخل مسجد الزعفران عندما كن يوزعن منشورات، وغيرهن كثرات أصبحن رموزاً وطنية ومشاعل أثار الطريق للأجيال القادمة. ومع الاحتفال بذكرى ثورة الرابع عشر من أكتوبر المجيدة نقف احتراماً وإكباراً للنساء اليمنيات المناضلات ولأرواحهن الطاهرات، ونعاهد أنفسنا على مواصلة مسيراتهن فلا يزال هذا الوطن بحاجة ماسة لتكاتف أبنائه للحفاظ على وحدته وأمنه واستقراره.

ملاحظات حول مضمون الدراسة

رغم أن المؤلفة حاولت أن تخلص في النهاية إلى إبراز شخصية الفن الفاسي (أو المغربي) التي تتأثر بالعوامل المحلية، فإنها مع الأسف لم تبحث عن دور هذه العوامل في ظهور وتطور هذا الفن، بل غالباً ما كانت تربطه بالمؤثرات الخارجية، سواء منها المشرقية أو الأندلسية، في حين لم نلمس مظاهر الإبداع المحلي إلا في المحاكاة والتقليد واستيعاب العناصر الخارجية. والسؤال المتولد عن هذه الأطروحة هو: هل عاش المغاربة قبل هذه الحقبة بدون فن في مجال الزخرفة على الخشب؟ ألم تكن هناك دوافع محلية وراء ظهور شخصية هذا الفن؟ وهل لم يكن له بدوره إشعاع خارجي؟

مثل هذه الأسئلة ظلت غائبة وانصهرت في بعض الأجوبة العامة التي لا تلغي العامل الداخلي ودوره في تطور هذا الفن أو تكيفه مع البيئة المحلية. ومن ثم عرفنا ما فيه الكفاية مكامن المؤثرات الخارجية، لكن لم نطلع ولو على مثال واحد لتأثير الفن المغربي والفاسي في غيره من الفنون، فهل يحتمل أن يتأثر الفن المغربي بغيره ولا يؤثر فيه؟

تتميز هذه الدراسة بكثرة التداخلات ونوع من التعقيد مرتبط بطبيعة العناصر الدقيقة المتناولة بالدراسة، مما يصعب معه أحياناً التمييز بين بعض تلك العناصر، حيث تقتصر إلى تعريفات مدققة لكل عنصر على حدة أو تفسير موضح للاصطلاحات والمفاهيم المستعملة. ومجمل هذه الملاحظات لا تقلل أبداً من أهمية هذه الدراسة وفائدتها في مجال الفنون الزخرفية المغربية على الخشب.

خاتمة:

لقد استطعنا من خلال هذه الدراسة القيمة أن نقف على مسار تطور الفنون الزخرفية على الخشب بالمغرب منذ الملامح الأولى خلال القرن ٩م إلى قمة إشعاع هذا الفن ومنتهاى تألقه خلال القرن ١٤م حيث أصبح المغرب الأقصى يبدو للمختصين كأول نادي فني في الغرب الإسلامي، وحاولت كاترين كومبازار من خلال رصدتها التاريخي لهذه الظاهرة وتحليلها للعوامل التي تحكمها أن تستخرج الهوية المحلية لهذا الفن، غير أنها تقر أن هذه الدراسة لن تكتمل إلا بتناول هذا الفن الزخرفي ببقية المواد المعمارية الأخرى من فضاء ونحاس وجبس وزليج وغيرها.



الحجر والصولجان .. السياسة والعمارة الإسلامية

المؤلف : د. خالد عزب

الناشر: دار الشروق . القاهرة

تاريخ النشر: الطبعة الأولى ٢٠٠٧

عدد الصفحات: (٢٩٠) — المقاس (١٧ × ٢٤)

عرض

د. خالد عزب

مدير إدارة الإعلام ونائب مدير الخطوط

مكتبة الإسكندرية

الإسكندرية — جمهورية مصر العربية

Khaledazab66@hotmail.com



دولة لدولة كل منها يحمل بين جنباته سمة هذه الدولة أو تلك ، وتعكس العمارة هبة الدولة وقدرتها بل تعكس قدرة الدولة الاقتصادية وإرادتها السياسية. هكذا تتحدث العمارة فهي ليست حجراً بل رداء للحياة وذاكرة حية للمجتمعات.

تعددت المناهج التي درست العمارة الإسلامية ، ومعظمها درس من منظور بسيط غير مركب ، وهو ما أدى إلى أحادية النظرة لهذه العمارة ، وبالتالي قصور في إدراك ماهيتها. وكانت معظم الدراسات خلال العقود الماضية تركز على الدراسة الوصفية التي ترسم الشكل المعماري من خلال الكلمات ، دون البحث عن البنية التي صاغت هذه العمارة ونحتت زخارفها المبهرة نحتاً يخطف الأبصار ، أو تأصيل عناصرها المعمارية والزخرفية إلى أن تصل أحياناً بها إلى عمارة ما قبل الإسلام ، دون أن يدرك هذا المنهج التأصيلي أن هناك بوتقة صهرت فيها هذه العناصر ، وأعيد إنتاجها مرة أخرى بما يتوافق مع روح الحضارة الإسلامية ، بطريقة تحمل في أغلب الأحوال إبداعاً يفوق ابتكار العنصر نفسه ، إذن فنحن أمام عدد من مستويات الدراسة ومحدداتها لكي نستطيع أن ندرس العمارة الإسلامية ، وأول هذه المحددات هو تحديد بنية العمارة الإسلامية ، ونحن نقصد هنا بالبنية العلاقة المتشابكة بين المكونات المادية والفكرية للعمارة ، فالبنية هنا تربط بين الكل الواقعي أو تجمع أجزائه ، لذا فهي تعد القانون الذي يضبط هذه العلاقة.

يجب هنا التمييز بين (البنية السطحية) و(البنية العميقة) ، فالبنية السطحية هي كل هيكل الشيء ووحدته المادية الظاهرة ، أما البنية العميقة فهي كامنة في صميم الشيء ، وهي التي تمنح الظاهرة هويتها وتضفي عليها خصوصيتها. وعادة ما يعي المرء إدراك البنية السطحية المادية المباشرة ، فإدراكها أمر متيسر ، أما إدراك البنية الكامنة فهو أمر أكثر صعوبة ، يتطلب استخدام الحواس وإعمال العقل والخيال والحدس. لذا عادة ما يعيش البشر داخل بُنى اجتماعية وتاريخية واقتصادية يستنبطونها فتؤثر في سلوكهم وتشكيل رؤيتهم للكون وتحدد خطابهم الحضاري دون وعي منهم.

لذا لكي نصل إلى بنية العمارة الإسلامية ، يجب أن نفك هذه العمارة ، ونعيد تركيبها مرة أخرى ، وبعبارة فك الشيء تعني فصله وفرق أجزائه بعضها عن بعض ، وعكسها (ركب الشيء) أي جعل الشيء بعضه فوق بعض وضمه إلى غيره وهذه العملية تهدف إلى فصل

خروجاً عن المعتاد يجيء كتاب "الحجر والصولجان.. السياسة والعمارة الإسلامية" ليقدم لنا رؤية للعلاقة بين البنية بين السياسة والعمارة ، لاشك أنها جريئة وتشكل حدثاً يستحق أن نقف عنده كثيراً ، المؤلف ذكر في مقدمة كتابه أن جدلاً ثار حول مادة هذا الكتاب حينما قدمها كجزء من أطروحته لمناقشتها كاد يفرضي إلى عدم مناقشة الرسالة ، حيث أصرت لجنة التحكيم على حذف كافة فصول هذا الكتاب ، الذي ينطلق من إثارة تساؤلات حول العمارة الإسلامية والسلطة بمكوناتها المختلفة.. السلطان ورجاله.. المجتمع وقواه الفاعلة والخاملة.. المبادئ الحاكمة للعلاقة بين الطرفين ، تفاعلات متبادلة تعكس روح كل عصر وطبيعته. فجدلية العلاقة فرضت وجود مؤسسة الأوقاف التي من المفترض أنها تؤدي دوراً مهماً ، يوازي بعض أدوار الدولة المعاصرة حالياً ، وبعض أدوار المجتمع المدني المعاصر ، لكن انظر كيف كان وعي أهل الصولجان لكيفية توظيف هذه المؤسسة لتأمين معاش دائم لذريتهم ، حيث إن الأوقاف محرم شرعاً مصادرتها ، ومن ناحية أخرى لتوظيف العلماء ليكونوا موظفين لدى السلطة يأتهمون بأمر الواقف صاحب السلطة ، هكذا جاءت العديد من المنشآت الدينية لتعبر في الوقت ذاته عن هبة الدولة وعظمتها وقوتها ، كما نرى في مدرسة السلطان حسن وجامع محمد علي.

كانت الأوقاف هي المحرك الوحيد لحركة العمران داخل المجتمع والواسطة بين السلطة بثرائها ، والتجار وثرائهم ، وبين الفقراء من خلال تقديمها للخدمات الاجتماعية إلى المجتمع ، فلم يكن في القديم للدولة دور في تقديم الخدمات الاجتماعية بل يتوقف دورها عند حفظ الأنفس وإقامة المشاريع الكبرى التي تضمن زيادة ريع الدولة من الضرائب كشق الترع وإقامة الجسور والسدود وتأمين الطرق ، ولما كانت الأوقاف تنبع من المجتمع وإليه فقد حقق المجتمع استقلالية نسبية في شؤونه.

في هذا الكتاب سيجد القارئ محاولة لاستكشاف معامل القيمة ودوره في العمارة الإسلامية ، فهذا المعامل هو أخلاقي رفيع نراه في أحكام طبقت من خلال فقه العمارة ، فأنجحت صياغات جمالية من حيث مظهرها ، لكن هذه الجمالية الشكلية تحمل في طياتها مضموناً قيمياً غير ظاهر للعيان ، لكن الدراسة الدقيقة تكشف عنه ، وعلى هذا فالفرد المتلقي للعمارة هو إنسان مرهف الحس يدرك ما تحمله من معان مركبة ، وسيجد القارئ تارة نفسه بين طرز معمارية مختلفة من



مضمونا حضاريا وبعضها الآخر مضمونا سلطويا سياسيا ، ويجمع بينهما أحيانا بعض العماثر ذات الدلالات المتعددة. تعد قبة الصخرة والحرم القدسي الشريف حولها أبرز العماثر التي تحمل مضامين حضارية. يعود تشييد القبة إلى العصر الأموي ، الذي شهد نزاعا حضاريا بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية علي السيطرة علي العالم القديم ، اتخذ هذا النزاع صورا متعددة. منها تعريب طراز أوراق البردي التي كانت تصنع في مصر. وتعريب للنقود في إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الديني والسياسي للمسلمين ، ورغبته في إعادة حق ضرب النقود إلي الخلافة في شخص الخليفة كمظهر من مظاهر الملك والسلطان بعد أن انتزع حق ضرب النقود كثير من الولاة والتأثيرين فكان الإصلاح النقدي سببا مهما في القضاء علي الفوضى السائدة تحقيقا للاستقرار السياسي. فضلا عن أن النقد العربي الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادي البيزنطي ، لذا اتجه عبد الملك إلي الاستقلال الاقتصادي بتعريب النقود ، فضلا عما يتيح هذا من توحيد النظام النقدي في دولة تمتد عبر مساحات شاسعة من الأراضي.

اتجه عبد الملك بن مروان في إطار هذا المخطط الشامل إلي العمارة التي ترمز إلي سيادة الدولة واتجاهها الفكري ، ففي القدس تبني مشروعا ذا طابع سياسي ديني حضاري ، يركز علي الاهتمام بعمارة الحرم القدسي الشريف خاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، لارتباط هذا الحرم بالعقيدة الإسلامية فهو أول القبلتين ، وفيه صلي الرسول (صلي الله عليه وسلم) بالأنبياء واليه كان إسراؤه ومنه كان معراج. ولها كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس ، خاصة كنيسة القيامة المقدسة لدي المسيحيين ، وما قد تحدثه عمارة الكنائس في نفوس بعض المسلمين ، ورغبة عبد الملك في إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة . تبني مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى. ويلفت الانتباه من هذا المشروع قبة الصخرة ، إبراز آثار الحرم ، فهي تعد أول عمل معماري واع لعظمته بل متباه بها ، انتهى من بنائها عام ٧٢ هـ / ٦٩٢ م. وهي تري من مسافات بعيدة ، وهي مبنية فوق صخرة مقدسة ، حولها ممران يدوران حولها بمسقط مئمن ، شامخة في الهواء في مركز الحرم القدسي علي تل من تلال القدس.

نري هذا يتكرر في القاهرة أيضاً ، حينما اختار السلطان الكامل الأيوبي أن يشيد دار الحديث الكاملية في داخل القاهرة الفاطمية وعلي قصبتهما العظمي ، ليأتي الصالح أيوب من بعده ليشيد مدرسته عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م. علي جزء من القصر الشرقي الفاطمي ، لتستمر بذلك الأهمية السياسية لهذا الموقع الذي تأكد بإلحاق شجرة الدر ضريح للصالح بالمدرسة عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م. وذلك وفاة لزوجها السلطان ، ولكي تذكر ممالكه بولائهم له ولها بالتبعية ، وشيدت لنفسها قبة بالتبعية ، وشيدت لنفسها قبة ضريحية بالقرب من مشهد السيدة نفيسة حملت ألقابا لها دلالات سياسية تعبر عن الفترة التي استبدت فيها بحكم مصر بعد وفاة تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب. كان موقع مدرسة الصالح أيوب جزءا من القصر الشرقي الفاطمي الكبير ، وهو ما أتاح للظاهر بيبرس البندقداري فرصة لكي يختار جزءاً من القصر لكي يشيد عليه مدرسته إلي جوار مدرسة الصالح ، معلنا بذلك بداية تسابق علي هذه المنطقة لتشيد المنشآت السلطانية ، ولكي يكرس إعلانة لقيام دولة المماليك علي أنقاض الدولة الأيوبية ، ومثلت هذه المدرسة تطورا إضافيا في عمارة المدارس في مصر وملحقاتها ، إذ ضمت كتاباً وسبيلاً لخدمة الهارة إلحاقاً بها.

مكونات العمارة ، ثم إعادة ضمها إلى بعضها من خلال نموذج تفسيري يوضح هذه العملية ، وبذلك يمكن الوصول إلى ماهية العمارة الإسلامية.

وتعتمد هذه الدراسة في بناء النموذج التفسيري علي دراسة العلاقة بين التحول السياسي ، والذي يعني انتقال السلطة من جماعة سياسية إلى أخرى ، وهو ما يطلق عليه ابن خلدون العصبية السياسية التي تقوم عليها الدول ، علي نحو ما حدث من انتقال للسلطة من الأيوبيين إلى المماليك في مصر ، ومن المماليك إلى العثمانيين ثم إلى محمد علي وأسرته.

وهذا الانتقال عادة ما يصاحبه تغير في نمط أو طرز العمارة وفي تخطيط المدن ، ولا يكون مثل هذا التغير سريع الحدوث ، بل يأخذ وقتاً من الزمن ، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون (في أن رسوخ الصنائع في الأمصار ، إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها). ونستطيع أن نترجم هذه العبارة معمارياً بأن الطراز المعماري المميز لأي عصر لابد له من وقت لكي تتضح معالمه ، وهذا التميز المصاحب لأي طراز لابد وأن ينشأ في ظل استقرار سياسي يتيح للمعماري الإبداع.

وهناك مستويات من البني تحدد العلاقة بين العمارة والسياسة: المستوى الأول: العمارة كشاهد سياسي ، وهو يمثل البنية السطحية ، وفي هذا المستوى تكون العمارة سجلاً للعديد من الأحداث السياسية التي مرت عليها ، أو حدثت في المنشأ المعماري ، أو تركت أثرها عليها ، ومن أمثلة ذلك باب زويلة الذي شيد في العصر الفاطمي ليكون أحد أبواب حصن القاهرة مقر حكم الفاطميين بالعاصمة المصرية ، وكان ذا وظيفة حربية ، إذ أنه كان يغلق على الحصن الذي كان يضم قصور الفاطميين ومسجدهم الجامع وجندهم ومواليهم.

ولكن.. منذ عام ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م ، حين وسط المظفر قطز أحد سلاطين المماليك أحد رسل التتار بظاهر باب زويلة ، ثم علق رؤوس رسل التتار الأربعة علي باب زويلة. اكتسب الباب منذ ذلك الوقت وظيفة سلطوية سياسية خاصة مع تلاشي دوره الحربي ، وتوالت حوادث الإعدام عليه ، منذ ذلك الحين حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، وأعدم السلطان المملوكي طومان باي آخر سلاطين المماليك علي هذا الباب ، وكان هذا الإعدام رمزاً لبداية عصر العثمانيين في مصر ونهاية عصر المماليك. وفي العصر العثماني وعصر محمد علي توالت عمليات تنفيذ حكم الإعدام علي هذا الباب حتى عصر الخديوي إسماعيل. كان لجلوس متولي الحسبة بالقاهرة عند هذا الباب أثره في تغير اسمه لدى العامة إلى باب المتولي. وبمرور الوقت نسي الناس السبب الحقيقي لهذه التسمية ، وتصوروا أن المقصود بالمتولي أحد الأولياء الصالحين ، ومن ثم ظل هذا الباب يتقرب إليه بعض العامة بربط الخرق بمساميره. كما يسعى السلاطين بإثبات انتصاراتهم علي عمائرهم بصورة أو بأخرى لتكون شاهداً علي هذه الانتصارات ، ومن ذلك تعليق خوذة ملك قبرص علي باب مدرسة السلطان الأشرف برساي بالقاهرة والتي انتهى من تشييدها عام ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م ، وهي السنة التي فتحت فيها قبرص. وظلت هذه الخوذة باقية حتى القرن ١١ هـ / ١٧ م.

المستوي الثاني: الرمزية السياسية للعمارة ، وهو يمثل أحد جانبي البنية العميقة. في هذا المستوى تجسد العمارة قوة الدولة وتوجهاتها السياسية. ومثل هذا النوع من العماثر شاع في العمارة الإسلامية. تتمثل هذه الرمزية في عدد من المدلولات المعمارية ، يحمل بعضها



كبار الملاك الزراعي ودورهم في المجتمع المصري ١٩٥٢ - ١٩٧٠



إعداد: عبده محمد أحمد رحومة
كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، ١٩٩٢
رسالة ماجستير غير منشورة (٣٠٢ صفحة)
إشراف: الأستاذ الدكتور عاصم الدسوقي ، الأستاذ الدكتور محمود حلمي

الصاعدة كما اتسع حجم صغار الملاك نتيجة برنامج الإصلاح الزراعي في توزيع الأرض عليهم ، وبقيّة مشكلة الفقر قائمة وظلّ البون شاسعاً بين قاع الهرم الاجتماعي وقوته .
وظلّ السؤال الذي يطرح نفسه عن تلك الاشتراكية التي تسمح بوجود عامل ترحيلة يتدنى وضعه بصورة لا تصل إلى مستوى الأديمين وبين من يحققون دخلاً يصل إلى عشرات الآلاف من الجنيهات وهو سؤال وجه إلى الرئيس جمال عبد الناصر أكثر من مرة ولم يضع إجابة شافية عليه وترك الإجابة عليه للمستقبل .
وتنقسم الدراسة إلى ستة فصول :

الفصل الأول

"تطور العلاقة بين كبار الملاك والثورة"

وتناول النقاط التالية: رفض كبار الملاك لإصدار قانون الإصلاح الزراعي - مواقف الأحزاب من الإصلاح الزراعي - فشل محاولات استخدام العنف - استغلال كبار الملاك لنواقص الصياغة التشريعية لإخراج الأرض من الاستيلاء - رد فعل الثورة تجاه كبار الملاك - قوانين يوليو ١٩٦١ ثم توجيه عدة ضربات للملاك - تفسير لحادث كميشيش وتشكيل اللجنة العليا لتصفية الاقطاع - رؤية السلطة التشريعية للحادث ودوافعه - هزيمة ١٩٦٧ وخفوت صوت المسألة الاجتماعية .

الفصل الثاني

"تشريعات تحديد الملكية وأثرها على الملكية الزراعية والبناء الاجتماعي"

ويتناول هذا الفصل أهم الأفكار التي تناولتها التشريعات وما بها من إيجابيات ، ثم أهم السلبيات والثغرات التي تضمنتها وأثر ذلك على تطور الملكية الزراعية والطبقات في الريف ، ثم انعكاس ذلك كله على مستوى المعيشة في الريف المصري .

الفصل الثالث

"كبار الملاك وتهريب الأرض"

يتناول هذا الفصل العوامل التي ساعدت على تهريب الأرض سواء كانت القوانين أو التركيب الاجتماعي لمن طبقوا القانون أو الفكر القانوني السائد آنذاك ، ثم عرض لأهم الحالات التي هربت الأرض والحيل والأساليب التي كانوا يلجأون إليها لتهريب الأرض .

أثارت التجربة الناصرية ١٩٥٢ - ١٩٧٠ الكثير من الجدل إذ حظيت هذه الفترة بكم هائل من الكتابات التاريخية ، حيث تم تداول الحديث عنها في الصحف المصرية الرسمية والعربية وصحف المعارضة المصرية كما انتشر كم هائل من الذكريات والمذكرات يحمل بعضها طابع الهجوم على هذه التجربة ونعتها بأسوأ الصفات وتحميلها السبب في كل ما تعرض له الوطن من كوارث .

ويحمل البعض الآخر طابع الدفاع عنها ووصف سنواتها وكأن مصر قد تحولت إلى جنة الله على الأرض ، واتسمت هذه الكتابات سواء من المهاجمين أو المدافعين بطابع انفعالي شخصي وأصبحت التجربة أمر يثير الجدل العقيم وتتداولها للألسنة في المنتديات العامة والخاصة ، فتبدد طاقات ضخمة فيما لا يفيد . وقد تاهت الحقيقة التاريخية وسط هذا الركام من الكتابات التي غابت عنها الموضوعية ، ولا شك أن تاريخنا القومي يحتاج إلى لجنة وطنية من كبار مؤرخينا ومن كافة المدارس الفكرية ولتكن الجمعية المصرية التاريخية لفحصه وإبراز الجوانب الإيجابية والسلبية لكل حقبة تاريخية . خاصة مع الأهمية الكبيرة لتاريخنا القومي في مصر إذ ربما لا تختلط السياسة بالتاريخ في مكان آخر مثل مصر وحتى نريح الحقول من ذلك الجدل العقيم الذي يجهد أذكي العقول وأكثرها وعياً وثقافة وبعيداً عن الانفعالية والأهواء الشخصية .

ولاشك أن لثورة الثالث والعشرين من يوليو إنجازاتها الضخمة على المستوى القومي خاصة فيما يتعلق بقيادة حركة التحرر من الاستعمار لا في مصر وحدها بل في بلاد العالم الثالث ، كما أن للثورة إنجازاتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ولها أيضاً سلبياتها في مجالات عديدة .

وتبدو إنجازات الثورة فيما يتعلق بالمسألة الاجتماعية في الريف المصري أدنى بكثير من إنجازاتها فيما يتعلق بالمسألة الوطنية ، كما أن تلك الإنجازات في مجتمع المدينة كانت أكثر وضوحاً منها في الريف وبعد الإصلاح الزراعي بقوانينه وإجراءاته أحد إنجازات الثورة الاجتماعية ، إلا أن ثمة عوامل متعددة حجمت كثيراً من آثار الإصلاح الزراعي وأفرغته في كثير من الأحيان من محتواه ، ويرجع ذلك إلى نواقص الصياغة التشريعية ومرونتها وسهولة التهرب من هذه القوانين . كما أن من أوكل إليهم بتطبيق القانون كانوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بكبار الملاك الزراعيين ، أضف إلى ذلك أن الثورة لم تتوجه بتشريعاتها إلى فقراء المجتمع المعدومين من عمال الزراعة وعمال التراحيل - وهو ما جعل ملايين من أبناء الريف يعيشون تحت خط الفقر - فلم تكن الثورة حاسمة في تعاملها مع المسألة الاجتماعية ولم تسع إلى إيجاد حل جذري يحقق العدل الاجتماعي وهو ما أدى إلى بقاء طبقة كبار الملاك قوية تمتلك قدراً كبيراً من الثورة والنفوذ . ومن جانب آخر ظل التمايز الاجتماعي موجوداً وإن تحسنت أوضاع الطبقة الوسطى



■ لقد بدأ قادة الثورة الجدد وكأنهم الوكيل الرسمي الوحيد المفوض لإدارة الصراع الاجتماعي ولم يعد مسموحاً لأي من الطبقات بممارسة هذا الصراع ، وقد استخدم القادة الجدد العنف ضد عمال كفر الدوار وصدر بيان اللواء محمد نجيب العنيف ضد صغار المستأجرين الذين امتنعوا عن دفع إيجارات الأرض للملاك ، كما استخدم العنف في القضاء على محاولة لإثارة الشغب وضد بعض الملاك الذين أرادوا استخدام القوة لطرد صغار المستأجرين.

■ ويمكن القول ؛ أن القادة الجدد لم يفكروا في علاج جذري حاسم للأزمة الاجتماعية ولم يكن بمقدورهم أن يقوموا بهذا العلاج الجذري وذلك راجع إلى تكوينهم البرجوازي وثقافتهم المستمدة من المناخ الثقافي السائد قبل الثورة. وقد احتلت المسألة الوطنية بؤرة اهتمامهم ولذلك جاء الإصلاح الزراعي شديد الاعتدال وطبق بطريقة بيروقراطية متدرجة وشديدة التباطؤ.

■ لقد كان أغلبية القادة يحملون بالصعود ومشاركة أولئك الملاك في مستوى معيشتهم المرتفع وحياتهم المترفة الناعمة ، ووقف هذا الفريق من قادة الثورة ضد كل محاولة لتعميق المجرى الاجتماعي للثورة.

■ وقد سمحت إجراءات الإصلاح الزراعي ضد القمم العليا من كبار الملاك بانتزاع أجزاء من ملكياتهم الزراعية بالإضافة إلى ما تم مصادره من أراضي أسرة محمد علي. واستفاد من الإصلاح الزراعي ٣٤٢ ألف أسرة من صغار المستأجرين تحولوا بفضل الإصلاح الزراعي إلى ملاك صغار حيث تم توزيع قطع صغيرة من الأرض عليهم لا تتجاوز خمسة أفدنة ، وتم تقسيم ثلث الأرض وفوائدها ومصرفاتها الإدارية عليهم على ٣٠ عاماً ثم على ٤٠ عاماً فيما بعد ، كما أصبح للمستأجرين حقوقاً قانونية في الأراضي التي يستأجرونها وأصبح من حق الجميع الاستفادة من التعاونيات الزراعية وما تقدمه من خدمات.

■ باختصار تم توسيع حجم صغار الفلاحين ولم تمس إطلاقاً الملكيات المتوسطة والشرائح الدنيا والوسطى من طبقة الملاك ، بل وحتى القمم العليا التي تم انتزاع أجزاء من أراضيها سمح لها بالتعويض والفائدة ، وعلى الجانب الآخر بقي فقراء الفلاحين خارج إطار اهتمام الدولة باستثناء ما حصلوا عليه من وعود براءة ومحاولات صورية لحل أزماتهم ، تلك التي لم تكن سوى ستار إعلامي يغطي مظاهر المعاناة والشقاء لدى أولئك المعدومين.

■ يمكن القول ؛ أن التعاونيات الزراعية قد تحولت من وسيلة للإسهام في التنمية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع ككل إلى وسيلة لإثراء كبار الملاك وزيادة التراكم وهو ما دعم التطور الرأسمالي. أضف إلى ذلك أن كبار الملاك كانت لهم مجالات استثمار عديدة في الريف والحضر على السواء فعملوا بالتجارة والبقاولات والإسكان والنقل وتربية الماشية ومنتجات الألبان واللحوم ومعامل التفرغ والمناحل وعصارات قصب السكر وغيرها ، وكلها من العوامل التي دعمت ثروتهم وضاعفت من أرباحهم حتى كان عام ١٩٧٠ حين بدؤوا يمهدون التربة لمرحلة جديدة.

الفصل الرابع

"علاقات الإنتاج الزراعي في ظل قوانين الإصلاح الزراعي"

ويتناول أهم ما تضمنته التشريعات فيما يتعلق بالعلاقة بين المالك والمستأجر ومدى التحسن في أوضاع المستأجرين ، ثم الأساليب التي لجأ إليها كبار الملاك للتخايل على القوانين والصراع بين الملاك والمستأجرين والمحاولات المستمرة لطرد صغار المستأجرين من الأرض ، ثم كيف تطورت علاقة كبار الملاك بعمال الزراعة ومدى التحسن الذي طرأ على أحوالهم.

الفصل الخامس

"التعاونيات الزراعية وأثرها على

الدخل والنشاط الاقتصادي لكبار الملاك"

وتناول التركيب الإداري والاجتماعي للتعاونيات الزراعية وكيف استفاد كبار الملاك من التعاون الزراعي ، وكيف خضع لسيطرتهم وساهم في تنمية ثروتهم ، ثم إلقاء نظرة سريعة على أهم الأنشطة الاقتصادية التي مارسها كبار الملاك.

الفصل السادس

"كبار الملاك والسلطة"

ويتناول رموز كبار الملاك في قمة السلطة وفي قيادة الجيش ، ثم كبار الملاك والتنظيمات السياسية للثورة: هيئة التحرير والإتحاد القومي والإتحاد الاشتراكي ، بالإضافة إلى وجودهم في مراكز السلطة المحلية: المجالس القروية ومجالس المحافظات ومناصب العمدة والمشايخ ، ثم كبار الملاك والسلطة التشريعية.

وقد أعتمدت هذه الدراسة على عدد من المصادر الأصلية مثل بعض ملفات اللجنة العليا لتصفية الاقطاع والتقارير الواردة إليها من أجهزة متعددة في دراسة بعض الحالات. كما أطلع الباحث على ملف بأسماء الخاضعين لأحكام قانون الإصلاح الزراعي الثاني. وعموماً ترتبط الدراسة بالإصلاح الزراعي سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية ، إذ كان بمثابة حجر الزاوية في التطور الاجتماعي في الريف وانعكست إيجابياته وسلبياته على البناء الاجتماعي وتوزيع الثروة والدخل ومستوى المعيشة في الريف.

وقد توصل الباحث في الخاتمة لعدة نقاط هامة:

■ فقد فشل كبار الملاك في استخدام كل سطوتهم ونفوذهم لمنع إصدار قانون تحديد الملكية ، كما فشلت محاولتهم لتحدي القادة الجدد المستندين إلى قوة الجيش أولئك الذين امتلكوا القدرة على التعبير بطلاقة عما يجيش في نفوس فقراء المجتمع من آمال وطموحات ، إذ كانوا أقرب إليهم وإلى مشاكلهم ، كما كانوا يملكون العطف الإنساني على حقهم المشروع في حياة آدمية ، إلا أنهم لم يكونوا أبداً من أبناء هؤلاء الفقراء ومن ثم جاء علاجهم للمسألة الاجتماعية هامشياً ولم تحتل المسألة الاجتماعية بؤرة اهتمامهم وإن أحسنوا استغلالها والحديث عنها.

فلي الطريق إلى مكة المكرمة

On the way to Mecca



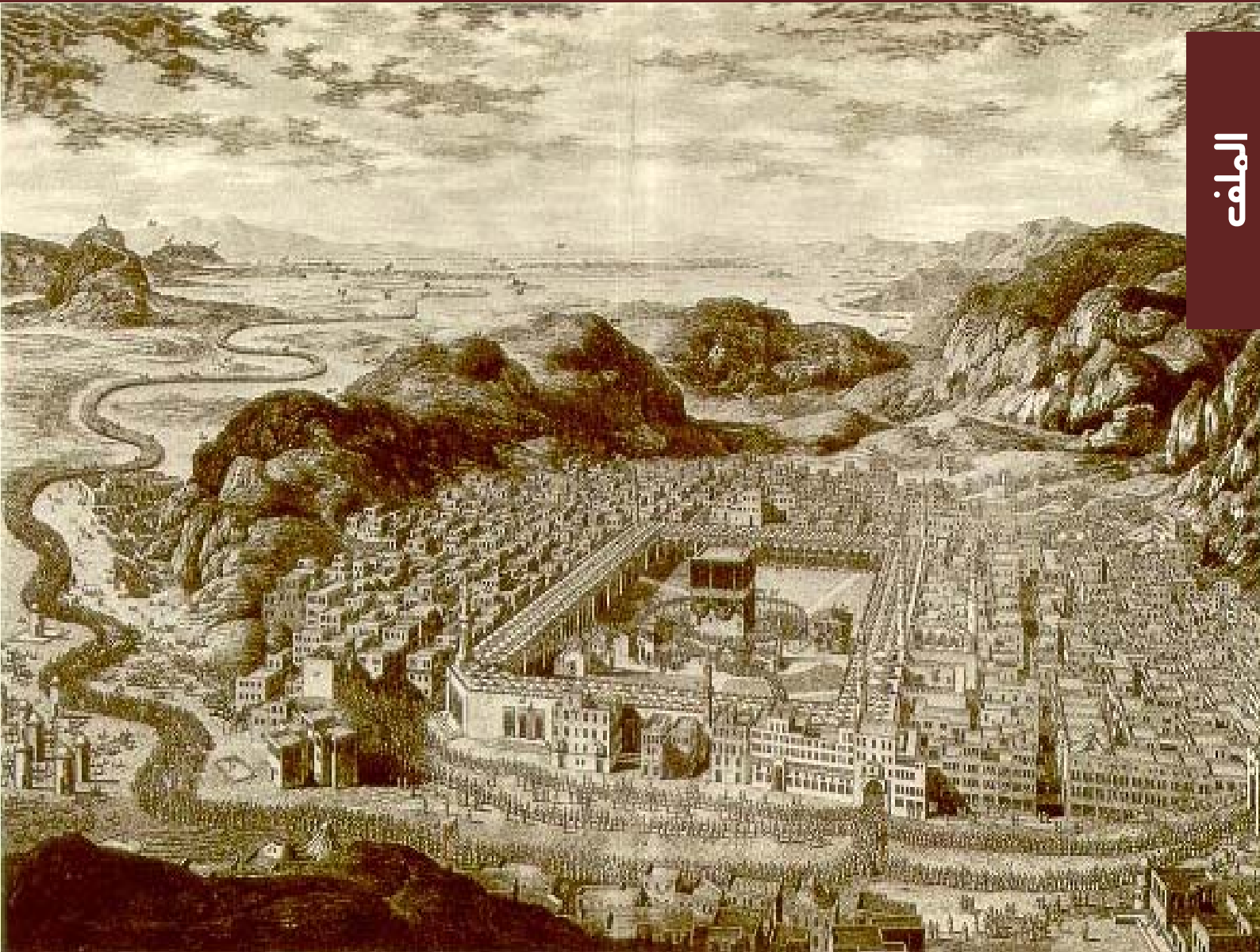
د. محمد رفعت أحمد زنجير

استاذ مشارك - جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا

الفجيرة - دولة الإمارات العربية المتحدة

mohdrifat@hotmail.com

الملف



■ الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد رفعت أحمد زنجير ، في الطريق إلى مكة المكرمة.- دورية كان التاريخية.- العدد العاشر ؛ ديسمبر ٢٠١٠. ص ٨٠ - ٩٥.

موجز البحث

القرب من النبي الشفيح ، اللهم صل وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن التاريخ ليس شيئاً ميتاً ، بل هو مادة نصنع منها الحاضر والمستقبل ، وعليه فالتأمل في أحداثه ليس عبثاً أو تسلية ، ولكنه عملية منهجية لدى الأمم الواعية من أجل صناعة المستقبل المستنير. والأمة الإسلامية من الأمم السباقة إلى العناية بهذا العلم عبر التاريخ ، وأول ما دون السيرة النبوية ، فلدينا كتب السيرة ابتداء من محمد بن إسحاق (ت ١٥٢ هـ) وحتى يومنا هذا... وقد كان علماءنا يسجلون الحدث ويحاولون تفسيره وتعليقه في سياقه التاريخي ضمن أسبابه ومسبباته ، والسنن الكونية التي تحكم مسيرة الإنسان على سطح الأرض ، فالهمم في النهاية هو فقه التاريخ وتحليله ومعرفة ما يستفاد منه.

والجغرافيا صنوا التاريخ ، فهي علم (يدرس الأرض والظواهر الطبيعية والبشرية عليها و يعود أصل الكلمة إلى اللغة الإغريقية ، ترجمتها بالعربية وصف الأرض. فلفظ الجغرافيا Geography لفظ إغريقي هو في الأصل geographic ، مؤلف من شقين: أولها Geo ويعني الأرض ، وثانيهما Graphic ويعني الوصف أو الصورة. وعلى هذا الأساس فالجغرافيا هي "وصف الأرض" وقد كانت كذلك في بدايتها حيث كان الرحالة يصفون ويسجلون مشاهداتهم عن البلاد والأقاليم التي يزورونها ، وكلمة الجغرافية في اللغة العربية تعتبر حديثة بعض الشيء ، حيث كانت لدى العرب تعني خريطة العالم والأقاليم أو المسالك والممالك أو تقويم البلدان أو علم الطرق^(١) ، وممن صنف فيها المسعودي (ت ٣٤٥ هـ) ، والإدريسي (ت ٥٦٠ هـ) ، وياقوت الحموي صاحب معجم البلدان (ت ٦٢٦ هـ) ، وغيرهم كثير. وفي البحث الموسوم بـ: (في الطريق إلى مكة المكرمة) يتدخل العلمان: التاريخ والجغرافيا ، حيث يفسر التاريخ بداية هذه الطرق وتطورها ، وتتحدث الجغرافيا عن وصف هذه الطرق ونقاط انطلاقها وعبرها ومحطاتها حتى تصل إلى مكة ، ومع التاريخ والجغرافيا يمتزج علم ثالث هو الحضارة الإنسانية في سالف الأزمان ، والتي تتقاطع مع التاريخ والجغرافيا خلال الرحلة إلى مكة ، وعليه فإن هذا البحث في غاية الأهمية لاستكشاف الماضي ووعي الحاضر ، واستشراف المستقبل من خلال ذلك كله.

ومن حسن الحظ أن تقام الندوة الدولية حول طرق الحج الآسيوي. بكوالامبور ، وذلك في إطار الاحتفاء بكوالامبور ، عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة ٢٠٠٩م ، حيث تعقد المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - بالتعاون مع الأرشيف الوطني في ماليزيا ، ندوة إقليمية حول طرق الحج الآسيوي ، في المدة من ١٥ إلى ١٧ ديسمبر ٢٠٠٩م. ورغبة مني بالمشاركة في هذه الندوة الدولية ، فقد قمت بإعداد هذا البحث راجياً من الله تعالى أن يسهم في تعميق المعرفة والروابط بين العرب والمسلمين ، ولا سيما أنني قد عشت بمكة المكرمة وكوالامبور ، وأعرف عن كل منهما الشيء الكثير ، ولهما في النفس ذكريات محبة.

المبحث الأول: لماذا يجب أن نهتم بمكة المكرمة ؟

لمكة أهمية دينية واقتصادية واجتماعية وسياسية وجغرافية وإنسانية عالمية وطبية وأدبية أيضاً ، توجب على البشر عموماً ،

مكة أحب بقاع الأرض إلى الله تعالى ، وإلى رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ، والاهتمام بمكة ومحبتها والدفاع عنها واجب على كل مسلم ، كما أن التنويه بها ، ومعرفة تاريخها ، والرفع من شأنها ، والدعوة إلى تطويرها وقد تكون هذا البحث من: مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة ، كالآتي:

المقدمة: ذكرت فيها أهمية البحث وخطته.

المبحث الأول: (لماذا يجب أن نهتم بمكة المكرمة ؟) بينت فيه أهمية مكة للناس بعامة والمسلمين خاصة ، فهي ذات أهمية دينية واجتماعية وسياسية ، وجغرافية ، وإنسانية عالمية ، ولها أهمية أدبية أيضاً.

المبحث الثاني: (من خصائص البلد الأمين) ذكرت فيه أن مكة المكرمة خصها الله تعالى بخصائص عدة ، منها موقعها الجغرافي المميز ، ومناخها الذي يتناسب مع ملابس الإحرام ، وجعلها الله في واد غير ذي زرع ، حتى يقصدها الحاج مخلصاً لله تعالى ، وهي بعيدة عن مراكز الحضارة في بلاد فارس والروم ، وهذا أدعى للإعجاز وفيها البركة والرزق وماء زمزم ، وقد أثبت العلم الحديث أن مكة مركز للأرض.

المبحث الثالث: (مشكلات في الطريق إلى مكة المكرمة) ذكرنا هنا أن ثمة مشكلات كثيرة كانت تواجه الحجاج قديماً في سيرهم إلى مكة المكرمة ، وجدنا منها فقدان الأمن والسلامة ، وندرة الماء الصالح للشرب ، والرمال المتحركة والأعاصير ، وقلة المحطات ونقاط العلام ، والخدمات الطبية المفقودة...

المبحث الرابع: (أهم الطرق القديمة إلى مكة المكرمة) تحدثت فيه عن طرق البر والبحر القادمة من اليمن ومصر والشام والعراق ونجد والبحرين وعمان والمغرب وغير ذلك ، وذكرت أن طرق الحج مرت بمراحل كثيرة من التطوير والتعديل عبر التاريخ ، وذكرت أن الرحلة إلى الحج هي رحلة دينية علمية حضارية وبخاصة للقدامين من البلاد البعيدة.

وأما النتائج ، فذكرنا منها أن مكة بلد بالغ الأهمية لأسباب دينية واقتصادية ، واجتماعية وسياسية ، وجغرافية وإنسانية وأدبية ، وقد انفردت مكة بمجموعة من الخصائص الاستراتيجية لم تشاركها فيها أية بلدة أخرى ، وكانت هنالك كثير من المشكلات في الوصول إلى مكة عبر التاريخ ، وقد كانت هنالك مجموعة من الطرق البرية والبحرية للوصول إلى مكة المكرمة. وأما التوصيات التي نقترحها فهي: ضرورة الاهتمام بمراكز البحث العلمي في العالم الإسلامي ، وأهمية تعميق الصلة بين البلدان الإسلامية ، وتفعيل دور مكة الحضاري من أجل استعادة دور المسلمين ، وأن يهتم بها الباحثون ، فهو يمثل خلاصة الحضارة الإنسانية على مر التاريخ!

مقدمة

الحمد لله الذي أكرم الوري ، بأن بعث إليهم رسولاً من أم القرى ، أرسله بين قوم أميين ، وجعل معجزته هذا الكتاب المبين ، وكان من أركان دينه حج البيت الحرام ، فلبى المسلمون نداءه ساعين بين الوهاد والأكام ، غير أبيهن بمصاعب السفر ، ولا ملتفتين إلى تثبيط من كفر ، وكان منى قلوبهم لو دفنوا بمكة أو البقيع ، حتى ينالوا

الإسلام دين اليسر

الإسلام دين اليسر في عباداته ومعاملاته وتشريعاته كلها ، واليسر يبدأ من الصلاة ، فشرع قصرها وجمعها للمسافر ، وأجاز أن تكون قعوداً للمريض أو على جنب... واليسر ليس مقصوراً على الصلاة ، وهي عماد الدين ، وإنما ينسحب على بقية أركان الدين ، فالزكاة لا تجب على من ليس لديه النصاب ، والصيام لا يجب على المريض المزمن ، ويمكن له أن يدفع فدية طعام مسكين ، وكذلك المسافر والحائض والنفساء يصومون في غير رمضان ، وأما الحج فهو لمن استطاع إليه سبيلاً ، فمن لم يستطع أناب غيره ، وإذا لم يكن لديه المال والصحة فيعفى منه ، ونذكر هنا بأن محيي السنة الإمام البغوي صاحب كتاب مصايح السنة وكتاب شرح السنة وغيرها من الكتب النافعة مات ولم يتمكن من الحج ، وكذلك الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي شغله جهاد الصليبيين عن حج بيت الله الحرام ، وكان قد نوى أن يحج فعاجلته المنية ، وغيرهما كثير من علماء وأعيان هذه الأمة ممن لم يتمكنوا من الحج لبعد المكان أو ظروف شاغلة ، أو عدم الاستطاعة ، وهذا يدل على أن هذه الشريعة هي شريعة ميسرة ، تراعي مصالح الإنسان وضعفه وظروفه في كل زمان ومكان.

الحج أعظم تجمع إنساني

ليس هناك ثمة تجمع عالمي لكافة أشكال البشر من شتى أصقاع الأرض مثل الحج ، وهو تجمع لأجل الله عز وجل وحده ، ولا عجب أن يقابل الله تعالى هذا التجمع برحمته وغفرانه ، فهذه هي ضيافته الكبرى لهم ، وقد روت عائشة ، أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفه ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة ، فيقول: ما أراد هؤلاء). رواه مسلم.

ما أكثر المنتديات التي يلتقي بها الناس في شتى المناسبات! فهم يلتقون في الأعياد والأفراح والأفراح ، وقد أتاح لهم التقدم التكنولوجي الذي تعيشه المعمورة في هذه الأيام أن يلتقي أهل المشرق بأهل المغرب لحضور حفل أو متابعة بطولة كروية أو نحو ذلك من المهرجانات والكرنفالات ، ولكن هذه التجمعات تبقى محصورة بفئات معينة من الشباب أو الأغنياء أو الهواة... وليس لزاماً على كل واحد من الناس أن يحضرها ، ويستفيد الحاضر المتعة بشكل مباشر ، وغالباً ما تقام هذه المناسبات في أماكن سياحية لجلب الحضور ، ويتوفر فيها شتى المغريات! بيد أنه لم يحدث أن التقى الناس من شتى بقاع الأرض لقاءً إلزامياً على الرجل المستطيع والمرأة المستطبعة ، في سن الشباب أو الشيخوخة ، التقوا على صعيد واحد ، في أرض جرداء ، بملابس بيضاء ، لغير هدف دنيوي ، أو كسب مادي ، منفقين أموالهم ، تاركين أعمالهم ، متحملين لعناء السفر ، إلا في مكان واحد يتجدد لقاءهم فيه كل عام وهو أرض عرفات الطاهرة. اللقاء في الحج هو لقاء التجرد فوق المصالح والمطامع ، وفوق الأهواء والشهوات ، تنصهر فيه الأعراق ، وتتوحد فيه اللهجات ، وتتصافى فيه القلوب ، وهي تدعو بدعاء واحد ، لا لفظ فيه ولا صخب: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك. فما أعذبه من دعاء وما أطيبه من نشيد ، فلا سيادة في ذلك الموقف لغير الحق ، ولا تقديس لغير الله ، تتهاوى في ذلك الموقف كل الفروقات بين الناس ، وكأنهم جميعاً أسرة واحدة ،

والباحثين خصوصاً معرفتها والاهتمام بها ، وهو ما سنتناوله بإيجاز في هذا المبحث. أما أهميتها الدينية فلأن شعيرة الحج وهي الركن الخامس من أركان هذا الدين مرتبطة بها ، كما أن الصلاة لا تكون إلا نحو كعبتها ، وبهذا يكون الركن الأعظم من أركان هذا الدين وهو الصلاة مرتبط بها ، فالمسلم يصلي باتجاهها ، ولا يكتمل دينه إلا إذا جاءها حاجاً ولو مرة في عمره.

القول في وجوب الحج على العالمين

فرض الله الحج على عباده ، وجعل فيه فوائد كثيرة لهم ، منها فوائد روحية كغفران الذنوب وستر العيوب ، ومنها إنسانية كالاعتراف وإطعام الفقراء والمساكين لحوم الأضاحي ، ومنها اقتصادية كالتيقار والتجاري ، ومنها سياسية كي تتعاقد الأمة في قضاياها المصرية ، ومنها علمية كلقاء أهل العلم والسماع منهم... وفي هذا الصدد قال تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ نِعْمَةِ الْإِنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (سورة الحج: الآيات ٢٦-٢٩).

والكعبة أول بيت وضعه الله منذ عهد آدم عليه السلام ، وقد جدد بناءها إبراهيم عليه السلام ، وحجها واجب على جميع الخلق ، قال تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران: الآيتان ٩٦-٩٧).

وللحج أشهر خاصة ووقت معلوم ، وله شعائر معينة منها الوقوف في عرفات ، ثم الانتقال منها إلى المشعر الحرام (مزدلفة) ، وله آداب ثابتة يتخلق بها المؤمن ، وله أدعية مأثورة يتقرب بها العبد إلى ربه ، قال تعالى: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَذَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَهِنَ الصَّالِينَ ، ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (سورة البقرة ، الآيات: ١٩٧-٢٠٣).

وأركان الحج الأساسية أربع: الإحرام ، والوقوف بعرفات ، وطواف الإفاضة ، والسعي بين الصفا والمروة ، وقد ذكر الله الصفا والمروة في قوله عز وجل: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) (سورة البقرة: الآية ١٥٨).

ولمكة أهمية سياسية ، حيث يؤمها كثير من الملوك والرؤساء والمسؤولين من شتى أصقاع العالم الإسلامي ، وبلتقون فيما بينهم كما يلتقون مع القيادة السياسية المحلية في المملكة العربية السعودية ، ويكون اللقاء فرصة للتعاون والتنسيق فيما بينهم. كما تؤم مكة أيضاً كثير من وفود الشعوب المقيمة التي احتلت أراضيها ، أو تعرضت لنكبات وكوارث طبيعية أو إنسانية ، فتجد في رحابها الأمن والأمان ، والدعم والإحسان.

وقد كان الملوك والأمراء وعلية المسلمين يتقربون إلى الله تعالى بأعمال البر بمكة ، فيكرمون الناس ، ويستصحبون الأطعمة والثلج ليوزع في عرفات ، ففي سنة (٣٨٦هـ) مثلاً ؛ حجت الأميرة جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة الحمداني ، فصارت تاريخاً مذكوراً ، قيل : إنها سقت أهل الموسم كله السويق بالطبرزد والثلج ، واستصحبت البقول المزروعة في المراكن على الجمال ، وأعدت خمسمائة راحلة للمقطعين ، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ، ولم تستصح فيها وعندها إلا بشموع العنبر ، وأعتقت ثلاثمائة عبد ، ومائتي جارية ، وأغنت الفقراء والمجاورين.^(٤) هكذا يعزز الحج التواصل فيما بين ملوك وأمراء العالم الإسلامي من جهة ، وبينهم وبين شعوبهم من جهة أخرى ، مما يزيد من اللحمة الداخلية بين المسلمين.

ولمكة أهمية جغرافية ، فهي في منتصف العالم ، ومركز الأرض اليابسة ، وستحدث عن هذا في المبحث الثاني. ولمكة أهمية إنسانية عالمية ، فهي بلد الإنسان أياً كان موطنه ولونه ومهنته ، وفيها جاءت شريعة الله تعالى تنادي بمبادئ العدل والأخوة بين الناس ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (سورة الحجرات: الآية ١٣).

وقد كبر على المشركين ما في الشريعة الإسلامية من مساواة بين العباد ، فطلبوا من الرسول . صلى الله عليه وسلم . أن يطرد العبيد والمستضعفين من عنده كخطوة أولى حتي يفكروا في مشروع الدخول في الإسلام ، وكان الرسول . صلى الله عليه وسلم . يطعم في إيمانهم ، فرفض الله منهم ذلك ، كما رفض أن يكون لعلية القوم مجلساً خاصاً بهم دون السوق والعبيد! ، وسوى بين جميع عباده في الإيمان ، وطلب من نبيه . صلى الله عليه وسلم . أن يبشر المؤمنين به وفي جملتهم هؤلاء المستضعفين بالجنات إذا كان سلوكهم مستقيماً ، فالعبرة بالسلوك وليست بالمراكز الاجتماعية!! ، قال تعالى : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ، وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة الأنعام ، الآيات ٥٢-٥٤).

وما من أمة من الأمم إلا ولها من سلفها سابق إلى هذه الدعوة الإنسانية العالمية ، فبلال سابق الحبشة ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق الفرس... وإن وجدت أمة في أقصى الأرض وليس لها سلف في الجيل الأول فلا بد أن تجد لها سلفاً في جيل التابعين لهم بإحسان ، وبهذا تكون مكة للناس جميعاً ، وأهميتها للبشر على السواء فيما بينهم!.

أبوها آدم وأمها حواء ، عقيدتها التوحيد ، وربها العزيز الحميد ، ونبيها سيد الوجود ، وقرآنها دستورها الخالد ، وغايتها رضا الحق عز وجل ، فيجتهد المطيع بالقربى ، ويجتهد المقصر بالتوبة ، والجميع يستغفرون ويتعاونون ، ويتحملون ويصبرون ، تجري دموعهم على خدودهم ، وتنطلق الأهات من قلوبهم ، في مشهد يكاد يشبه يوم القيامة ، فتتنزل رحمت الله على عباده ، ويكلوهم بعنايته وغفرانه ، ويتوب عليهم أجمعين ، ويباهي بهم ملائكته ، فليس أهل السماء وحدهم منفردين بالطاعة ، بل إن في الأرض من يضاهيهم بفعلها إلى قيام الساعة ، وإذا كان الرب سبحانه يباهي بضيوفه من الحجيج الذي تجردوا له ، وأتوه طائعين ملبين ، فيحق لأهل تلك البلاد المقدسة أن يباهوا أيضاً بمكة والبيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً ، وجعل الأقدرة تهوي إليه من كل فج عميق.

ولها أهمية اقتصادية لأنها طريق القوافل من الشام إلى اليمن ، وكان هذا من قبل الإسلام واستمر بعد ظهور الإسلام ، وقد امتن الله على قريش بما رزقهم من وفرة اقتصادية وأمن جنائي ، ودعاهم لعبادته وحده جزاءً لما حباهم من نعم ، قال تعالى : (لِيُؤْثِرُوا عَلَى الْيَافِ قُرَيْشٍ ، لِيَأْتِيَهُمْ رَحِلَةُ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيُعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (سورة قريش: الآيات ١-٤).

ولا تزال مكة حتى اليوم سوقاً للعرب ولأهل الحجاز خاصة ، وتستفيد من موسمها كثير من الدول المجاورة والجاليات الإسلامية حول العالم عن طريق الاستيراد والتصدير منها وإليها.

ولها أهمية اجتماعية ، فالمجتمع المكي مزيج من جنسيات كثيرة ، ولكل منها سماته الخاصة وعاداته وتقاليده ، ويستطيع المرء أن يتعرف على الأمة الإسلامية كلها من خلال أهل مكة.

كما يستطيع المرء أن يتعرف على عادات المسلمين عموماً وسماتهم الاجتماعية ، حيث الحجاب منتشر ، والفصل في التعليم بين الجنسين قائم ، وإطعام الفقراء والمساكين وبخاصة في رمضان على موافد الحرم ، وهذا مما يدل على الكرم المتأصل في بلاد المسلمين ، كما يستطيع المرء أن يتعرف على بعض العادات السلبية أيضاً ، والتي انتشرت في بلاد المسلمين ، مثل مقاهي الشيعة والتبناك ، والجلوس في الطرقات... وباختصار مكة هي صورة مختصرة للمجتمعات الإسلامية كلها بإيجابياتها وسلبياتها ، ويستطيع الباحث التعرف على المسلمين من خلالها ، ولو كانت بعض الظاهر تتفاوت من مجتمع لآخر أحياناً.

وهناك فائدة اجتماعية أخرى تعود على من قصد الحج ، وذلك وذلك عندما يعود الحاج إلى وطنه ، ويستقبله الناس ، ويمنحهم الهدايا ، مما يعزز الروابط الاجتماعية.. وكان من عاداتهم حسن استقبال الحاج ، وربما انتظروهم على مشارف المدن ، فيقوم الحاج بإكرام مستقبله ببعض الهدايا ، كعود من أراك ، أو جرعة من ماء زمزم ، أو بعض من تمرات المدينة ، وفي حال قصر في ذلك انتقده الناس ، ومن لطيف ما أشد عمرو بن حيان الضرب حين لم يهد الحاج إليه شيئاً:^(٣)

كَانَ الْحَجِيجَ الْآنَ لَمْ يَقْرَبُوا مِنِّي
وَلَمْ يَحْمِلُوا مِنِّي سَوَاكًا وَلَا نَعْلًا
أَتُونَا فَمَا جَادُوا بَعْدَ أَرَاكَةٍ
وَلَا وَضَعُوا فِي كَفِّ طِفْلِ لَنَا نَقْلًا

والحرم مكان العبادة الآمن ، قال تعالى: (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران: بعض الآية ٩٧).

وكان العرب يجلبون أمر اللجوء إليه ، قال الزمخشري: (وكان الرجل لو جر كل جريرة ، ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب) ^(١١) ، ولذلك صارت ساحة الحرم ملاذاً للناس ، لما فيها من أمن وأمان ، فهي لا تقل حصانة عن النجوم وما يحيط بها من فضاء ، فأى عز لمن نزل فيها؟! ، وأي مجد لذلك الممدوح الذي يتمتع جاره بحصانة كأنه في السماء أو في ساحة الحرم؟! ، فلا تطوله أيدي الناس ، ولا يحيط به مكرهم!.

وفي الحرم بُرّ زمزم المباركة ، كما أن فيه الحطيم ، وهو جزء من الكعبة ، وهذه الآيات البينات لم تكن لتغيب عن أذهان الشعراء وأخيلتهم ، فالسري الرفاء لدى وصفه دار عبد الله بن محمد الفياض الكاتب بلحب ، يستعظم تلك الدار الضخمة ، وكان الشعراء يطوفون حولها ، وقد خلبت أبصارهم ، كطوافهم عند الكعبة بين زمزم والحطيم! يقول: ^(١٢)

ودارٌ شُدتْ بعظيمِ قدرٍ
يهيئُ كرائمَ النَشَبِ العظيمِ
يطوفُ المادحونَ بعَفْوَتِهَا
طوافهمُ بزمزمَ والحطيمِ ^(١٣)
تقاصرتُ القصورُ لها فأضحَتْ
وقد طُلُنَ الكواكبُ كالرسومِ

والكعبة المعظمة هي مركز الحرم ، وفيها الحجر الأسود ، وبقرها مقام إبراهيم ، وقد استمد التهامي من الكعبة والركن والمقام تشبيهه لقبيلة طي ، وللأمير حسان بن مفرج الطائي ، فقال يمدحها: ^(١٤)

ألا إِنَّ طِيًّا للمكارمِ كعبةٌ *** وحسانُ منها رُكنُها ومَقَامُها

فطيء هي كعبة المكارم بين القبائل ، وحسان في أكرم موضعين من تلك الكعبة ، وهما الركن المثلث بالشفاء ، والمقام الذي تعفر عنده الجباه ، وبهذا التشبيه جمع الشاعر بين حق القبيلة وحق الممدوح ، وأنزل كلا منهما المنزلة التي تليق به!.

هكذا كانت مكة ملهمة لأخيلة الشعراء على مر العصور ، وما قدمناه غيض من فيض ، وليس سوى مجرد صوى في الطريق ، وإلا فالبحث المفصل يحتاج دراسات مستفيضة ليس موضعها هنا. وصفوة القول: إن لمكة أهمية دينية ، فهي مركز الحج ، وفيها قبلة الصلاة ، ومنها أشرق فجر الإسلام ، ولها أهمية اقتصادية ، فهي سوق تجاري لأهل الحجاز والجزيرة العربية والدول المجاورة لها ، ولها أهمية اجتماعية لأن أهلها مزيج من جنسيات كثيرة ، ولكل منها عاداته وتقاليده ، ويستطيع المرء أن يتعرف على المجتمعات الإسلامية كلها من خلال أهل مكة.

ويؤم كثير من الملوك والرؤساء وبلتقون فيما بينهم ، ويكون اللقاء فرصة للتعاون والتنسيق وهذا جزء من أهميتها السياسية ، كما تؤمها أيضاً كثير من وفود الشعوب المقهورة فتجد في رحابها الأمن والأمان. وتقع مكة في مركز الأرض اليابسة وهذا جزء من أهميتها الجغرافية. وهي بلد الإنسان أياً كان موطنه ولونه ومهنته ، وفيها جاءت شريعة الله تعالى تنادي بمبادئ العدل والأخوة بين الناس وهذا يمنحها أهمية إنسانية عالمية... وكانت مكة ملهمة لأخيلة الشعراء على مر العصور ، مما يعطيها أهمية أدبية أيضاً.

ولمكة أهمية طبية ، فهي علاج لأمراض البدن والروح ، فإذا وصل الحاج إلى مكة ، وكحل عينيه برؤية الكعبة المعظمة ، وشرب من ماء زمزم ، تحققت أحلامه ، ونسي آلامه التي عاناها خلال الرحلة ، وقد يستشفى بماء زمزم لآلامه الجثمانية أو النفسية ، قال الثعالبي: (ويقال إنه .أي: ماء زمزم : أثر جبريل عليه السلام ، فإنه لما شرب له ، ومن يُحصى فضائله؟! فكم من مُبتلى قد عُوفي بالمقام عليه والشرب منه والاعتسال به؟! بعد أن لم يدع في الأرض ينبوعاً إلا أتاه ، واستنقع فيه! ، وكم من متزود منه في القوارير إلى أقاصي البلدان لدوائه ، وغاسل ثيابه بمائه ، لما يرجوه من بركته ، وحسنت عائدته ، قال الأعشى وهو يؤنب رجلاً ويخبره أنه مع شرفه لم يبلغ مبلغ قريش الذين هم سكان حرم الله ، ولهم حظ الشرب من ماء زمزم:

فما أنت من أهل الحجون ولا الصفا
ولا لك حظ الشرب من ماء زمزم ^(٥)

وأما حين يعود الحاج إلى وطنه ، فإنه يعود منشراح الصدر مسروراً بأداء المناسك ، منفكاً من عقد الذنوب والآثام ، طاهراً نقياً كحاله يوم ولدته أمه ، وقد صور ذلك كثير عزة فقال: ^(٦)

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهاري رحالنا
ولم ينظر القادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الحديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

هكذا تنساب الإبل في الصحراء ، من كل أبطح كانسياب الماء العذب ، متجهة إلى أوطانها ، محملة بالهدايا إلى الأهل والأصدقاء ، وقد امتلأت نفوس ممتهطها بالسعادة والفرح الذي تظهر ملامحه من خلال أحاديثهم التي تفيض بالأنس والابتهاج.

ولمكة أهمية أدبية أيضاً ، فلم ينس شعراء العروبة والإسلام أن يقنصوا منها ومن جبالها ووهادها ، وصفاتها وأحوالها صوراً شعرية لهم ، وكيف لا تكون لها أهمية شعرية وعلى مقربة منها كانت تقوم سوق عكاظ ملتق شعراء العرب في الجاهلية ، ثم جاء الإسلام فعزز من كانت الأدب والبيان ، واعتبره الله من نعمه على هذا الإنسان ، قال تعالى: (الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) (سورة الرحمن: الآيات ٤-١). كما جعل القرآن معجزة لنبيه .صلى الله عليه وسلم .بلسان مبين ، قال تعالى: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (سورة النحل: الآية ١٠٣).

ومما اقتنصه الشعراء من الصور ما أوحى به إليهم طباء مكة التي يضرب بها المثل في الأمن ، لكونها في الحرم الآمن الذي حرم الله فيه الصيد ، وقد وجد الشاعر صردر مشابهة بين طباء الإنس التي يهواها ، وتذهب جهوده في الوصول إليها أدراج الرياح ، لما يحيط بها من حراسة وصون ، وبين طباء مكة التي لا يمكن صيدها! يقول: ^(٧)

ما خلث غزلانَ اللّوى *** كطبّاء مكة لأثصاد

وقد امتد تأثر الشعراء من القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، إلى المشاعر المقدسة ، فالبحتري يمدح مالك بن طوق ^(٨) ، الذي يتمتع جاره بالأمن والرعاية ، ويلقى العزة والمناعة ، ويرقى إلى منزلة رفيعة ، وكأنه ينزل بين السماكين أو في ساحة الحرم! يقول: ^(٩)

كأنما جازة من عزّ جانبه *** بين السماكين أو في ساحة الحرم ^(١٠)

إذا حججتَ بهمالٍ أصله دنسٌ
فما حججتَ ولكنَّ حجتَ العُبرِ
ما يقبل الله إلا كلَّ طيبةٍ
ما كل من حجَّ بيت الله مبرور

خامساً: ومكة بعيدة عن مراكز الحضارة في بلاد فارس والروم ، وأهلها أميون ، وكان بعض العرب يدفعون الضرائب للأمم الأخرى اتقاء لشرها ، فكيف يعقل أن تخرج شريعة ذات قوانين تعلم الناس قواعد الحضارة والتعايش السلي من قلب الصحراء ؟ إنها النبوة ولا احتمال غير هذا ، وخروج الشيء من غير موضعه المعتاد أظهر لقدرة الله تعالى ، ودليل على أن معجزة ما قد حصلت ، وقد أقر بهذا هرقل عظيم الروم في حديثه مع أبي سفيان ، وذكر بأن محمداً هو نبي آخر الزمان ، وهذا من فضل الله على أهلها والعرب ، قال تعالى يتحدث عن النقلة النوعية للعرب بفضل الإسلام: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة: ٢).

سادساً: وإذا كانت مكة في بلد غير ذي زرع ، فهذا قد يقتضي جوع أهلها ، ولكن أنى يجوعوا وقد دعا لهم إبراهيم عليه السلام بالرزق ، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (البقرة: ١٢٦) ، وهذا الدعاء معجزة باقية متحققة إلى يوم القيامة ، والبلد الفقير لا تكاد تجد فيه ما يسد الرمق ، ولكن الله هباً لأهلها أسباب الرزق والتجارة ، فلا تعدم شيئاً إلا وجدته بمكة ، أليس هذا دليلاً على فضل الله ورعايته لأهلها ؟ سابعاً: وأما ماء زمزم فهو الشفاء لكل داء ياذن الله تعالى ، وهو أمر مجرب ، قال الشاعر:

يا مَنْ يعاني ... همه الأسقام
وتذيقه مرَّ الأسى الأيام
اهرغ لززم فارتشف من يبرها
تلقى المني .. وكأنك الضرغام
والله قد جعل الشفاء بمائها
فحققت من فضله الأحلام

وبقاؤه حتى يومنا هذا دليل على الكرم الإلهي الذي لا ينفد ، ويندر أن تجد بئراً في الصحراء لا تنضب عبر آلاف السنين مع شرب الألوف منها.

ثامناً: وأثبت العلم الحديث أن مكة مركز للأرض ، ولما كانت مركزاً استحققت أن تكون قبلة لأهلها أيضاً ، وقد نشرت مجلة العلم والإيمان اللبينة مقالات عدة بهذا الخصوص ^(١٦) . فطوبى لأمة هذه بعض مزايا قبلتها ، وطوبى لمن سكن بلدة هذه بعض خصائصها ، وطوبى لمن زارها حاجاً أو معتمراً يطلب عفو الله وغفرانه إلى يوم الدين ^(١٧) .

والخلاصة أن مكة المكرمة خصها الله تعالى بخصائص عدة ، وموقع جغرافي مميز ، فمن ذلك وجودها بين الجبال جعلها في مأمن من الزلازل ونحوها ، وكون مكة قريبة من البحر ، فلا تبعد عن جدة أكثر من ثمانين كيلو متراً ، وهذا يسهل الوصول إليها عبر البر والبحر ، ومناخ مكة حار في نصف العام ومعتدل في نصفه الآخر ،

وبلد تلك مزاياه وخصائصه خليف أن يهتم به الباحثون ، ويقصده المؤمنون ، ويبحث عنه الإعلاميون الصادقون ، فهو يمثل خلاصة الحضارة الإنسانية على مر العصور ، وهو يحوي العالم بكل ما فيه بشكل مصغر ، ومن هنا تنبع أهميتها عبر التاريخ إلى قيام الساعة !.

المبحث الثاني: من خصائص البلد الأمين

لما كانت مكة أم القرى ، فقد اختار الله لها موقعاً مميزاً ، فجعلها في قلب الجزيرة ، بعيدة عن جيوش الروم والفرس ، حتى تبقى آمنة من الغزو والسلب ، فلما أراد طاغية من الحبشة أن يهدم كعبتها ، ولم يكن لأهلها طاقة في دفعه تدخلت السماء للذود عنها ، وقد تعهد الله بحمايتها بنفسه ، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) (الحج: ٢٥).

وقد سماها الله بأسماء كثيرة ، فهي مكة وبكة والبلد الحرام والبلد الأمين وأم القرى ، ولكل من هذه الأسماء دلالة ، والواجب على زائرها أن يحترم قدسيته ولا يفرط بأمنها ، ولا يعصد شجرها ، ولا يقتل صيدها ، فكل ما في الحرم فهو آمن . ولوقعها الذي اختاره الله تعالى خصائص متعددة ، منها ما يلي:

أولاً: وجودها بين الجبال جعلها في مأمن من الزلازل ونحوها ، لأن الجبال أوتاد الأرض ، وجعلها مهيبة تتناسب وجلال النبوة والوحي ، وحماها من الرمال الجارفة التي قد تطمرها في ما لو كانت مكشوفة في الصحراء ، فتحوى آثارها ، ولا يعرف الناس سبيلاً إليها.

ثانياً: إن مكة قريبة من البحر ، فلا تبعد عن جدة أكثر من ثمانين كيلو متراً ، وهذا يسهل الوصول إليها عبر البر والبحر ، قال تعالى: (أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْغَنَةِ وَحَرَمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المائدة: ٩٦). ولو كانت مكة في أي موقع آخر بعيد عن البحر لتعذر الوصول إليها إلا عن طريق الإبل ، وهذا فيه مشقة على الناس وتعريضهم للخطر نظراً لندرة المياه في الجزيرة ، وعدم توفر أسباب الأمن فيها قبل الإسلام.

ثالثاً: جو مكة حار في نصف العام ومعتدل في نصفه الآخر ، وهذا الجو يتناسب مع ملابس الإحرام ، ولو كانت بلداً بارداً لتعذر ذلك.

رابعاً: جعلها الله في واد غير ذي زرع ، حتى يقصدها الحاج مخلصاً لله تعالى ، ولو كانت ذات حدائق لاختلط القصد عند بعضهم بالسياحة ، وقد أراد الله من الحاج أن يتجرد له ، فأمره بخلع ملابسه وليس الإحرام ، وحرمة من أطيب اللذات ، وهما: الطيب والنساء ، فكيف يريد متجرداً له ، ثم يقيم له الحدائق الغناء ، والأنهار العذبة ، والطبيعة الفاتنة التي ستلهيه عن ذكر الله ، ولذلك ساعد الله عباده بأن جعلها بواد غير ذي زرع لكي لا يشغل أنظارهم وأفئدتهم سحر الطبيعة الغناء ، فيكون القصد خالصاً لوجهه الكريم . والإخلاص لله تعالى مطلوب في كل الأعمال والأحوال ، ومن ذلك في شعيرة الحج ، ولا بد أن يصحب الإخلاص صواب العمل ، ومن صوابه في رحلة الحج أن يكون الحج من مالٍ حلالٍ ، وقد جسد هذا المعنى أبو الشمقم فقال: ^(١٥)

يوم القيامة ، وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ، ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعي).^(٢١) فأى هول ذاك الهول الذي يشبه سؤال الملكين؟! وكم هي الصعوبة في الوصول إلى حرم الله الآمن ، وقد نصب قطاع الطريق من حوله شركهم؟! والعجب من الإمام الغزالي كيف جعل الخلل الأمني وسيلة اعتبار للآخرة! ولم يناد بضرورة تطهير البلاد وتأمين العباد من عناصر الشر والفساد ، وهو المصلح الاجتماعي العظيم!

ولقد استمر انعدام الأمن حتى نهاية الدولة العثمانية تقريباً ، فحين أقامت الدولة العثمانية الخط الحديدي الحجازي ، لم تنس أن تقيم (محطات على طول الخط ، وكانت المحطات تستخدم أيضاً قلاعاً لحراسة خط الحديد وأسلاك البرق ومكاتب الموظفين ، ومساحاتهم من غارات البدو).^(٢٢) وكان الوقت الذي يستغرقه القطار في التحرك من دمشق إلى المدينة اثنتين وستين ساعة فقط ، أما بقية الوقت فكان يضيع في وقوف القطار في المحطات ، وتغيير القاطرات ، وتجنب السير ليلاً في الليالي غير القمرية ، أخذاً بأسباب الحذر من هجوم قبائل البدو على عربات القطار).^(٢٣)

فإذا كانت الدولة العثمانية وهي من أقوى دول العالم في عصرها لا تأمن الغارات ؛ فكيف تأمنها قوافل الحجاج والمسافرين الذين يأتون على ظهور الإبل؟! والسبب في قطع الطريق ، أن بعض البدو قد عادوا إلى جاهليتهم ، فسلبوا الحجاج وقتلوهم ونهبوهم ، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في وصف حال البدو في زمانه: (إن العلماء في زماننا يقولون: من قال لا إله إلا الله. فهو المسلم ، حرام المال و الدم ، لا يكفر ولا يُقاتل ، حتى إنهم يصرحون بذلك في شأن البدو الذين يكذبون بالبعث ، وينكرون الشرائع ، ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حق الله ، ولو طلب أحد منهم خصمه أن يخاصمه عند شرع الله لعدوه من أنكر المنكرات ، بل من حيث الجملية: إنهم يكفرون بالقرآن من أوله إلى آخره ، ويكفرون بدين الرسول كله ، مع إقرارهم بذلك بالسنتهم وإقرارهم أن شرعهم أحدثه آبائهم لهم كفرة بشرع الله ، وعلماء الوقت يعترفون بهذا كله ، ويقولون: ما فيهم من الإسلام شعرة ، وهذا القول تلقفته العامة عن علمائهم ، وأنكروا به ما بينه الله ورسوله ، بل كفروا من صدق الله ورسوله في هذه المسألة ، وقالوا من كفر مسلماً فقد كفر ، والمسلم عندهم الذي ليس معه من الإسلام شعرة ، إلا أنه يقول بلسانه: لا إله إلا الله ، وهو أبعد الناس عن فهمها وتحقيق مطلوبها علماً وعقيدة وعملاً).^(٢٤)

واقع نجد والجزيرة العربية قبل الإصلاح الأخير

ما إن أطل القرن الثاني عشر الهجري حتى كانت أحوال المسلمين عامة ، وفي شبه الجزيرة العربية على وجه الخصوص تتدرج من سيئ إلى أسوأ ، فقد انتشر الجهل والامية انتشاراً دريعاً في المجتمعات الإسلامية ، وفشت المنكرات إلى حد كبير ، وشاب العقيدة الإسلامية الصافية كثير من البدع والخرافات ، وصارت تلك البدع والخرافات ترتدي سمات العبادة وأردية القداسة ، وكان ذلك يحدث في بيئة نجد على وجه الخصوص ، وكذلك الأمر بالنسبة لشئون الحياة الأخرى ، فقد انعدمت مكارم الأخلاق عند الغالبية العظمى من القبائل ، وانتشر قطاع الطرق والصوص والقتلة ، وكان بعض الحكام شركاء للرعية في هذه الجرائم ، وكثيراً ما كانوا يقتلون

وهذا الجو يتناسب مع ملابس الإحرام ، وجعلها الله في واد غير ذي زرع ، حتى يقصدها الحاج مخلصاً لله تعالى ، ومكة بعيدة عن مراكز الحضارة في بلاد فارس والروم ، وأهلها أميون ، فكيف يعقل أن تخرج شريعة ذات قوانين تعلم الناس قواعد الحضارة والتعايش السلمي من قلب الصحراء؟ إنها النبوة ولا احتمال غير هذا ، وإذا كانت مكة في بلد غير ذي زرع ، فهذا قد يقتضي جوع أهلها ، ولكن أنى يجوعوا وقد دعا لهم إبراهيم عليه السلام بالرزق ، وأما ماء زمزم فهو الشفاء لكل داء ياذن الله تعالى ، وهو أمر مجرب ، وأخيراً فقد أثبت العلم الحديث أن مكة مركز للأرض ، ولما كانت مركزاً استحققت أن تكون قبلة لأهلها أيضاً ، وهذا من فضل الله على العالمين.

المبحث الثالث: مشكلات في الطريق إلى مكة المكرمة

لم تكن الطريق إلى الحج رحلة سهلة ، بل هي رحلة محفوفة بالمخاطر ، أو قل هي رحلة حياة محفوفة بالموت! ، أو رحلة موت محفوفة بالحياة! ، فالذاهب فقيد ، والعائد بالسلامة وليد! ، ومن المشكلات الكثيرة التي كانت تواجه الحجاج قديماً في سيرهم إلى مكة المكرمة الآتي:

أولاً : الأمن وسلامة الطريق إلى بيت الله الحرام

الأمن من مقاصد الشريعة ، وهو قوام الحياة والدين ، ولقد سعت الشريعة إلى الأمن الشامل: الأمن لفكري بحفظ الدين والعقل ، والأمن الاجتماعي بحفظ العرض ، والأمن الاقتصادي بحفظ المال ، والأمن الجنائي بحفظ النفس^(١٨) ، وشرعت قوانين صارمة لحماية الأمن ، من ذلك ما جاء في عقوبة المفسدين في الأرض ، قال تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله أن يقتلوا أو يُصلبوا) (المائدة: بعض الآية ٣٣). قال أبو السعود: (وأصل الحرب: السلب ، والمهاد هنا قطع الطريق).^(١٩)

لقد عززت الشريعة الإسلامية القوانين التي تحمي الحضارة والأمن والمدينة قبل أن يعرفها أهل زماننا بأربعة عشر قرناً ، وذلك لأن رعاية هذه القوانين وإقامتها لهو مما يؤمن للبشرية الأمن والرخاء والسعادة في الدنيا والآخرة.

والطريق إلى بيت الله الحرام كانت عبر العصور الماضية شاقة غير سالكة في بعض الأحيان ، وذلك بسبب الفتن والمؤامرات والانشقاقات التي تحدث بين فترة وأخرى داخل الدولة من قبل جماعات متطرفة أو خارجة على القانون كالقرامطة مثلاً ، ففي سنة (٣١٧هـ) قام أبو طاهر القرمطي بالزحف على مكة ، وقتل الحجاج (يوم التروية ، وهم يهلون ويلبسون ، وقتل الحجاج في فجاج مكة ، وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، ويقال: إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف! ، طُرح كثير منهم في بئر زمزم ، وعُرى البيت من كسوته ، وقلع بابه ، واقتلح الحجر الأسود ، وأخذ معه إلى هجر... ونهب جميع التحف التي زين بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة... ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة (٣٢٦هـ) خوفاً من شره وشر أتباعه من القرامطة).^(٢٠)

وقد يتعثر الوصول إلى بيت الله الحرام بسبب قطاع الطريق ، هؤلاء الذين تحدث عنهم أبو حامد الغزالي وذكر ما يوقعونه من الرعب في قلوب الحجاج ، هذا الرعب الذي لا يشبه له إلا سؤال الملكين في وحشة القبر ، فقال: (وأما دخول البادية إلى الميقات ، ومشاهدة تلك العقبات ، فليذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات

وصاحب سوء وجهه لي أوجه
وفي فمه طبلٌ لسري يضرب
ولابد لي منه فحيناً (يَقْصِي))
وينسأغ لي حيناً ووجهي مقطب
كماء طريق الحج في كل منهل
يُذمُّ على ماكان منه ويشرب

لقد كانت المياه قليلة ، "وكان الحجاز ، ولا سيما مكة وجدة ، من أقل المواطنين المعمورة في الجزيرة ماءً ، وأكثرها ازدحاماً ونمَاءً"^(٢٩) . وقد أسهمت النهضة الحديثة في حل مشكلة المياه للسكان والحجاج عبر تحلية مياه البحر! فسبحان من علم الإنسان ما لم يعلم!

ثالثاً: الرمال المتحركة والأعاصير

وهي من مشكلات العيش في الصحراء ، أو السفر فيها ، وقد عانى الحجاج قديماً من وعناء السفر ، فلا يصلوا إلى بيت الله الحرام إلا وهم شعث غبر... وقد تم التغلب نسبياً على بعض هذه المشكلات في العصر الحديث ، وذلك باستصلاح بعض الأراضي وزراعتها ، يقول الزركلي في هذا الصدد: "وأذكر أننا كنا نعجب في الرياض ، لما يُحمل إلينا من ثمار الخَرْج ، وتأمل أحد الأصدقاء في بطيخة كبيرة الحجم ، حمراء ، حلوة الطعم ، وقال: هذه الحبة قد أنفق عليها من الريالات بقدر حجمها"^(٣٠) .

كما تمت عملية توطين البدو في "الهجر جمع هجرة ، وهي في عرفهم الانتقال من البداوة إلى الحضارة ، فحيثما وجد الماء في قلب الجزيرة ، كان على أقرب قبيلة بدوية منه أن تهجر بيوت الشعر ، وأن تبني إلى جوار الماء ، وتقتني الماشية وتزرع وتحصد وتستقر ، ولها من بيت المال المساعدة على الزراعة ، ومصيرها أن تتحضر"^(٣١) .

رابعاً: قلة المحطات ونقاط العلام

حاول بعض الخلفاء والملوك إنشاء محطات في طريق الحج ، ولكن الرمال والأعاصير قد تخربها أو تطمر نقاط العلام إليها ، وقد يخربها أهل السلب والنهب من البدو وقطاع الطرق ، وربما تاه الحجاج في الصحراء وماتوا بسبب فقد الوجهة الصحيحة ، وفي التاريخ أخبار كثيرة من هذا. وفي الصحراء تتشابه الجهات على الإنسان ، وقد تختلط الأمور ، قال ابن المعتز:^(٣٢)

ومهمه كرداء العصب مشتبهِه
قطعته والدجى والصبح خيطان
والريح تجذب أطراف الرداء كما
أقضى الشفيق إلى تنبيه وسان

خامساً: الخدمات الطبية المفقودة

لم يكن في العصور القديمة عناية كبيرة بالمراكز الصحية في طريق الحج ، ومن مات في الطريق دفنوه حيث مات ، أو ألقوه في البحر إن كان قادماً على سفينة ، يقول الزركلي: "العناية بالصحة العامة ، في الجزيرة ، وفي الحجاز على الخصوص ، من أبرز ما عرف عن الملك عبد العزيز. لم يكن قبل عهده أكثر من بضع منشآت ، يمكن اعتبار أكثرها منت المظاهر التي لا أثر لها في الواقع ، انحصرت في مكة والمدينة وجدة وينبع ، لخدمة الحجاج"^(٣٣) .
والخلاصة أن ثمة مشكلات كثيرة كانت تواجه الحجاج قديماً في سيرهم إلى مكة المكرمة ، وجدنا منها فقدان الأمن وسلامة الطريق إلى بيت الله الحرام ، ونُدرة الماء الصالح للشرب ، والرمال المتحركة

رجال الدين والقضاة والسيوخ والوعاظ ، وقد حدث هذا مرات عديدة ، منها أحداث ١١١٦ هـ ، حيث قتل أهل القصيم كافة أهل الرأي والدين والتقوى في بلادهم ، وقتل أهل بلدة جناح علماءهم وفتكوا بهم ، ومن قتلوا عالم جليل مكفوف البصر ، ولم يكفهم قتله ، بل صلبوه منكسا على رأسه ، إذ وضعوا الحبل في رجليه وفيه رمق ، وفعلت كل مدينة أو قرية بعلماؤها مثل ما فعلت القصيم وجناح.

ومن خلال هذه التصفية الجسدية لأهل العلم خلا الجو لأهل الضلال ، وأقصي الدين عن حياة الناس ، وشاب العقائد ما شابها من الانحراف والبعد عن الجادة ، ففي بليدة (الفدا) كان هنالك ذكر النخل ، المعروف بالفحال ، يقصده الرجال والنساء ، فالمرأة التي لم يتقدم إليها خاطب تنوّل إليه في خضوع وتقول: يا فحل الفحول ، أرزقني زوجاً قبل الحول. فإذا أتمت ابتهاها إليه ، انصرفت إلى الشبان تغويهم ، فإذا تزوجت أحدهم قيل لها: إن ذلك من عمل فحل الفحول.^(٣٤)

أما بقية العالم الإسلامي خارج الجزيرة العربية ، فقد كان يعيش في جو عام من التأخر والفساد ، فعلى الرغم من الإطار الديني للدولة العثمانية ، فقد كان الجهل مطبقاً ، والمظالم منتشرة ، والحالة الاقتصادية متدهورة من سيئ إلى أسوأ. هكذا كانت حالة المسلمين وكأنها قطع من الليل مظلم ، بانتظار الفجر الذي سيسقي جلايب الظلام!

بشائر الرؤيا الصالحة

في هذه الأجواء المتلبدة التي تعصف بنجد ، ومن ورائها جيرانها من العرب والمسلمين في العالم الإسلامي ، شاءت إرادة الله أن ينصر دينه ، ويروي المؤرخون الجانب على سبيل القصة أنه بينما كان (الشيخ سليمان بن علي نائماً ذات يوم ، فرأى أن شعلة خرجت من بدنه وانتشرت في الصحراء ، فأحرقت خيامها ، ومضت إلى المدين فدمرت دورها ، وقد سأل سليمان بعض العارفين أن يفسروا له رؤياه ، فقالوا: سيولد لك ولد يكون له شأن عظيم ، ومقام كريم ، يبطل معتقدات أهل نجد وعاداتهم ، ويدعو إلى الدين الحق ، وقد تحقق هذا الحلم بولادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حفيد الشيخ سليمان).^(٣٥)
هكذا كانت الطريق إلى الحج غير آمنة ، وقد هيات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب البدو للتوبة ، وأعادت قسماً كبيراً منهم إلى الصواب عندما انبثقت شعلتها من نجد ، فكان لها الفضل في الحد من غارات البدو ، والتأمين النسبي لطريق الحج^(٣٦) ، إلى أن قامت ثورة الاتصالات ونهضة المواصلات ، فصار المرء يستخدم الطائرات ويصل بأقل الوقت من أدنى الأرض إلى أقصاها ، وهذا من فضله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

ثانياً: ندرة الماء

والطريق إلى بيت الله الحرام شاق طويل ، محفوف بالمخاطر والأهوال ، ومن هذه المخاطر ندرة مياه الشرب العذبة ، مما يضطر قاصده إلى أن يشرب من المياه الكدرة أحياناً مع كراهيته لها وعدم استساغتها ، ويلتمس عبد الله بن المعتز من هذه الظاهرة تشبيهاً لقربين السوء المتعدد الوجوه والأقنعة ، والذي يذيع الأسرار ويكشف الأستار ، ومع ذلك قد يضطر المرء إلى صحبته ، ولا يجد غناءً عنه.^(٣٨)

"وكان الحجاج يواجهون مشاق السفر والترحال للوصول إلى مكة المكرمة، مما جعل الخلفاء يهتمون بطرق الحج ومسالكه، وظهرت في الدولة الإسلامية وظيفة أمير الحج الذي يقوم برعاية الحجاج وتأمين وصولهم إلى مكة وعودتهم منها. ومن مظاهر اهتمام الخلفاء بطرق الحج، أنهم أقاموا محطات على الطرق، وحددوا المسافات بين المحطات، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٤٤ - ٦٤٤م) بذلت عناية خاصة بالطريق ما بين المدينة ومكة المكرمة، فعندما توجه الخليفة عمر إلى مكة لأداء مناسك العمرة، طلب منه اصحاب الميعة الإذن بإنشاء استراحات على طول الطريق، ليجد كل حاج المأوى والماء. فاهتم الخليفة عمر بن الخطاب بإنشاء الاستراحات والنزل في المدينة المنورة، ليتمكن الحجاج والهجرة من النزول بها خلال سفرهم، وبهذا كان الخليفة عمر بن الخطاب أول من أهتم بالطريق بين المدينة ومكة... وكانت هناك سبعة طرق رئيسية تأتي من أنحاء الدولة الإسلامية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة هي:

١- طريق الكوفة - مكة المكرمة:

"يعد هذا الطريق من أهم طرق الحج والتجارة خلال العصر الإسلامي، وقد اشتهر باسم (درب زبيدة) نسبة إلى السيدة زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد، التي أسهمت في عمارته فكان أن خلد ذكرها على مر العصور. وقد استخدم هذا الطريق بعد فتح العراق وانتشار الإسلام في المشرق، وأخذ في الإزدهار منذ عصر الخلافة الرشدية، وأصبح استخداماً منتظماً وميسوراً بدرجة كبيرة، إذ تحولت مراكز المياه وأماكن الرعي والتعدين الواقعة عليه إلى محطات رئيسية. وفي العصر العباسي، أصبح الطريق حلقة اتصال مهمة بين بغداد والحرمين الشريفين وبقية أنحاء الجزيرة العربية. وقد أهتم الخلفاء العباسيون بهذا الطريق وزودوه بالمنافع والمرافق المتعددة، كبناء أحواض المياه وحفر الآبار وإنشاء البرك وإقامة المنارات وغير ذلك. كما عملوا على توسيع الطريق حتى يكون صالحاً للاستخدام من قبل الحجاج والمسافرين ودوابهم. وتشير المصادر التاريخية والجغرافية والآثار الباقية إلى أن مسار هذا الطريق خطط بطريقة عملية وهندسية متميزة، حيث أقيمت على امتداد المحطات والمنازل والاستراحات، ورصفت أرضيته بالحجارة في المناطق الرملية والموحلة، فضلاً عن تزويده بالمنافع والمرافق اللازمة من آبار وبرك وسدود، كما أقيمت عليه علامات ومنارات ومشاعل ومواقف توضح مساره، ليهتدي بها المسافرون. فمنذ بداية الدولة العباسية، أمر الخليفة أبو العباس السفاح بإقامة الأميال (أحجار المسافة) والأعلام على طول الطريق من الكوفة إلى مكة، وذلك في عام ١٣٤ هـ / ٧٥١م، ومن بعده أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بإقامة الحصون وخزانات المياه في نقاط عدة على طول الطريق. على حين أمر الخليفة المهدي ببناء القصور في طريق مكة، كما أمر الخليفة هارون الرشيد ببناء خزانات المياه وحفر الآبار وإنشاء الحصون على طول الطريق، فضلاً عن تزويده بالمرافق والمنافع العامة لخدمة الحجاج والمسافرين وراحتهم. وقد عين الخلفاء ولاية يشرفون على الطريق ويتعهدونه بالصيانة والإعمار أولاً بأول.

"ويبلغ عدد المحطات الرئيسة في هذا الطريق سبعة وعشرين محطة، ومثلها محطات ثانوية تسمى كل منها (متعشى)، وهي استراحة تقام بين كل محطتين رئيسيتين. ويمكن رصد المحطات

والأعاصير التي تشوي الوجوه، وقلة المحطات ونقاط العلام، والخدمات الطبية المفقودة... ولكن هذا لم يكن ليصد الحجاج عن الوصول إلى بيت الله الحرام، يحدهم الشوق إلى الجنة، والأمل بالغفران، وقد قيل:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده *** ولا الصبابة إلا من يعانيتها

وبحمد الله وفضله أن هذه المشكلات بدأت تتلاشى في عصرنا الحاضر، فأنت تصل إلى جدة في ساعات معدودة بالطائرة، فلم يعد يمنع من الوصول إلى بيت الله شيء، إلا الأمراض المعدية، حيث تحتجز بعض الدول عن إرسال حجيجها خوفاً من العدوى، ولله الأمر من قبل ومن بعد!

المبحث الرابع: أهم الطرق القديمة إلى مكة المكرمة

نحدث هنا عن أهم طرق البر والبحر القادمة من اليمن ومصر والشام والعراق ونجد، وهذه الطرق تمثل المرحلة الأخيرة للحجاج القادمين من شرق آسيا وغرب إفريقيا والأندلس قديماً، وأما حجاج اليمن ومصر والشام والعراق ونجد فهي تعتبر لهم طرق مباشرة للوصول إلى مكة، فليس ثمة مرحلة قبلها، وبالنسبة للترك مثلاً فهم لا بد أن يمرروا بالشام، فتعتبر الشام المرحلة الأولى لهم، بعد أن يجتازوا حدود بلادهم، والطريق إلى الحجاز المرحلة الثانية... وهكذا تتعدد المراحل بحسب قرب البلد أو بعده عن الجزيرة العربية.

والطرق قديماً سالكة وأمنة إلى حد ما خارج الجزيرة العربية، ولا تخلو من خطورة في قلب الجزيرة، بيد أن أصعبها وأخطرها هو مرحلة الوصول إلى مكة من أطراف الجزيرة العربية، وذلك بسبب رداءة المناخ أحياناً، ورما الصحراء وأعاصيرها، وبسبب فقدان الأمن وندرة المياه، فمن استطاع الوصول إلى البيت العتيق، والعودة إلى وطنه سالماً، فكانها كتبت له الحياة من جديد!

وفيما يأتي نورد بعضاً مما جاء في إصدارات وزارة النقل السعودية، وبخاصة: (الكتاب المؤني) حيث جاء الفصل الأول بعنوان: (وقف مع الماضي - المواصلات والاتصالات عبر العصور) وفي الفقرة الثانية منه: (العصور الإسلامية)، وتبدأ بـ (أ- طرق الحج) ومنها نقبس الآتي: (٣٥)

"كانت مكة قبل ظهور الإسلام مركز نشاط للمسافرين والتجارة، وذلك بفضل موقعها على الطرق التجارية القديمة التي كانت تربط المناطق الغنية بجنوب الجزيرة العربية مع كل من مصر وفلسطين وسوريا والعراق، كما كانت مركزاً دنيماً يحج إليه الناس منذ بناء الكعبة على يد إبراهيم عليه السلام. وكان العرب في جاهليتهم يقومون بتأدية تلك العبادة الدينية بما يتناسب مع فطرتهم ويتواءم مع معتقداتهم "وعندما أشرق الإسلام بنوره وأضاء ظلمات الجاهلية، أصبح الحج إلى بيت الله الحرام فريضة على كل مسلم مستطيع... وهكذا عادت أهمية مكة بعد ظهور الإسلام، حيث أخذ المسلمون يتوافدون إليها لأداء هذا المنسك".

"وفي عهد الخلافة الراشدة، كان جميع سكان الجزيرة العربية قد دخلوا في الدين الإسلامي الحنيف، كما انتشر الإسلام في العراق، وفارس، وبلاد الشام، ومصر، وشمال إفريقيا، ودخلت بلدان كثيرة في الدين الإسلامي، فأصبحت أعداد حجاج المسلمين في زيادة مطردة، مما أوجب عناية خاصة بطرق الحج، ونبه الناس إلى ضرورة المحافظة على مظهر الطريق الذي يسلكونه".

السعودية عبر وادي الباطن ومروراً بالحفر ، ثم يخترق رمال الدهناء ويمر بمنطقة القصيم حتى يصل إلى ضربة ، آخر محطاته بالقصيم ، ثم يستمر الطريق ويمر بعدة قرى ومنازل للمياه منها جديلة فالدينة ثم يمر بقبا وممران حتى يصل إلى أم خرمان (أوطاس) شمال شرق مكة المكرمة".

"ويجتاز طريق البصرة إلى مكة مناطق صحراوية وسهلية ومناطق صالحة للرعي والزراعة ، أنشئت في بعضها العيون و القنوات و السدود. وتعد الفترة الممتدة من القرن الأول الهجري إلى القرن الثالث الفترة الذهبية لهذا الطريق. فقد شهد الطريق خلال القرن الأول الهجري عناية خاصة من ولاة البصرة الأمويين ، وبخاصة الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي سلك هذا الطريق إلى مكة ، وقام بفحص المياه في المحطات التي مر عليها على طول الطريق ليعرف مدى جودتها... كما بعث رجلاً من بني سليم يقال له عضيدة لحفر المياه على الطريق... وفي العصر العباسي زاد الإهتمام بالطريق وسلكه عدد من الخلفاء في رحلتهم إلى الحج مثل أبي جعفر المنصور و هارون الرشيد ، غير أن الطريق دخل منذ نهاية العصر العباسي الأول (١٣٢ هـ) في مرحلة من الإهمال".

" أما آثار الطريق الباقية فتتمثل في سلسلة من الآبار والبرك والقنوات والسدود والقصور والأعلام وأعمال الرصف والتمهيد ، وتوجد آثار مهمة للطريق في منطقة القصيم ، ففي الأسياح توجد أطلال قصر كبير مبني بالحجارة له بقايا عقود نصف دائرية ، وبالقرب منه آثار العيون والقنوات القديمة والبرك والسدود. وفي ضربة لا تزال آثار البلدة القديمة باقية بالإضافة إلى العيون والبرك. ويلاحظ أن بعض محطات الطريق استمر فيها الاستيطان الحضاري أو بالقرب منها بسبب توافر المياه والمناطق الرعوية ، كما أن بعض المحطات اختفت معالمها تحت الكثبان الرملية. ومن المحطات المهمة على طريق البصرة بركة الخرابة الواقعة عند التقاء الطريق مع طريق الكوفة بالقرب من أم خرمان وذات عرق ، وهي عبارة عن بركة دائرية لها مضافة مستطيلة تصل إليها المياه بواسطة قناة أرضية مسقوفة تمتد من وادي العقيق".

٢- طريق الحج المصري:

"يسير حجاج مصر ومن رافقهم من حجاج المغرب والأندلس وأفريقيا من بلادهم متجهين إلى شبه جزيرة سيناء للوصول إلى أيلة (العقبة) وهي أول محطة لطريق الحج المصري في الجزيرة العربية ، وبعد أيلة تمر قوافل الحجاج على حقل ، ثم الشرف ، ثم مدين (مغائر شعيب - البدع). وكان لحجاج مصر طريقان بعد رحلتهم من مدين : أحدهما داخلي ، والآخر ساحلي. ويتجه الطريق الداخلي إلى الجنوب الشرقي ماراً بشغب ثم بدا ، ثم منطقة وادي القرى حيث يلتقي في السقيا (الخشبية) بطريق الحاج الشامي ليسير معه إلى المدينة المنورة ، وأما طريق الساحلي فيمر على محطات عدة بعد مدين ، منها : عينونا ، ثم النبك (المويلح) ثم ضباء ، ثم العويند ، ثم الوجه ، الحوراء ، ثم الأحساء (مغيرة - نبط) ، ثم ينبع ، ثم الجار ومنها إلى مكة المكرمة مروراً بالحجفة ، ثم خلبص ، ثم عسفان ، أو إلى المدينة المنورة مروراً ببدر. وكان الطريق الداخلي هو الأكثر استخداماً خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى ، ثم زاد استخدام الطريق الساحلي بعد ذلك التاريخ".

الرئيسية والمنازل الواقعة على طول الطريق على النحو التالي :الكوفة ، القادسية ، العذيب ، وادي السباع ، المغيثة ، مسجد سعد ، القرعاء ، الطرف ، واقصة ، القبيات ، العقبة ، الحلجاء ، القاع ، الجريسي ، زباله ، التنانير ، الشقوق ، ردان ، البطان ، المحمية ، الثعلبة ، الغميس ، الخزيمة ، بطن الأغر ، الأجفر ، القرائن ، فيد ، القرنيتين ، توز ، الفحيمة ، سميراء ، العباسية ، الحاجر ، قرورى ، معدن النقرة ، السمط ، مغيثة الماوان ، أريمة ، الربذة ، الروثة ، السليبة ، اضية ، شرورى ، العمق ، معدن بني سليم ، عقبة الكراع ، الكرانة ، أفاعية ، الكبوانة ، المسلح ، القصر ، الغمرة ، أوطاس ، ذات عرق ، غمر ، بستان بني عامر ، مشاش ، مكة المكرمة...هذا ما يتعلق بالمسار الرئيس للطريق الذي يتجه إلى مكة".

"وهناك مسارات فرعية أخرى منها طريق معدن النقرة-المدينة ، ويبلغ طوله (٢٦٥) كيلاً ، وأهم محطاته :معدن النقرة ، العسيلة ، المحدث ، بطن نخل ، الحصيلك ، المكحولين ، السقرة ، الطرق ، الركابية ، المدينة ، هذا ويلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في معدن النقرة. ومما يجدر ذكره ، أن طريق الكوفة -مكة المكرمة بلغ أوج ازدهاره في العصر العباسي الأول ، وبعد انقضاء عصر الخلفاء الأقوياء تعرض الطريق لهجمات القبائل و القوى المحلية الثائرة ، ففي أواخر القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع ، تعرضت بعض محطات الطريق للتخريب والتدمير على أيدي القرامطة ، مثل محطة الربذة ، ونجم عن ذلك اندثار معالم الطريق وتوقف الحجاج عن استخدامه إلا في حالات توافر الحماية . وبعد سقوط بغداد على أيدي المغول عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م تعطل الطريق واندثرت معظم محطاته وأصبحت مجرد أطلال ". "وقد أوضحت الدراسات الأثرية أن المنشآت المعمارية على طريق الكوفة - مكة تمثل نمطاً معمارياً فريداً للعمارة الإسلامية ، حيث تميزت بدقة التصميم وجودة التنفيذ ، فقد بنيت قصور الطريق وخاناته بجدران سميككة وزودت بالمرافق والخدمات ، كما بنيت البرك بأشكال مستطيلة ومربعة ودائرية ، وتدل عمارة البرك على مدى براعة المسلمين في إقامة المنشآت المائية . وتعطي نتائج حفريات جامعة الملك سعود بموقع الربذة صورة متكاملة لتخطيط إحدى محطات الطريق ومدنه بما اشتملت عليه مساجد وأحياء وقصور وبريد وبرك وآبار".

٢- طريق البصرة - مكة المكرمة:

"يعد الطريق الثاني في الأهمية ، حيث ينطلق من مدينة البصرة ماراً بشمال شرق الجزيرة العربية عبر وادي الباطن مخترباً منطقة صحراوية ، أصعبها صحراء الدهناء ، ثم يمر بمنطقة القصيم التي تكثر فيها المياه العذبة والوديان الخصبة والعيون . ومن القصيم يسير الطريق محاذياً لطريق الكوفة - مكة حتى يلتقيان عند محطة أم خرمان (أوطاس) التي تقع على مسافة عشرة أميال من موقع ذات عرق ، كما يلتقي طريق البصرة بالطريق الرئيسي الممتد من الكوفة عند منطقة معدن النقرة التي يتفرع منها طريق يتجه إلى المدينة".

"ويبلغ طول طريق البصرة حوالي ١٢٠٠ كيل ، وتوجد على امتداد مساره سبع وعشرون محطة رئيسية ، منها أربع محطات تقع حالياً ضمن حدود الأراضي العراقية والكويتية ، وهي : المنجاشية ، الحفير ، الرحيل ، الشجي ، أما باقي محطات الطريق فتقع في أراضي المملكة العربية السعودية ، وأولها الرقيعي ومنها يتجه الطريق نحو الجنوب الغربي ، مروراً بالأجزاء الشمالية الشرقية للمملكة العربية

بن قلاوون ، ووجدت في عصر السلطان قانصوة الغوري ، وبرك عنتر التي يرجع تاريخها إلى العصر العثماني ، وقلعة الزريب بالوجه التي أنشئت سنة ١٠٢٦هـ في العصر السلطان العثماني أحمد الأول ، وبركة أكرا وآبار نبط ، وسبيل بدر وبركتها ، وجميعها آثار أنشئت في العصر المملوكي ، ووجدت ووسعت عدة مرات خلال العصر العثماني .

٤- طريق الحج الشامي :

"يسير حجاج مصر ومن رافقهم من حجاج المغرب والأندلس وأفريقيا من بلادهم متجهين إلى شبه جزيرة سيناء للوصول إلى أيلة (العقبة) وهي أول محطة لطريق الحج المصري في الجزيرة العربية ، وبعد أيلة تمر قوافل الحجاج على حقل ، ثم الشرف ، ثم مدين (مغائر شعيب - البدع) . وكان لحجاج مصر طريقان بعد رحلتهم من مدين : أحدهما داخلي ، والآخر ساحلي . ويتجه الطريق الداخلي إلى الجنوب الشرقي ماراً بشعب ثم بدا ، ثم منطقة وادي القرى حيث يلتقي في السقيا (الخشيبة) بطريق الحاج الشامي ليسيير معه إلى المدينة المنورة ، وأما طريق الساحلي فيمر على محطات عدة بعد مدين ، منها: عينونا ، ثم النبك (المويلج) ثم ضباء ، ثم العويند ، ثم الوجه ، الحوراء ، ثم الأحساء (مغيرة - نبط) ، ثم ينبع ، ثم الجار ومنها إلى مكة المكرمة مروراً بالجحفة ، ثم خليص ، ثم عسفان ، أو إلى المدينة المنورة مروراً ببدر . وكان الطريق الداخلي هو الأكثر إستخداماً خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى ، ثم زاد إستخدام الطريق الساحلي بعد ذلك التاريخ " .

"واستمر سفر الحجاج على الطريق الساحلي حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ثم تحولوا إلى السفر بحراً عبر طريق عيذاب بسبب الأحداث التي شهدتها مصر في العصر الفاطمي ، وما نتج عنها من عجز الفاطميين عن دفع نفقات الطريق ، ثم بسبب إحتلال الصليبيين لأيلة ، أهم محطة على الطريق ، ومعبه الوحيد إلى الجزيرة العربية . وقد توقف الطريق قرابة قرنين من الزمان تركت آثار سيئة على عمارته . وفي عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عادت حركة الحجاج إلى الطريق البري الساحلي ، وذلك ابتداء من حج عام ٦٦٧هـ .

"وطوال العصرين المملوكي والعثماني كانت قوافل حجاج مصر ومن رافقهم تتجمع في بركة الحاج القريبة من القاهرة ، ثم تسير على درب السويس ، وتمر على البويب ، ثم عجرود ثم تعبر شبه جزيرة سيناء وتنتج إلى خليج العقبة وتمر على عدة منازل أهمها: المنصرف ، ونخل ، وبئر القريص ، وعرقوب البغلة ، وسطح العقبة ، ثم تهبط نقب العقبة فتصل إلى عقبة أيلة . ثم ترحل من عقبة أيلة متجهة إلى حقل وظهر الحمار والشرف ثم تصل إلى مغائر شعيب ، وتسير باتجاه الجنوب الغربي حتى تصل إلى عينونة ، ثم تمر على عدد من المنازل أهمها: المصلى (شركة) ، وتريم ، والنبك (المويلج) ووادي الغال (وادي القسطل) وضباء ، والأزمن وبركة عنتر وقلعة الوجه وبين النهدين ووادي العرجاء ، وبركة أكرا ، وبئر القروي ، والحوراء ، ونبط ، ووادي النار ، والوعرات السبع ، والدهناء ، وواسط ثم تصل إلى بدر . ومن بدر ترحل إلى رابع ثم خليص ثم عسفان ثم تصل إلى مكة المكرمة ، بعد أن تكون قد قضت شهراً كاملاً على الطريق بين القاهرة ومكة" .

"واستمر سفر الحجاج على الطريق الساحلي حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ثم تحولوا إلى السفر بحراً عبر طريق عيذاب بسبب الأحداث التي شهدتها مصر في العصر الفاطمي ، وما نتج عنها من عجز الفاطميين عن دفع نفقات الطريق ، ثم بسبب إحتلال الصليبيين لأيلة ، أهم محطة على الطريق ، ومعبه الوحيد إلى الجزيرة العربية . وقد توقف الطريق قرابة قرنين من الزمان تركت آثار سيئة على عمارته . وفي عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عادت حركة الحجاج إلى الطريق البري الساحلي ، وذلك ابتداء من حج عام ٦٦٧هـ .

"وطوال العصرين المملوكي والعثماني كانت قوافل حجاج مصر ومن رافقهم تتجمع في بركة الحاج القريبة من القاهرة ، ثم تسير على درب السويس ، وتمر على البويب ، ثم عجرود ثم تعبر شبه جزيرة سيناء وتنتج إلى خليج العقبة وتمر على عدة منازل أهمها: المنصرف ، ونخل ، وبئر القريص ، وعرقوب البغلة ، وسطح العقبة ، ثم تهبط نقب العقبة فتصل إلى عقبة أيلة . ثم ترحل من عقبة أيلة متجهة إلى حقل وظهر الحمار والشرف ثم تصل إلى مغائر شعيب ، وتسير باتجاه الجنوب الغربي حتى تصل إلى عينونة ، ثم تمر على عدد من المنازل أهمها: المصلى (شركة) ، وتريم ، والنبك (المويلج) ووادي الغال (وادي القسطل) وضباء ، والأزمن وبركة عنتر وقلعة الوجه وبين النهدين ووادي العرجاء ، وبركة أكرا ، وبئر القروي ، والحوراء ، ونبط ، ووادي النار ، والوعرات السبع ، والدهناء ، وواسط ثم تصل إلى بدر . ومن بدر ترحل إلى رابع ثم خليص ثم عسفان ثم تصل إلى مكة المكرمة ، بعد أن تكون قد قضت شهراً كاملاً على الطريق بين القاهرة ومكة" .

"وظل الطريق البري الساحلي في خدمة قوافل الحجاج المصريين حتى عام ١٣١٠ هـ ، وبعد هذا التاريخ عاد الحجاج المصريون مرة أخرى إلى السفر بحراً من السويس إلى جدة على ظهر السفن البخارية والشرابية . وأياً كان الأمر ، فقد حظي طريق الحج المصري باهتمام الحكام المسلمين في الفترة الإسلامية المبكرة ، حيث أقاموا عليه البرك وحفروا الآبار ، ومهدوا العقبات الصعبة ، وبنوا المساجد في بعض محطاته . فقد نظف خمارويه بن أحمد بن طولون عقبة أيلة من الحجارة . وأقيمت سبع آبار في ضباء لخدمة الحجاج ، وصفها العذري الأندلسي في بداية القرن الخامس الهجري . كما بنيت مساجد ببدر على أيدي ملوك مصر . وأنشئ خان بالعشيرة بينع ليس له نظير على حد قول المقدسي ، كما أقيمت بركة وقناة بخليص " . "وقد وجدت مئات النقوش العربية على هذا الطريق نقشها الحجاج على صخور في محطاته وعلى طول مساره تذكراً لمرورهم . كما توجد آثار معمارية ترجع غلى تلك الفترة بعضها على مسار الطريق الداخلي مثل بركة النابع الواقعة جنوب مدينة ضباء ، وبركة بدا ، وآبار بلاطة ، وبعضها الآخر على المسار الساحلي مثل بركة مدين ، وبركة الجار ، هذا فضلاً عن المدن التي كانت عامرة على الطريق مثل : مدين ، وعينونا ، والعويند ، والحوراء ، والجار ، والجحفة ، وشعب ، وبدا" .

"وأما آثار العصور الإسلامية المتأخرة الباقية على طريق المصري فنذكر منها : بركة البدع (مغائر شعيب) ويعود تاريخ إنشائها إلى العصر المملوكي ، وآثار المويلج التيلا تشمل بئرين من العصر المملوكي ، وقلعة الأزمن التي أنشئت في عهد السلطان المملوكي محمد

الساحل مع طريق الداخل ، ومنها يفترقان أيضا كل في جهته ، حيث يسير الساحلي صوب الليث فالشعبية إلى جدة و منها إلى مكة المكرمة".

"أما الطريق الداخلي فهو تهاامي أيضاً ، ويعرف باسم الجادة السلطانية ويبدأ من تعز ، ويمر بذات الخيف ، فموزع ، ثم الجدون ، ثم حيس ، ثم زبيد وهي ثاني عاصمة في اليمن الأسفل بعد تعز ، إذ تتجمع فيها القوافل التي تسلك طريق الجادة السلطانية ، ومنها تنطلق في سيرها إلى مكة المكرمة مارة بفشال والضنجاج ، والقحمة ، والكدراء والمهجم ، ومور ، والوادين ، والساعد ، وتعشر ، وجازان ، والهجر ، وبيش ، إلى ضنكان ، ومنها يتجه الطريق إلى المقعد فحلي العليا ثم يبة ، ثم قنونا ثم عشم ثم دوقه فإلى السرين حيث يلتقي بالطريق الساحلي. ومنها يفترق في مساره الداخلي إلى الليث ، فالخضراء ، ثم سعيا ، فيلملم ميقات أهل اليمن ، ومنها إلى مكة المكرمة".

"أما الطريق الأعلى ، فيعرف باسم الطريق الجبلي ، ومركز انطلاق هذا الطريق هو صنعاء ومنها يتجه الطريق إلى صعدة ، ومنها إلى العرقة ، ثم المهجرة ، ثم أرنب ، ثم سروم الغيص ، ثم النجة ، ثم بيشة ومنها إلى تبالة ، فالقريحاء ثم كرى ، ثم تربة ، ثم الصفن ، ثم العنق ، ثم رأس المناقب ، وهي تنتهي الطريق في اتجاه الشمال ، ومنها ينحرف في سيره صوب الغرب إلى قرن المنازل ، وهو ميقات أهل اليمن الذين يهرون من تلك الجهة ، ويتجهون محرمين صوب مكة مجتازين الزيمة ، والطائف عن طريق السيل".

"ومن أهم الطرق المفضلة لدى الحجاج بيت الله الحرام القادمين من طريق اليمن الطريق الذي يمر بشمال اليمن ويخترق منطقة عسير الجبلية إلى أن يصل إلى الطائف ثم إلى مكة . وعلى الرغم من أن الطريق يجتاز مناطق ذات طبيعة تضاريسية صعبة ، إلا أنه كان مفضلاً للحجاج وغيرهم لأنه يمر عبر أراض خصبة دائمة الخضرة ، وقرى وبلدات تتوافر فيها المياه ويكثر بها الغذاء".

٦- طريق الحج العماني إلى مكة المكرمة:

"هناك طريقان من عمان إلى مكة ، أحدهما يتجه من عمان إلى يبرين ، ثم إلى البحرين ، ومنها إلى اليمامة ، ثم إلى ضرية. وتشير المصادر الجغرافية إلى أن ضرية كانت ملتقى حجاج البصرة والبحرين ، حيث يفترقون بعدها إذا انصرفوا من الحج ، فيتجه حجاج البصرة شمالاً وحجاج البحرين باتجاه اليمن ، كما كان بإمكان القوافل القادمة من عمان اجتياز منطقة الأحساء لتلتقي بطريق اليمامة مكة".

"وهناك طريق آخر لحجاج عمان يتجه إلى فرق ، ثم عوكلان ، ثم إلى ساحل هبة ، وبعدها إلى شحر. ثم تتابع القوافل سيرها على أحد الطرق اليمنية الرئيسة المؤدية إلى مكة ، حيث يمكنهم أن يسلكوا أحد الطريقتين: طريق الحج الساحلي الموازي للبحر الأحمر ، والذي يمر بمخلاف عك والحردة ومخلاف حكم ، وعثر ومرسى ضنكان ، والسريرين حتى الشعبية ، ثم جدة فمكة ، أو الطريق الداخلي من اليمن إلى مكة مروراً بعدد من المنازل بعضها لا يزال معروفاً حتى اليوم مثل رنية وترتبة".

"وظل الطريق البري الساحلي في خدمة قوافل الحجاج المصريين حتى عام ١٣١٠ هـ ، وبعد هذا التاريخ عاد الحجاج المصريون مرة أخرى إلى السفر بحراً من السويس إلى جدة على ظهر السفن البخارية و الشراعية. وأياً كان الأمر ، فقد حظي طريق الحج المصري باهتمام الحكام المسلمين في الفترة الإسلامية المبكرة ، حيث أقاموا عليه البرك وحفروا الآبار ، ومهدوا العقبات الصعبة ، وبنوا المساجد في بعض محطاته. فقد نظف خمارويه بن أحمد بن طولون عقبة أيلة من الحجارة. وأقيمت سبع آبار في ضياء لخدمة الحجاج ، وصفها العذري الأندلسي في بداية القرن الخامس الهجري. كما بنيت مساجد بيدر على أيدي ملوك مصر. وأنشئ خان بالعشيرة يينبع ليس له نظير على حد قول المقدسي ، كما أقيمت بركة و قناة بخليص".

"وقد وجدت مئات النقوش العربية على هذا الطريق نقشها الحجاج على صخور في محطاته وعلى طول مساره تذكارا لمرورهم... كما توجد آثار معمارية ترجع غلى تلك الفترة بعضها على مسار الطريق الداخلي مثل بركة النابع الواقعة جنوب مدينة ضياء ، وبركة بدا ، وآبار بلاطة ، وبعضها الآخر على المسار الساحلي مثل بركة مدين ، وبركة الجار ، هذا فضلاً عن المدين التي كانت عامرة على الطريق مثل: مدين ، وعينونا ، والعونيد ، والحوراء ، والجار ، والجحفة ، وشغب ، وبدا".

"وأما آثار العصور الإسلامية المتأخرة الباقية على طريق المصري فنذكر منها: بركة البدع (مغائر شعيب) ويعود تاريخ إنشائها إلى العصر المملوكي ، وآثار المويح التيلا تشمل بئرين من العصر المملوكي ، وقلعة الأزمن التي أنشئت في عهد السلطان المملوكي محمد بن قلاوون ، ووجدت في عصر السلطان قانصوة الغوري ، وبرك عتري التي يرجع تاريخها إلى العصر العثماني ، وقلعة الزريب بالوجه التي أنشئت سنة ١٠٢٦ هـ في العصر السلطان العثماني أحمد الأول ، وبركة أكر و آبار نبط ، وسبيل بدر وبركتها ، وجميعها آثار أنشئت في العصر المملوكي ، ووجدت ووسعت عدة مرات خلال العصر العثماني".

٥- طرق الحج اليمنية إلى مكة المكرمة:

"هناك اتصال بين اليمن والحجاز منذ العصور القديمة ، لذا فقد تعددت طرق الحج اليمنية واختلفت مساراتها ، وتعددت كذلك المدين التي تسير منها ، ولعل أهم العواصم اليمنية التي كانت تنطلق منها جموع الحجاج اليمنيين إلى مكة هي: عدن ، وتعز وصنعاء وزبيد وصعدة في شمال اليمن ، وكانت بعض مسارات تلك الطرق يلتقي بعضها ببعض في نقاط معينة ، مثل طريق تعز زبيد ، وطريق صنعاء الداخلي إلى صعدة. وقد اشتهر من طرق الحج اليمنية إلى مكة ثلاثة طرق هي : الطريق الساحلي والطريق الداخلي أو الأوسط ، والطريق الأعلى ، ولكل منها مساراته ومحطاته ، ومتاعبه التي عانى منها الحجاج قروناً طويلة. فالطريق الساحلي يمر بجوار البحر محاذياً له من الشرق ، ويبدأ من عدن فأين مروراً بالمخفق ، فإلى عارة ، ثم عبرة ، فالسقى ، فباب المندب ، فسماري ، ثم الخوخة والأهواب ، وغلافقة ، وهي فرضة زبيدة ، ثم نبعة ، فالحردة ، ثم الزرعة ، ثم الشرجة ، وهي أولى مراحل طريق الحج اليمني الساحلي التي تقع في أراضي المملكة العربية السعودية. ويسير الطريق من الشرجة إلى المفجر ، فإلى القنيدرة ، ثم عثر ، ثم بيض ، ثم الدويمية ، ثم حمضة ، ثم ذهبان ، ثم حلي ، ثم قرما ، فدوقه ، إلى السرين وهي ملتقى طريق

٧- طريق حج البحرين - اليمامة - مكة المكرمة:

"يشكل طريق البحرين - اليمامة رافداً مهماً من روافد طريق حج البصرة، وذلك لما له من أهمية، حيث أنه يعبر الأجزاء الوسطى من الجزيرة العربية، ماراً بالعديد من بلدانها وأقاليمها، ويربط بين الحجاز والعراق مركز الخلافة العباسية. وقد حظي حجاج هذا الطريق برعاية الدولة الإسلامية وخصوصاً في توفير الخدمات المهمة، وحماية الحجاج السائرين عليه من أي اعتداء يقع عليهم من قطاع الطرق". وقد أشار عدد من الجغرافيين المسلمين الأوائل إلى التقاء طريق اليمامة مع طريق حج البصرة. يقول الحربي: (لليمامة طريقان إلى مكة، طريق من القريتين.. وطريق على مرات)، ويقول ابن رسته: (من البحرين إلى مكة تخرج إلى اليمامة ومن اليمامة إلى ضربة ومنها إلى مكة)، وبعد التقاء طريق البحرين بطريق البصرة في ضربة، يمر الطريق عبر محطات: جديلة، وفلجة، والدفينة، وقبا، ومران، ووجرة، وأوطاس، وذات عرق، والبستان، ثم يصل إلى مكة^(٣٦). وقد تطورت هذه الطرق في العصر العثماني، كما جاء في الكتاب المؤي، ففي الفقرة الثالثة: العصر العثماني وتبدأ بـ (أ- الطرق) جاء فيها: ^(٣٧)

"تعد الدولة العثمانية دولة عالمية الوجود السياسي، في زمن الأوج والقوة وفي زمن الانحطاط والسقوط، وينطلق هذا المفهوم من خلال حصيلة الامتداد الجغرافي الشاسع للدولة العثمانية، واحتوائها على شعوب عريضة، وثقافات متعددة. وأمر بديهي أن تهتم الدولة العثمانية بشؤون المواصلات والاتصالات في صيغتها الدولية ومفهومها العالمي وقت وجودها، لأن الاتصالات والمواصلات تشكلان أساس حضارة الأمم والشعوب، وأهم بواعث التقدم في كل حقب التاريخ؛ حيث تعد المواصلات منة أهم قطاعات التنمية و عاملاً أساسياً في حفظ الأمن و تمكين سيطرة الدول.

والحقيقة أن الدولة العثمانية منذ دخولها الحجاز أخذت تطرح قضية إستراتيجية مهمة أطلق عليها اسم « نظرية توازن الأجنحة البحرية للدولة العثمانية في سواحل الجزيرة العربية » ... هادفة من وراء هذا كله إلى تعميق الوجود العثماني في الجزيرة وسواحلها؛ فلما ازداد وجود الدولة العثمانية في البحر الأحمر في العشرينات والثلاثينات من القرن السادس عشر الميلادي، أصبح لديها رغبة ملحة وحاجة للقيام بتحريك سريع و جاد باتجاه ساحل الجزيرة العربية الشرقي، وأعني هنا الخليج العربي ومناطقه.

ومن خلال نظرية توازن السيادة والاتصالات البحرية تكون الدولة العثمانية في المقام الأول قد حافظت على نفوذها في مناطق السواحل، وتصدت للغزو البرتغالي الصليبي في البحر الأحمر والخليج من جهة ثانية، وتكون في المقام الثالث قد حافظت على وجود لها في داخل الجزيرة العربية وعمقها ولو بصورة اسمية ورمزية. وقد ثبت هذا الوجود ودعم عن طريق القوة العثمانية المتمركز في السواحل الجزيرة وفي الولايات العثمانية القوية المجاورة للجزيرة العربية.

وبناء عليه فإن الوجود العثماني المركز في الجزيرة العربية ظل محصوراً بشكل فعلي في الأقاليم المطلة على السواحل، وضعف وكاد يتلاشى في الداخل. وقد اهتمت الدولة العثمانية بشؤون المواصلات بدرجات متفاوتة في المناطق سلطتها المباشرة التي أصبحت ضمن أراضي المملكة العربية السعودية وهي الحجاز وعسير والأحساء،

واتجه اهتمام نحو إصلاح الطرق وبخاصة المؤدية إلى الحجاز حيث الأماكن المقدسة. واهتمت كذلك بالموانئ المطلة على خليج و البحر الأحمر، كما أدخلت في أواخر عهدها تقنيات المواصلات والاتصالات الحديثة إلى إقليم الحجاز، فأنشأت خطاً للبرقية من دمشق إلى المدينة المنورة، ثم أنشأت سكة حديد الحجاز التي ربطت بين إسطنبول ودمشق والمدينة المنورة، كما أدخلت خدمات الهاتف، وعلى نطاق محدود جداً، في مكة المكرمة والمدينة المنورة".

وأما البلدان البعيدة كالمغرب مثلاً؛ فيمر أهلها بدول ومحطات كثيرة، قبل أن يصلوا إلى أطراف الجزيرة، ثم يقتحموا الصحراء وصولاً إلى مكة، يقول الدكتور عبد السلام محمد أبو سعد في حديثه عن طرق حج المغاربة: "ومن أشهر الطرق التي كان يسلكها حجاج الغرب الإسلامي، واشتهرت في التاريخ بسبب الدور الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي أدته عبر التاريخ: طريق القوافل المغاربة، وهذا الطريق يبدأ من مراكش، ثم يتجه جنوباً نحو (درعا) ومنها إلى (توات) ومن هناك يفرق إلى طريقين:

١. الطريق الشمالي الساحلي:

وهو الذي يتجه من توات إلى طرابلس وهو الطريق الذي سلكه الرحالة المغربي أبو سالم العياشي في أواسط القرن السابع عشر. فقد وصف العياشي الطريق الذي سلكه في رحلته إلى الحج ذاكرًا المدن والقرى والوديان التي اجتازها، ومن أشهرها (سجلهاسة - بسكرة - بادس - نقطة أتوزر - شط الجريد - زاوية سيدي حماد - قصر الرومان - الحامة قابس - زوارة - الزاوية - طرابلس - تاجوراء - لبدة - زلتن - مصراته - الهيشة - سرت - صحراء ليبيا الشرقية - الإسكندرية - القاهرة).

وقد سلك الرحالة الورتلاني نفس الطريق سنة (١٣٣٠ هـ/١٩١٢م) مع اختلاف بسيط في بعض المدن والمحطات. وهي قريبة أيضاً من الطريق التي سلكها الرحالة المغربي العبدري، في رحلته إلى الحج، وإن كانت مختلفة عنها في بعض المدن والمحطات التي مر بها أو توقف عندها هذا، ولم يفعل ذلك. فقد انطلق العبدري من بلده حاجاً، فصحاء المغرب الشرقية، فزاره تلمسان - مليانه - الجزائر - قسنطينة - عنابة - باجة - تونس - القيروان - قابس - الزاوية - جنزور - طرابلس - تاجوراء - لبدة - مصراته - سرت - اجدايا - درنة - طبرق - مرسي مطروح - الإسكندرية - قلوب - دمنهور - القاهرة - الأراضي المقدسة، وغير طريقه في العودة قليلاً، حيث انطلق من الإسكندرية إلى محطة العبران - العقبة الصغرى - العقبة الكبرى - البطان - سوسة - قمينس - اجدايا - سرت - مصراته - لبدة - مسلاته - طرابلس - قابس - صفاقس - المهدية - المنستير - سوسة - الحمامات - باجة - قسنطينة - بجاية - مليانه - مازونة - وهران - تلمسان - وجدة - تازة - فاس - مكناس - أزموور - حاحا.

٢. والطريق الأخرى:

تتجه شرقاً عبر الجنوب إلى مرزق (عاصمة فزان يومئذ)، حيث يصبح من هناك الطريق الرئيس لتجارة القوافل وهي تمر بأوجلة فالأراضي المصرية. ثم إلى الأراضي المقدسة، وهي الطريق التي سلكها الرحالة المغربي ابن مليح في رحلته الحجازية (١٦٣٣-١٦٣١م). ولعل الشيخ زروق سلك هذا الطريق في إحدى رحلاته إلى الحج، حيث يوجد مسجد عتيق بأوجله، يعتقد أهلها أن الشيخ زروق أقام به بعض الوقت يعلم الناس أمور الدين، وقد اكتسب هذا الطريق أهمية بالغة خلال القرن ١٧.

طريق السودان الغربي والأوسط :

وكان هذا الطريق يتبع طرق القوافل التجارية وأهم المدن التي يسلكها هذا الطريق تمبكتو، وبفضله صارت تمبكتو مركزاً تجارياً وعلمياً هائلاً خلال حقبة من الزمن ليست بالقصيرة. وهذه الطريق تربط تمبكتو بمدينة "جاو" بالشمال، عبر توات بجنوب الجزائر وغات بجنوب غرب ليبيا، ومنها إلى مرزق حيث تلتقي مع الطريق السابق. ومن المرجح أن هذه الطريق هي التي سلكها "أسكيا محمد" عام ١٤٩٨م عندما كان في طريقه إلى الحج.

وهناك الطريق التي كانت تعرف بطريق الحج، وهي تنطلق من تمبكتو وجاو، وتمر بأير، حيث تلتقي مع الطريق السوداني الآتية من المنطقة الشمالية في بلاد الهوسا، ثم تتجه شمالاً إلى غات، ومنها إلى مرزق، فتتضم إلى الطريق السابقة. وإلى أقصى الشرق كانت هناك طريق رابعة تربط واداي أولاً بفزان، ثم بعد سنة ١٨٣٧ صارت تربط واداي بالكفرة، وجالو، ثم بنغازي، ومنها إلى الأراضي المصرية فالحجاز.

ولا يخفى أن واحات ومدن فزان كانت تعتبر المناطق الحيوية للتجار والحجاج المغاربة والأفارقة المسافرين إلى الحج عبر هذه الخطوط. هذا بالإضافة إلى الطريق التي كانت تجمع بين البر والبحر حيث كان الحجاج المغاربة والأندلسيون يسلكون طرق البر السابقة إلى تونس، ثم يركبون البحر اتقاء للصحراء الليبية المترامية الأطراف، ولما تحتوي عليه من مخاطر ومشاق. كما أن هناك طريقاً آخر يسلكه الحجاج من الأندلس والمغرب عبر البحر مباشرة ... إلى جدة، وربما كان يتوقف بالمدن الرئيسية التي لها ميناء بحري، مثل الجزائر . وتونس . وطرابلس . ودرنة . والإسكندرية، ومن هذه الطريق البحرية كان يلتقي الحجاج من عدد من الدول ويحدث بينهم من التعارف وتبادل العلوم والمنافع الأخرى ما يحدث في الطريق البري^(٣٨).

ويحدثنا الدكتور محمد كمال الدين إمام بمزيد من التفاصيل عن رحلة الحج المصرية وأهم طرق الحج من خلال رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، مينا التقاء حجاج مصر مع حجاج آسيا القادمين في البحر، فيلتقون في ميناء عيذاب، يقول: ((كانت "الفسطاط" هي مركز التجميع في طريق الحج المصري وكان ميناء عيذاب هو بداية الرحلة البحرية إلى بيت الله الحرام، وهو أهم الموانئ المصرية على البحر الأحمر، وكانت ترد إليه مراكب الهند واليمن وتغادره بالإضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وقد ظل هذا الميناء طريق الحج الوحيد إلى مكة لفترة زمنية طويلة يقول المقريزي في خطته "إن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب"، وكان الحجاج . كما وصف ابن جبير، يقلعون في النيل من الفسطاط إلى "قوص" مارين بالعديد من المدن والقرى على ضفتي النيل . التي كانت تمتاز بكثرة أسواقها ومراقفها، وكانت ملتقى الحجاج والتجار من مختلف الأنحاء. وهي رحلة كانت تستغرق ثمانية عشر يوماً في النيل. وكان الحجاج يستريحون بعض الشيء في "قوص" . وهي مدينة تعد حاضرة ثقافية في مصر الإسلامية". انتظاراً لانتقالهم إلى ميناء عيذاب "على البحر الأحمر بعد أن يتزودوا بما يحتاجون إليه، ويتجمعون في "المبرز". قبلي قوص . وهناك يتم وزن أمتعتهم وأثقالهم لتقدر الأجرة عليها حيث تحمل أصحابها على ظهور الإبل حيث لا يمكن استخدام غيرها من وسائل النقل عبر الفيافي المقفرة التي تقل فيها المياه، وكان أصحاب الجاه

والثراء يركبون "الشقادي" . وهي أشباه المحامل . وأحسن أنواعها اليمنية وهي مجلدة متسعة، يوصل الاثنان منها بالحبال الوثيقة، وتوضع على الإبل، ولها ذراع قد حفت بأركانها ويكون عليها مظلة، فيكون الراكب مع عديله في وقايه من لفح الشمس المحرقة خصوصاً وقت الهاجرة، ويجلس في مكان أو يتكىء، دون أن يشعر بالتعب، ويتناول أحياناً مع عديله الطعام، أو يقرأ في مصحف أو كتاب، أو يلعب الشطرنج مع عديله إذا أحبا اللعب للترويح من عناء السفر. أما أغلب المسافرين فكانوا يركبون فوق الأحمال، ويقاسون من ذلك كثيراً لشدة الحر الذي يشبه السموم.

وبعد الانتهاء من الإجراءات يقلع الحجاج من "المبرز" إلى "عيذاب" عبر الصحارى القفرة في حوالي ثمانية وثلاثين يوماً، إذ تقطع الرحلة من "الفسطاط" إلى "عيذاب" في حوالي ستة وخمسين يوماً، نستدل ذلك من رحلة "ابن جبير" إذ سار من "الفسطاط" في السادس من المحرم سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م فوصل "عيذاب" في الثاني من شهر ربيع الأول من نفس العام. وعيذاب صحراء لا نبات فيها وكل ما فيها مجلوب حتى الماء. وأهل عيذاب كانوا أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس. على حد تعبير المقريزي. ويسمون "البجة" وقد أغلظ في وصفهم "ابن جبير" بقوله "إن هذه الفرقة من السودان المذكورين فرقة أضل من الأنعام سبيلاً، وأقل عقولاً ولا دين لهم سوى كلمة التوحيد، التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة، وسيرتهم ما لا يرضى ولا يحل، ورجالهم ونسائهم يتصرفون عراة إلا خرقاً يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يسترون، وبالحيلة فهم لا أخلاق لهم، ولا جناح على لأعنيهم"، وبعد وصول الحجاج إلى عيذاب كانوا ينتظرون أياماً صعبة لعدم توفر الغذاء الضروري لحياة الإنسان، وإضافة إلى سوء أحوال الطقس، والطبيعة القاسية في هذا المرفأ، فهو كما وصفه ابن جبير "كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، والعطش أشهى إلى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام، وماء يشغل المعدة عن اشتها الطعام... فهي ماء زعاق، وجو كله لهب، فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى البيت العتيق،... وما أعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه لا سيما في تلك البلدة الملعونة، وقد وصفت هذه المدينة في الخيال الشعبي بأن النبي سليمان بن داود عليه السلام جعلها "سجناً للعفاريت".

بعد تلك المعاناة التي كان يلقاها الحجاج في عيذاب يركبون الجلاب إلى جدة والجلاب هو نوع من المراكب التي كانت تسير في المحيط الهندي والبحر الأحمر، ومفردتها جلبة، وهي عبارة عن قارب كبير أو قنجة مصنوع من ألواح موصولة بأمراس ألياف النارجيل، وقد أستخدمها أهل مصر والحجاز واليمن في نقل الحجاج والأزواد. وكان الحجاج . كما وصف ابن جبير. يلقون الأحوال في البحر الأحمر من "عيذاب" إلى "جدة" بسبب عواصفه، وكان ربان الجلبة الذي يسمونه الرانس يستدل على الطريق ببعض النجوم، وكثيراً ما كانت تفرق تلك الجلاب في البحر، كما حدث سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م عندما غرقت أربع منها وهلك حجاجها البالغون ألف وثلاثمائة حاج، ويصل الحجاج إلى جدة بعد معاناة ثمانية أيام، ويبدو أن عملية الرسو في ميناء جدة كانت بالغة الصعوبة وكانت تحتاج إلى مهارة خاصة من رؤساء الجلاب، وقد وصف ذلك ابن جبير وصفاً يدل على الإعجاب بقوله: "ويصرفونها . أي السفن . خلالها تصريف الفارس للجواد

الربط العنان، السلس القياد، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه.

وجدة على شاطئ البحر قرية أكثر بيوتها أخصاص، وفيه فنادق مبنية بالطين أو الحجارة، كان ينزل الحجاج فيها، وبعضهم ينزل ضيوفاً على قائد جده، وكان نائباً عن أمير مكة، ويسىء "ابن جبير" الظن بأهل جده ويصفهم بالاستغلال، ويفتي بحرمة ما يأخذونه من الحجاج، يستوي في ذلك الأفراد والحكام. ويصف معاناة الحجاج حتى يسمح لهم بالوصول إلى "القرين" حيث يحرم الحجاج بالعمرة ويأخذون طريقهم إلى الحرم، وهم يلبون من كل مكان وتبدأ الرحلة الروحية التي تزول في رحابها كل معاناة ويصف ابن جبير الليلة التي يقضيها الحجاج في القرين بقوله: فيالها من ليلة، فهي عروس ليالي العمر، وبكر بنات الدهر، ثم يصل الركب إلى الحرم حيث الكعبة الشريفة، والتي يصفها ابن جبير بأنها "عروس مجلوة مزقوفة إلى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن، وتبدأ الرحلة المباركة حتى نهاية المناسك".^(٣٩)

من فوائد طرق الحج:

لم تكن طرق الحج مجرد طرق سفر شاقة، بل كان في بعضها محطات للتعليم والتواصل الثقافي والحضاري بين المسلمين، يقول الدكتور عبد السلام محمد أبو سعد في هذا الصدد: "وما لا شك فيه أن أغلب حجاج المسلمين لا يصلون إلى الأراضي المقدسة التي فرض الله الحج إليها. إلا عن طريق طرق مختلفة ومتعددة، لا بد للحاج أن يسلكها حتى يصل إلى غايته.

وكان حجاج الغرب الإسلامي من الأندلس وشمال وغرب إفريقيا يسلكون طرقاً عرفت واشتهرت عبر التاريخ، وقامت حولها دراسات متعددة، وأبحاث مختلفة، أدت جملة من الفوائد عادت على المسلمين بالنفع العيم. فقد كان هؤلاء الحجاج يقفون خلال رحلاتهم بكل المدن والقرى التي يمرون بها خلال تلك الطرق، حيث يلتقي طلاب العلم بالعلماء، والصوفيون بأقرانهم، والصناع بالصناع، والتجار بالتجار، وكل ذي مهنة أو حرفة بمن يناظره فيها، فتتم الفائدة، ويعم النفع، وتعد الصفقات والاتفاقات، وقد يجد طلاب العلم ببعض البلاد علماء يمكنون عندهم حيناً من الزمن، يتلقون عنهم ما عندهم من علوم وقد يجد بعض العلماء بعض البلاد في حاجة إلى التعليم ونشر الوعي، فيمكنون بينهم وقتاً، يعلمون، ويؤنسون المدارس والزوايا، والأمثلة على ذلك كثيرة تزر بها كتب الرحلات والطبقات وتراجم الرجال.

من أجل ذلك اكتسبت الرحلة في طلب العلم والحج أهمية كبرى، حتى صارت تعادل أكبر الإجازات والشهادات التي يحصل عليها العالم أو طالب العلم، وحتى صار من ليس له رحلة يُعد علمه قاصراً، وإذا رجع الحجاج من العلماء إلى بلادهم سارع العلماء وطلاب العلم إليهم، ليأخذوا عنهم ما عادوا به من علوم وسنن وآثار، وليستمعوا إلى مشاهداتهم وأوصافهم للبلاد التي مروا بها، حيث يتولى هؤلاء الحجاج من العلماء خاصة. وصف ما وقفوا عليه من عادات وتقاليد أهالي البلاد التي يمرون بها، وما تزر به بلادهم من معالم تاريخية ونظم حضارية، وعادات وتقاليد وأعراف، ولعل في رحلات عبد الملك بن حبيب وبقي بن مخلد، وأبي الوليد الباجي، وابن رشد، والعبدي، والعايشي، والورثاني، الثني الكثير من ذلك.

ولا ريب أن ذلك يعد من أهم العوامل على التقريب بين الشعوب الإسلامية ومن أهم الأسباب المساعدة على وحدة الثقافة، والفكر، ووحدة التشريع ... فبالرحلة يقترب المشرق من المغرب، ويقف طالب العلم المغربي على ما عند المشاركة من سنن وآثار وعلوم، ربما لم يكن وقف عليها من قبل، كما يقف طالب العلم المشرقي على ما عند المغاربة من علوم وآثار وسنن. ربما لم يكن على علم بها، فيصير العالم الإسلامي أشبه بالبلد الواحد ... ولولا الحج، ولولا الرحلة إليه لم يكن شيء من ذلك ليحدث".^(٤٠)

والخلاصة أن طرق الحج مرت بمراحل كثيرة من التطوير والتعديل عبر التاريخ، وقد حاول الخلفاء والأمراء عبر التاريخ خدمة هذه الطرق بشتى السبل الممكنة، وذلك من باب التقرب إلى الله تعالى من جهة، وخدمة لشعوبهم ورعاياهم من جهة أخرى، وكانت هذه الطرق كشاريين حياة تصل المدين الإسلامية بقلبيها النابض أم القرى، تلك المدينة التي أمدت العالم بقيم الحضارة والتقدم والسمو، ودفعت بالإنسانية شوطاً بعيداً في ميدان التحرر من أغلال العبودية لغير الله رب العالمين.

النتائج والتوصيات

النتائج:

أولاً: مكة بلد بالغ الأهمية لأسباب دينية واقتصادية، واجتماعية وسياسية، وجغرافية وإنسانية وأدبية.

ثانياً: انفردت مكة بمجموعة من الخصائص الاستراتيجية لم تشاركها فيها أية بلدة أخرى.

ثالثاً: كانت هنالك كثير من المشكلات في الوصول إلى مكة عبر التاريخ، ولكن هذه المشكلات تبددت في العصر الحديث.

رابعاً: كانت هنالك مجموعة من الطرق البرية والبحرية للوصول إلى مكة، وكان يجري لها ترميم وإصلاح كل فترة من الزمن.

خامساً: مكة كانت ولا تزال في سويداء كل قلب مسلم، يهيم بها حتى ولو لم يرها مثل الفاتح صلاح الدين الأيوبي الذي شغله الجهاد عن الحج.

التوصيات:

أولاً: ضرورة الاهتمام بمراكز البحث العلمي في العالم الإسلامي.

ثانياً: أهمية تعميق الصلة بين البدان الإسلامية.

ثالثاً: تفعيل دور مكة الحضاري من أجل استعادة دور المسلمين.

رابعاً: إن بلداً تلك بعض مزاياه وخصائصه خليف أن يهتم به الباحثون، فهو يمثل خلاصة الحضارة الإنسانية على مر التاريخ!

والله من وراء القصد، وندعو بهذا الدعاء: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (سورة البقرة: الآية ٢٨٦).

http://www.mot.gov.sa/L_HandradBook_First_3_A.asp

- ٣٨ - انظر: طرق الحج : جسور للتواصل الحضاري بين الشعوب ، مقال: (طرق الحج وفوائدها مقترحات بشأن إحيائها وتفعيلها) د. عبد السلام محمد أبو سعد ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . إيسيسكو . ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م
- ٣٩ - انظر: طرق الحج : جسور للتواصل الحضاري بين الشعوب ، مقال: (طرق الحج وقوافله: في التاريخ الثقافي) د. محمد كمال الدين إمام ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . إيسيسكو . ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م
- ٤٠ - انظر: طرق الحج : جسور للتواصل الحضاري بين الشعوب ، مقال: (طرق الحج وفوائدها مقترحات بشأن إحيائها وتفعيلها) منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . إيسيسكو . ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

- ١- إحياء علوم الدين ، للغزالي ، المكتبة التجارية الكبرى.
- ٢- أسرار البلاغة ، للجرجاني ، بتحقيق هـ. ريتز ، دار المسيرة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٣- أصول الفقه ، لأبي زهرة ، دار الفكر العربي..
- ٤- تاريخ الأدب العربي (٤)، العصر العباسي الثاني ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية.
- ٥- تاريخ البلاد العربية السعودية ، د. منير العجلاني ، طبعة دار الكتاب العربي.
- ٦- تفسير أبي السعود ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- ٧- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، للثعالبي النيسابوري ، دار المعارف.
- ٨- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، للدكتور عبد العزيز الشناوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٣م.
- ٩- شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، للزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٢م.
- ١٠- طرق الحج : جسور للتواصل الحضاري بين الشعوب ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . إيسيسكو . ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- ١١- قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها ، د. زغلول النجار ، دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٦م.
- ١٢- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود ابن عمر الزمخشري ، صححه مصطفى حسين أحمد ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ١٣- لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، ابن منظور الإفرنجي المصري ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ١٤- محمد بن عبد الوهاب ، أحمد عبد الغفور عطار .
- ١٥- مختارات البارودي ، من شعر بني أمية وبني العباس ، للشاعر الكبير محمود سامي باشا البارودي ، نشره الأستاذ إبراهيم أمين فؤده ، ضمن مشروع المكتبة الجامعة ، رقم (٢) ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ١٦- مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق محمد حامد الفقي ، نشر مكتبة السنة المحمدية ، ١٩٥٦م.
- ١٧- المستطرف في كل فن مستظرف ، للأبشيبي ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ٢٠٠٣م.
- ١٨- مشكاة المصابيح ، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ، ت: محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ١٩- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، د. ت.

ثانياً: المصادر الإلكترونية:

- <http://www.mot.gov.sa/default.asp>
- http://www.mot.gov.sa/L_HandradBook.asp
- http://www.mot.gov.sa/L_HandradBook_First_3_A.asp
- <http://zbac.mam9.com/montada-f12/topic-t71.htm>

١ - انظر: موقع منتديات التعليم الثانوي في الجزائر على الرابط:

<http://zbac.mam9.com/montada-f12/topic-t71.htm>

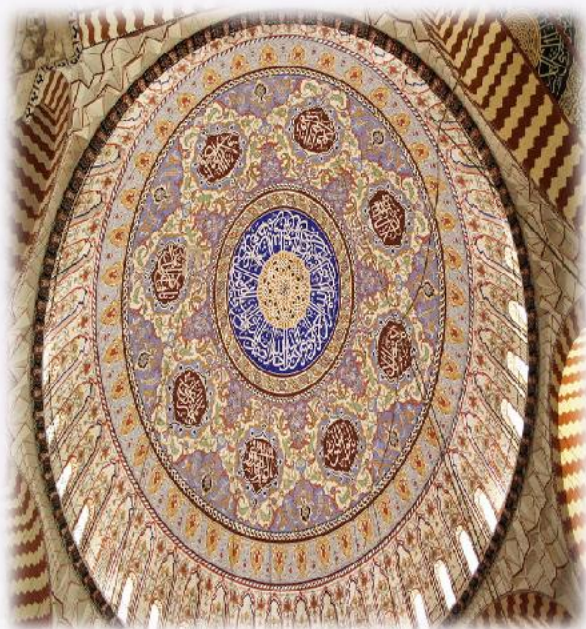
- ٢- مشكاة المصابيح ، (٢/١٩٦٧).
- ٣- المستطرف ، للأبشيبي ، (١/٢٢)، مكتبة الحياة.
- ٤- انظر: المستظرف ، (١/٢٢) ..
- ٥- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ص (٥٦٢) ، دار المعارف.
- ٦- أسرار البلاغة ، للجرجاني ، بتحقيق هـ. ريتز ، ص (٢١) ، دار المسيرة ، بيروت.
- ٧- مختارات البارودي (٤ / ٣١٥).
- ٨- مالك بن طوق التغلبي ، ولي إمرة دمشق للمتوكل ، وهو الذي بنى الرّحبة على الفرات وإليه تنسب ، ت (٢٥٩). معجم البلدان (٣/٣٤) ..
- ٩- مختارات البارودي (١ / ٣٠٩).
- ١٠- اليتماكان: نجمان نيران ، أحدهما في الشمال وهو السّماك الراجح ، والآخر في الجنوب وهو السّماك الأغزل. انظر: اللسان (سمك).
- ١١- الكشف (١/٣٨٩).
- ١٢- مختارات البارودي (٢ / ١٥٩).
- ١٣- العقوة: الساحة وما حول الدار. اللسان (عقا).
- ١٤- مختارات البارودي (٢ / ٢٨٤).
- ١٥- المستظرف ، للأبشيبي ، (١/٢١)، مكتبة الحياة.
- ١٦- انظر أيضاً: قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها ، د. زغلول النجار ، ص (١٨٠)، دار نهضة مصر ، ط ٢ ، ٢٠٠٦م.
- ١٧- هذا البحث في الأصل مقالة بعنوان: من خصائص البلد الأمين ، نشرتها في مجلة منار الإسلام ، عدد ذي الحجة (٣٤٨)، ١٤٢٤هـ.
- ١٨- أصول الفقه ، لأبي زهرة ، ص (٣٣٦-٣٧٣)، دار الفكر العربي..
- ١٩- تفسير أبي السعود ، (٣/٣١) ..
- ٢٠- تاريخ الأدب العربي (٤)، العصر العباسي الثاني ، د. شوقي ضيف ، ص (٤٢)، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية.
- ٢١- إحياء علوم الدين ، (١/٢٧٣) المكتبة التجارية الكبرى.
- ٢٢- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، للدكتور عبد العزيز الشناوي ، (٣/١٣٣) ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٣م.
- ٢٣- المرجع السابق ، (٣/١٣٣).
- ٢٤- مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ص (٢٧-٢٨) ، نشر مكتبة السنة المحمدية ، ١٩٥٦م..
- ٢٥- انظر: محمد بن عبد الوهاب ، أحمد عبد الغفور عطار ، ص (١٥-٢٠).
- ٢٦- تاريخ البلاد العربية السعودية ، د. منير العجلاني ، ص (١٦٩). طبعة دار الكتاب العربي.
- ٢٧- انظر: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، للزركلي ، (١/٢٥٩-٢٦١ ، ٢/٤٤٧-٤٥٧) دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٢م.
- ٢٨- مختارات البارودي (٤ / ٤٣٦).
- ٢٩- انظر: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، للزركلي ، (٣/٩٤١).
- ٣٠- انظر: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، (٣/٩٥١).
- ٣١- انظر: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، للزركلي ، (١/٢٦١).
- ٣٢- مختارات البارودي (٤ / ١٠٣).
- ٣٣- المهمة: المفازة البعيدة ، أو التي لا ماء بها ولا أنيس.
- ٣٤- انظر: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، (١/٤٠١).
- ٣٥- انظر موقع وزارة النقل السعودية على الشبكة العنكبوتية ، فقرة إصدارات الوزارة ، الكتاب المؤتي:

<http://www.mot.gov.sa/default.asp>

http://www.mot.gov.sa/L_HandradBook.asp

- ٣٦- ما تقدم مقتبس من موقع وزارة النقل السعودية على الشبكة العنكبوتية ، فقرة إصدارات الوزارة ، الكتاب المؤتي.
- ٣٧- انظر موقع وزارة النقل السعودية على الشبكة العنكبوتية ، فقرة إصدارات الوزارة ، الكتاب المؤتي:

Conceptual Approach To Architecture



Dr. Badi al-Abed

Consultant Architect & Former Dean
Faculty Of Engineering, Al-Isra` University
Vice President Of The Jordanian Society
For The History Of Science
Amman - Jordan

badi@go.com.jo

Citation:

Badi al-Abed, Conceptual Approach To Architecture.- *Historical Kan Periodical*.- Issue (10) December 2010.
P. 96 – 118. (www.historicalkan.co.nr)

Abstract

This paper argues that architectural interpretation is experiencing from abuse use of architectural key terms. Notions like: criticism, history and theory; concepts like: beginning and approach; and labels like: style, school and movement were used indiscriminately in architectural interpretation.

For instance, Banham (1966:10) indicated that he interpreted New Brutalism as a movement before the conditions of forming a movement were existed. Jencks writings are another example for the abuse use of the former notions, concepts and labels. In his two books: *The Language Of Post-Modern Architecture* and *Late Modern Architecture*, he described Post-Modern Architecture: first as a movement, second as a style, third as a school and fourth as an approach.

Banham and Jencks were attempting to formulate verbal equivalent to the design of some architects before it was tested and proved to deserve a theoretical coverage, organized in an intellectual discipline as an approach, school or movement. This attempt perhaps, caused this abuse use of the former key terms in architectural interpretation.

Commercial architectural press was another source for the abuse use of the previous architectural key terms. As a case in point, the magazine of *Architectural Design (AD)* was a major source of the misinterpretation of those notions, concepts and labels, over the past four decades.

It seems that no considerations were made to the specific definitions of those key terms, nor to the scope of their conceptual meaning, limits and context of their theme.

Thus this paper endeavors to clear the abuse use of those notions, concepts and labels in architectural interpretation via defining them, refining their conceptual meanings. And exploring their themes, outlining their role, scope and place within architectural interpretation in order to employ them appropriately within

architectural interpretation, as they constitute basic themes of the conceptual world of architecture.

In so doing an attempt will be made to investigate the origin, structure, meaning and definitions of the said key terms as indicated in key literary, philosophical and architectural sources. Another attempt will be made to highlight the process and emphasize the conditions of forming and establishing architectural approaches, schools and movements via the concept beginning - as a moment in time and as a project underway - as interpreted in architectural sources.

It is important to indicate that investigations in this paper are limited only to the notions: criticism, history and theory; concepts: beginning and approach; and labels: style, school and movement; though investigations will include concepts like precedence, generality and creativity, but within the previous architectural key terms.

Introduction

This paper argues that architectural interpretation is experiencing from abuse use of architectural key terms. Notions like: criticism, history and theory; concepts like: beginning and approach; and labels like: style, school and movement were used indiscriminately in architectural interpretation.

For instance, Banham (1966:10) indicated that he interpreted New Brutalism as a movement before the conditions of forming a movement were existed. Jencks writings are another example for the abuse use of the former notions, concepts and labels. In his two books: *The Language Of Post-Modern Architecture* and *Late Modern Architecture*, he described Post-Modern Architecture: first as a movement, second as a style, third as a school and fourth as an approach.

Banham and Jencks were attempting to formulate verbal equivalent to the design of some architects before it was tested and proved to deserve a theoretical coverage, organized in an intellectual discipline as an

approach, school or movement. This attempt perhaps, caused this abuse use of the former key terms in architectural interpretation.

Commercial architectural press was another source for the abuse use of the previous architectural key terms. As a case in point, the magazine of *Architectural Design (AD)* was a major source of the misinterpretation of those notions, concepts and labels, over the past four decades.

It seems that no considerations were made to the specific definitions of those key terms, nor to the scope of their conceptual meaning, limits and context of their theme.

Thus this paper endeavors to clear the abuse use of those notions, concepts and labels in architectural interpretation via defining them, refining their conceptual meanings. And exploring their themes, outlining their role, scope and place within architectural interpretation in order to employ them appropriately within architectural interpretation, as they constitute basic themes of the conceptual world of architecture.

In so doing an attempt will be made to investigate the origin, structure, meaning and definitions of the said key terms as indicated in key literal, philosophical and architectural sources. Another attempt will be made to highlight the process and emphasize the conditions of forming and establishing architectural approaches, schools and movements via the concept beginning - as a moment in time and as a project underway - as interpreted in architectural sources.

It is important to indicate that investigations in this paper are limited only to the notions: criticism, history and theory; concepts: beginning and approach; and labels: style, school and movement; though investigations will include concepts like precedence, generality and creativity, but within the previous architectural key terms. Having clear the purpose of this paper and emphasized its method of investigation I shall take the time to start with the notion of criticism.

Criticism

Criticism is a major source of knowledge in every intellectual discipline, like art, literature and architecture. In the following discussion, I shall be highlighting its aspects, purposes, techniques and reviewing its types. In so doing an attempt will be made to indicate its origin. The literal⁽¹⁾ meaning of criticism is the act of making judgment, in particular, in art and literature. Criticism, according to Williams (1980), is a conscious response to the work of art associated with judgment, "as apparently general and natural process." It was developed from fault finding or "unselfconscious-ness"⁽²⁾ to a general concept of evaluation or "self consciousness." Architectural criticism appears to be proceeded in the same manner. According to Collins (1971b) architectural criticism began in its "spoken" form ever since the concern with aesthetic experience occurred. Consequently, criticism developed through the course of history to be formulated into a written language same as any other intellectual discipline. On this view, Collins together with Oakley (1970) and Bonta (1980 a), argued that architectural criticism was derived from and influenced by literary criticism. They argued that criticism is analysis of architecture; its endeavor is to project in thought and words what presents itself in other means (such as sensory and mental perception). And to direct architects and lay public to the outcome of analysis, in order to participate in its structure as a technique for architectural reform, Collins (1971 b).

As a result of this interpretation one may argue that criticism serves educational purposes through its process of inquiry into causes undertakes to formulate a verbal equivalent to design process. Thus criticism reveals consciousness and offer knowledge about architecture.

Restorative and supportive criticism

Having indicated the endeavors of criticism, one is introduced to two main aspects or tendencies that constitute

architectural criticism. Those are "restorative"⁽³⁾ or teleological" and "supportive or ideological." The first is concerned with indicating architectural values and meaning; its task is not just refinement of knowledge of architecture, but constituting, at least, part of it. For instance, Collins (1971 b), argued that "architectural criticism cannot exist unless architectural values are verbalized." In a similar way, Oakley (1970) argued that the task of a critic is to evaluate the result of "the application of the ideas to outcomes, to assess the value to actual work." Therefore, the restorative tendency includes efforts of architectural approaches that are valid at one time, despite their different techniques as will be indicated later. Yet it is a general tendency and not a unitary or a complete one.

Unlike the supportive or the ideological tendency, namely, Marxist criticism. Where architecture, according to Maxwell (1977) and Tafuri (1980), is conceived as an ideological instrument, which has no values of historical continuity of the social order, but a socioeconomic context. Such a notion operates and constitutes the base, means and endeavors of Marxist ideology, which originated from Marx's interpretation of history, Scruton (1979). Therefore, it is limited, absolute and totalitarian, unlike the restorative that operate according to different aspects and concepts, like: religious, technical, functional and different historical interpretation, as will be discussed later.

Generality

The previous discussion leads to the concept of 'generality', which appears to be a point of agreement between the two tendencies. Nevertheless, generality is a vital aspect in criticism. Oakley (1970:179) indicated:

"At a high level of generality the critic has the task of drawing attention to the character of the continuity and discontinuity that exists between the work of past epochs that we have come to admire and study, and the works of our time....

Our present-day architecture is one of prototypes for an epochal architecture whose final forms and disciplines cannot yet be known. The forms cannot be known since they will in part be predicated by process and voyages of discovery in the biological sciences and in applied technology, the implications of which we are as yet unaware ... [my underlining]."

Generality, therefore, is a body of collective knowledge that generates criticism, which as a consequence contributes towards unity of architectural practice. Collins (1968), indicated that generality includes "all" forms, ideas and activities, which merged in some kind of conceptual unity. Such unity may be understood or regarded, according to Collins (1971 a), as an antithesis of design. On this view, one may argue that generality maintains and dictates a patient account as to how architectural practice might be done. Therefore, generality of criticism maintains and, perhaps, animates creative work.

On the contrary, generality of the supportive attempts to project Marxist ideology as a universal one, for instance, Tafuri (1980) argued that "operative" criticism - analysis of architecture rather than an abstract survey - as an ideological one, is "contesting towards past (history) and prophetic towards the future". It operates to substitute the "ready-made judgments of value". On this view, Tafuri argued that criticism is one of the dimensions of architectural activity. Therefore, it has to fulfill two basic conditions: firstly, that the model of criticism should be "journalistic extravaganza rather than a definitive essay which is complete in itself"; secondly, the field of analysis of architectural "object" should be extended to the "criticism of the global context" that constitute its form. In the first condition, Tafuri seems to present a paradoxical argument. He calls upon an elaborated journalistic criticism whilst he maintains the notion of socioeconomic with its limited aspects. In the second condition, Tafuri seems to approach a geographical

generality rather than an intellectual one. Nevertheless, Scruton (1979: 150) disputed Marxist criticism all together:

"... we are presented with a theory which claims to show a 'meaning' in every cultural object and which therefore ought to be as applicable to architecture as to every form of art. And once again the very generality, of these pretensions removes all critical sting : there can no more be a Marxist method in criticism than there can be a Marxist method in mathematics" [my underlining].

However, the concept of generality gives rise to the techniques of criticism. The restorative tendency adopts a "descriptive" technique that is concerned, according to Bonta (1980 a), with cultural phenomena, like: religion, social structure, politics, way of life, thinking and belief, as well as, technology. Such phenomena incorporated into history, as will be discussed later, perhaps as much as into criticism.

On the contrary, the supportive tendency proclaims a "prescriptive" technique where criticism operates, functions and performs, according to Tafuri (1980), as a code that constitutes practice of architecture. Nevertheless Scruton (1981), once again, disputed Marxist criticism by demonstrating its technique as a depicting cultural phenomenon which is preoccupied by the notion of socioeconomic; incapable of offering solutions or guiding principles to aesthetic and architectural "problems". Yet one may conclude that descriptive technique serves for dissemination of knowledge whilst the prescriptive one, in its limited scope, serves for the dissemination of ideology. Thus, this paper will be a contribution to the task and technique of restorative tendency.

Types of criticism

Having so far highlighted the two tendencies and techniques, indicated the conceptual criticism, it seems paradoxical, therefore, to interpret specific types of criticism. But this is not the case, because most, if not all, architectural approaches were sprung from based upon or attributed

to a specific type/s of criticism; or the other way around, so to speak that architectural approaches are instruments of criticism. And criticism is a means of interpreting and refining architecture. For instance, Scruton (1979), indicated different “doctrines” of aesthetic, such as: “functionalism,”⁽⁴⁾ the “space theory”⁽⁵⁾ and “proportion.”⁽⁶⁾ He reviewed and criticized the three doctrines only from an aesthetic point of view. Whereas the first, is an architectural approach which is concerned with the nature of architectural practice as “fitness for purpose” and aesthetic is only one aspect of the functionalism approach. The second, is a more conceptual approach rather than practical, such approach attempts to relate buildings (architecture) to their surrounding space and to achieve aesthetic values from architecture/space relationship. The third is the corpus of historical interpretation, in which historians tried, according to Scruton (1979), to transfer to architecture the “quasi-musical notion of a harmonious order by giving specific rules and principles for the proportionate combination of parts”. Consequently, one may conceive as to how architectural criticism and architectural approaches are incorporated.

On this view, spoken criticism, as indicated earlier, was the first type. It developed, according to Collins (1971b), to a poetic type as in the case of John Ruskin’s⁽⁷⁾ depiction of *The Stones of Venice*. Where Ruskin “transmute architecture into literature without contributing anything at all to the public understanding of problems of architectural design”.

Oakley (1970) recorded five types of criticism: firstly, “contextual” criticism which is concerned with cultural/architectural interrelation, such as the relation between social order and architecture. The second type is “formalistic” criticism which is concerned with image and meaning of architecture. The third is “aesthetic” criticism, which is concerned with syntax, grammar of architecture proportion and artistic

characteristics. The fourth and the fifth, are “functional and spatial” criticism, both were indicated earlier.

Another categorization based upon the assumption that criticism incorporates into architecture as a “special” activity, was indicated by Collins (1968). Where he recorded four types of criticism: the first, is “popular” criticism, which is concerned with public experience of using certain types of buildings like opera houses and theatres or via visiting certain buildings like palaces and museums. The second, is “lay” criticism, which is concerned with layman’s experience of buildings they have seen or occupied and also, the act of laymen as clients upon design. The third, is “professional” criticism, which is concerned with criticism made by architects for architects, whether they criticized drawing, as in the case of competitions or finished buildings. Here Collins indicated the futility of assessing buildings in environmental terms without the knowledge and experience of the critic with the building environment. Bonta (1980 a), emphasized this view when he recorded the evaluation of the historian Pevsner and the reaction of the English critic Broadbent to the Leicester Engineering Building⁽⁸⁾. The former as an outsider critic argued that the building is a functional one, whilst the latter as a user of the building disputed the former judgment. It is for this reason, one may argue, that critics should avoid drawing or camera criticism. The final type is “self-criticism” which is concerned with evaluation of the creative processes of the human mind and that applied to architectural methods.

Finally, one also may introduce a third categorization, which includes three abstract types. Firstly, camera criticism, which introduced by Frampton (1975) and Tafuri (1980), where critic operates through drawings, pictures and models, as indicated earlier by Collins. Secondly, “authorative” criticism, in which the term applies, according to Collins (1971 a), to the principles of criticism that operates as guidance assumptions and means of

judgment to architectural work. Thirdly and lastly, “educational” criticism which is exercised by architectural tutors in schools of architecture. It combines all types of criticism and knowledge of architecture at the tutors’ disposal through the course of teaching.

Having gone so far as to highlight the notion of criticism and emphasize its role in architecture as a means of interpretation and refinement of knowledge about architecture, the following discussion will be devoted to the notion of history.

History

Ever since awareness of history began, among architects, in the middle of the eighteenth century (in the Western world), according to Allsopp (1970), Collins (1971b) and Watkins (1978), a dispute started about its interpretation, task and purpose. In the following discussion an attempt will be made to highlight the notion of history, its disputed aspects and its role in architectural interpretation.

History, according to Collingwood (1976), “is a special form of thought”, a kind of research, quest or inquiry about events or things which we do not know and attempt to discover them; via adopting a scientific technique of asking questions and attempting to answer them in order to find, extract or establish evidence for interpretation from the actions of human beings that have been done in the past. This in turn offers us self-knowledge and may constitute our experience. Therefore, the value of history, according to Collingwood, is an educational one, in the sense of inducing knowledge from man’s past experience and self-consciousness through understanding the said knowledge. Yet Collingwood’s interpretation is a general one and seems to offer general understanding to the nature, object and value of history, which may help and ease the cause of this paper. But the following discussion will be devoted to architectural history.

Architectural history and its interpretation

Architectural history began in the Western world, as indicated earlier in the middle of the eighteenth century, where Stuart⁽⁹⁾ and Revett recorded the ruins of Athens and Soufflot⁽¹⁰⁾ categorized the classical revival in French architecture. All historical writings at that stage, according to Collins (1971b), were concerned with description of architectural form depiction of its features and surveying of its technical achievements.

This sequence of description and discoveries together with the notion of “historical periodicity” ⁽¹¹⁾ led to the categorization and interpretation of architecture into styles (the label of style will be highlighted later in this paper), like the Baroque⁽¹²⁾ and Rococo⁽¹³⁾ styles. Such discoveries and interpretations, in their turn, tempted architectural historians, according to Collins (1971b), to become theorists, which was, in my view a turn event in architectural interpretation, where I shall be demonstrating later in the concept theory.

A third interpretation, according to Collins (1971b), was the revival of architectural styles which implied two tendencies: one sought the ideals of particular styles (Greek or Roman), whilst the other considered all styles of equal value. It was from the latter tendency that a fourth interpretation namely eclecticism, partly influenced. However, the French philosopher Victor Cousin introduced the label of eclecticism, according to Collins (1971b), to philosophy. Where Cousin argued that eclecticism was a composite system of thought consisting of various selected views from different intellectual disciplines. Yet Collins argued that eclecticism was a consequence of both Cousin’s philosophy and equality of styles’ value, which gave way to a new trend in architectural practice that based upon the amalgamation of selected “tectonic” elements from different styles. It was an endeavor, according to Collins, “to find a

way out of the impasse of stylistic copying". Eclecticism in its turn gave way to modern architecture as will be discussed in a moment.

The point at issue, therefore, is that two "conflicting schools": "Revivalist" and "anti-Revivalists", were constituting the interpretation of history of architecture and paradoxically both sprang from the same attitude towards history, Collins (1971b:133):

"The Revivalists were dominated by their awareness of the legacy of history. [Whilst] the anti-Revivalists were dominated by their awareness of the evolutionary nature of history."

The former were concerned with reinterpreting styles' idioms in modern terms whilst the latter were concerned with "language" rather than themes. Thus far, discussion highlighted four different architectural interpretations of history, each of which initiated its own interpretation within the knowledge, awareness and consciousness valid at the time. Unlike modern architecture that exceeds those limits and endeavors towards new limits. In so doing the following discussion will be devoted to review Watkins' historical interpretation.

Watkins (1978), viewed three "persistent" interpretations to architectural history: firstly, one of a "religious sociological and political tendency"; secondly, the "spirit of the age" or "*Zeitgeist*"; thirdly, the "rational or technological" tendency.

The first one was obsessed by the belief that architecture should express the social order, moral and philosophy of societies and viewed architecture as an instrument for achievements of social policy. Whilst the spirit of the age (*Zeitgeist*) - which was introduced by Hegel conveyed and applied to architecture, according to Watkins (1978) and Scruton (1979), by the art historian Wolfflin, demonstrated and emphasized by Giedion (1978) interpreted by Watkins (1978:7):

"... *Zeitgeist*-inspired belief that human nature has changed radically that a new man has been born who either must learn to express himself in a radically new way which is externally dictated by economic and political conditions, or must himself be changed radically in order to conform to these new conditions."

Giedion (1978) demonstrated the influence of the *Zeitgeist* upon, architecture. He indicated that historical philosophy of the modern movement was based upon a conscious abandonment of historical styles. Consequently, architecture should be devoted to deal rationally with contemporary social and technical problems.

Such a view that close, if not ties, the *Zeitgeist* with the rational and technological (functionalism) approach, which is the third interpretation of Watkins (1978). He indicated that functionalism, also, escaped from historical ties and architecture should be the "natural outcome of a rational intellectual discipline" applied to the solutions of measurable practical or technological problems. Therefore, the *Zeitgeist* and functionalism are two faces to the same coin; both appear to share the same view towards history; both challenged and accepted the risks of rupture with past architecture and both were aspects of modern architecture.

Such challenge demonstrated by Giedion (1978), *Space Time And Architecture* where he regarded past (history) as an "integral part of existence"; "absolute points of reference" or/and "a useful dictionary" for selecting forms as in the case of the nineteenth century architecture (eclecticism).

Unlike modern architecture which was based upon the concept of "fitness for purpose" as a criterion which has no precedent use and it took its power from a moral demand. In a similar way Gropius (1976), *The New Architecture And The Bauhaus*, argued that the new architecture (modern architecture) was based upon an anti-traditional obsession. As a founder-

practicing architect Gropius (1956), *The Scope Of Total Architecture*, demonstrated the application of this historical attitude to architecture by emphasizing that past architecture maintained no place for “original” and “creative” practices which is what modern architecture endeavors to achieve. Yet modern architecture should adopt a new historical attitude.

But such anti-historical attitudes that endeavor to suppress past experience in favor of originality and creativity had brought a dispute to architecture. For instance, Allsopp (1970), argued that history offers a sense of direction and without this sense architecture “cannot be successfully practiced”. In a similar manner Collins (1971a) argued that history is the source of precedence, discloses “truths” and highlights “higher” truths. These truths are the “only” guide of making architectural judgment. Therefore, he concluded that the *Zeitgeist* through its break with history is incapable of making a “reliable” judgment. According to an ideological ground, Tafuri (1980), indicated that modern architecture in its denial to history has discovered and created its own history. Consequently he disputed its attitude which based upon “looking for” ⁽¹⁴⁾ (original and creative work) rather than “finding” (traditional work), despite the fact that Tafuri argued that “history cannot offer solutions”.

A final view based upon artistic belief was put forward by Watkins (1978). He argued that architectural ideology couldn't replace history nor is it capable of escape architecture from “involvement with image-making”. Therefore, Watkins argued that modern architecture adopts an image that closes it from Marxist ideology.

In the sequence of events opposers of the historical attitude of modern movement (where they are more than this paper has a place to enumerate) have demonstrated its: “failure”, Brolin (1976); “crises”, McEwen (1974); “fiasco”, Blake (1977) and “death”, Jencks (1977a). As a result of this debate a switch to other alternatives took and is taking place through approaches like New

Brutalism, Post-Modern, The New York Five and Deconstruction. In fact, these alternatives were coined by historians, critics and architects like Banham (1966), Jencks (1977a) and Eisenman (1976); anticipated and suggested established approaches and “rules” for judgments before each approach (beginning) tested itself through its historical process, as will be highlighted later in the concept beginning.

Having so far reviewed the historical interpretations of the antiquity, revivalists, anti-revivalists, eclecticism, religious, *Zeitgeist*, functionalism (rational and technological) and modern architecture, the following discussion will be devoted to highlight the nature and purpose of history.

Nature of history

As indicated earlier that the nature of history is inquiry, therefore in each of the previous interpretations, inquiry has been demonstrated in different techniques. For instance, evaluation of form - depiction of its features and description to its construction as indicated earlier - was the first technique to be used. The nature of this technique was inquiry about aesthetic and technical achievements and its purpose was to extract a valid body of values and roles, Collins (1971 b). Such a technique proceeded in the same manner until the French architect and historian J. D. Leroy, distinguished between history of architecture and theory of architecture. Where Leroy according to Collins (1971b), was the first to introduce the concept theory to architecture, consequently, a split in the profession between historians and architects also occurred, Pevsner (1961). The former is concerned according to Collins (1971b), with architecture as an end product, whilst the latter is concerned with architecture as “philosophical problems.” More to the point, Gropius (1956), emphasized such a split, he argued that the task of historian is rediscovery of the past, whilst, that of the architect is to create a need “order.” As a result of this split, together with the awareness of history,

according to Allsopp (1970) and Collins (1971b), the scope of originality increased and as a consequence the purposes of historical studies had also changed. For instance, historians like Moholy-Nagy (1976), Allsopp (1970) and the architect Gropius (1956), argued that historical studies creates a kind of “acute self-consciousness” on the one hand and offers knowledge about architecture on the other. This knowledge was partly attained from the concept of “precedence”, where architectural precedence, according to Collins (1971a), serves to illustrate principles. And partly from Allsopp (1970), he argued that historical studies participate in “giving form to unorganized experience.”

But historians like Tafuri (1980), argued for a more ideological purpose, therefore historical studies should be devoted to free the meaning of architecture from its limited functional one and to suppress the value of architectural precedence.

Themes of historical studies

Nevertheless, despite the Marxist interpretation, it seems that all historical studies endeavor to offer knowledge about architecture. However, contemporary historical studies appear to be operated in three different themes: firstly, ideological as in the case of Marxist historians like Tafuri (1980). Secondly, artistic and classical interpretations, as the case of Watkins (1978), Benham (1966) and Jencks (1977 a & b). And thirdly, philosophical as the studies of Allsopp (1970) and Collins (1971 b).

However, in the course of discussion it has been emphasized that whenever objectives were measured against established historical interpretation, a change in focus occurred, a new interpretation introduced and all this process has been manipulated by criticism. The point at issue, here, is that criticism and history are inseparable. Thus the notion of history should not misinterpreted in architecture as to refer only to classical architecture. It should operate in a more wider sense as I tried to demonstrate in the

course of the previous discussions. In fact it is the endeavor of this paper to free the notion history from the abuse use and limited interpretation and to consider it as a record for the conceptual world of architecture and source for disseminating knowledge about architecture. Where in the following discussion I shall be highlighting another source of knowledge namely the notion theory.

Theory

Two sources of architectural interpretation have been discussed, criticism and history where both are concerned with analysis and inquiry into causes undertaken to formulate architectural thought. A third source is theory of architecture; the following discussions will be devoted to highlight the sequence that characterizes its interpretation, development, status and types.

Williams (1980), in his general interpretation to the notion theory, identified it as “a scheme of ideas which explains practice.” He indicated that “theory is always an active interrelation between explanation and things happening or made to happen in controlled conditions.” In this sense theory is a means of explaining, observing and making practice. Therefore, theory requires remaining open to objections in order to proceed as a theory and not to be ceased and become a “law”, Oakley (1970) and Williams (1980).

To delimit this discussion to architectural theory, one find, as has already been indicated, that the French architect J. D. Leroy, was the first to introduce the notion theory to architectural thought. It has also been indicated that one of the purposes of historical studies was to extract aesthetic values and technical rules or a valid body of principles. Therefore, historical studies were devoted to illustrate principles that may serve to establish theory/ies of architecture.

Nevertheless Oakley (1970), argued that the notion of a theory is a “practical

necessity if a body of knowledge is to pass beyond the natural history stage of recording and classifying." But he emphasized that any theory of architectural design is work as a "semantic" rather than a "scientific" one. Such a theory that is concerned with "development, experience, meaning, direction, purpose, assessment and evaluation"; and these terms are "non-scientific." Therefore, theory of architecture operates as guidance assumptions to the work of architecture rather than a fixed formula as in sciences' theories. In the historical sense theory is concerned, according to Collins (1971b), with the way people actually build in the present. Therefore, theory is an active contemporary notion. On this view, it requires to be flexible in order to comprise the contributions of concern architects, critics, artists, scientists and perhaps historians.

Such contribution appears in the work of Scruton (1979) and Bonta (1980 a); the former indicated that architectural theory developed to formulate the maxims rules and precepts which govern or ought to govern practice; it also aims to solve problems and pre-empt solutions. Whilst the latter argued that theory can change practice, either by replacing previous theories or by developing "quasi-theories." Thus both emphasized that theory and practice are interrelated. A similar view has been indicated by Norberg-Schulz (1967), where he argued that past theories were theories of means and the end were left to architects. On these views he maintains the need for theory with two aspects: external to deal with the task and internal which studies the means. Finally, Gropius (1976), indicated that theory is the "impersonal cumulative experience of successive generations" therefore, it is not a "ready-made" formula to guide practice, nor should it be instrumented as a preoccupation means against creativity and originality.

Creativity and originality

Creativity, according to Oakely (1970), Moholy-Nagy (1976) and Benett (1977), is the stage of exceeding the ultimate solutions to a new one and originality means uniqueness, inimitability or eccentricity. Benett argued that being original means being different and original practice is not necessarily a creative one.

On this view, creativity and originality may exceed the limits or discontinues, altogether with valid theory/ies. If the former occurred, theory may develop in a progressive manner according to Gropius, or it may lead to establish a quasi-theory according to Bonta (1980a). But if the latter occurred, that means a new beginning is underway and its endeavor, in my view, cannot be appropriately tested or judged until its formative stage is established, as will be discussed in the concept beginning, later in this paper.

However, having highlighted the notion theory and demonstrated its interrelation with practice, the following discussion will be devoted to highlight its status and types.

Status and types of theories

In so doing one finds that the notion of theory of architecture is a disputed one because it is a semantic one and consists of many theories of sciences and intellectual disciplines. Therefore, its status is an amalgam of the statuses of the many theories (of physical sciences, applied science human sciences and art) that constitute it, Oakley (1970). These statuses, Oakley argued, are varied from a wide measure of agreement in the theories of sciences to a disputed descriptive theories in human sciences and art, which "never reach agreed statuses". On this view, theories of architecture cannot maintain definite agreed status. Consequently, it comprises in its life of discipline, according to Oakley, four basic types:

- 1- explanatory theories
- 2- basic concepts
- 3- generalization and
- 4- schemes of classification

1-Explanatory theories, as indicated earlier, are mainly historically oriented,

they seek to explain *why* and *how* certain architecture arrived into its established custom. These types of theories contribute towards the creation of knowledge about architecture and self-consciousness among architects.

2-The basic concepts are a body of ideas where “we” interpret our experience or use to demonstrate precedent concepts like the “rural home” or the “urban dwelling.” Concepts that demonstrate certain “happenings” and phenomena serve as brief descriptions to the phenomena involved and may help theorists and architects to organize new concepts. Basic concepts are what this paper is attempted to do so far, by defining and refining specific notions and concepts.

3-Generalization theories spring from the use of notions and concepts without distinctions, such as the phenomenon of “flat roofs” are found in the Mediterranean regions and “pitched roofs” are found in regions of moderate to high rainfall.

4-The schemes of classification theories are based upon “philosophies attitudes, concepts and needs.” Classification is meant to help to organize bodies of data, which enables and facilitates one to find his way through knowledge. Oakley emphasized that no classification system is perfect, but he maintains the need to organize anybody of ideas in different ways aiming to arrive at “new truths.” For instance, structural system is one of these classifications, which enables architects to select the appropriate structure for their design.

However, in the course of discussions, one may conclude that the notion of theory was partly a consequence of historical studies and partly of an intellectual need. It has no specific status but is capable of development and progress. Yet one should bear in mind that the status of theory is not a fixed formula, it rather an open organized body of ideas that work as a guidance assumption to the work of architecture. Therefore, it may be substituted with other original thought and practice; if that

happens, then, a new beginning ought to take place in architecture and that is the subject matter of the following discussions.

Beginning

Having gone so far as to interpret criticism history and theory, I shall take the time here to highlight the concept beginning and its place in architectural thought. Since beginning is a new concept that I shall try to introduce to architectural criticism. Therefore, it is necessary, first to indicate and highlight its origin, interpretation, status and establishment.

As indicated earlier architectural criticism is almost always influenced by literary criticism. The concept beginning coined and used to serve literature and arts criticism, according to Said (1978), *Beginnings Intention And Method*, where he devoted all the book to highlight the concept beginning. He indicated that beginnings are something one “does” and something one “thinks” about. He argued that the two sometimes go together; consequently they are connected when “language is being used.”

Such particular vocabulary, Said indicated, employed terms like: “beginning and starting out, origins and originality, initiation, inauguration, revolution, authority, point of departure, radicalism” - when a beginning is being outlined or indicated. Therefore, Said indicated that thinking *about* beginning is tied to initiating a beginning, he argued that beginning is not only “a kind of action, but it is also a frame of mind, a type of work, an attitude and a consciousness.”

Beginning, Said indicated, is not always evident; it is basically an activity which “ultimately implies return and repetition rather than simple linear accomplishment.” Thus beginning and “beginning-again” as activities are making or producing difference. For although a beginning in its beginning establishes relationships with works already existing, but relationships according to Said’s of either continuity or discontinuity or a “mixture” of both, Said (1978:5) indicated:

“...the concept beginning designates a moment in time, a place, a principle, or an action ... thus the concept beginning is associated in each case with an idea of precedence and/or priority. Finally most important, in each case a beginning is designated in order to indicate clarify, or define a later time, place or action. In short, the designation of a beginning generally involves also the designation of a consequent intention ... the beginning is the first point (in time, space, or action) of an accomplishment or process that has duration and meaning. The beginning, then, is the first step in the intentional production of meaning[my underlining].”

The previous interpretation indicates and gives rise to different concepts. I shall try to show how these concepts existed and implied in architecture, after highlighting its aspects.

Beginning as an idea, according to Said, “is a creative and a critical activity”; it has an active meaning, unlike origin that has a “passive” one. It seems that it is for this reason that Said places origin before beginning and considers the former as a latent state from which the beginning of action takes place and moves forward, thus origin serves, according to Said as a “condition of state” that permits beginning. Therefore, beginning (as the first point in a given continuity together with its initiated course of discontinuity with established courses) is an undergoing process or a problem to be studied which needs time to be established, so it is “more a structure than a history.” In other words the concept beginning serves to coin and create principles, this is not paradoxical with precedence which serves to illustrate principles, as indicated earlier. Because beginning in its both aspects intentional and “circumstantial” has the desire and will to accept the risks of rupture with established courses, therefore, it is a project underway; whilst precedence is, already, an established course. Said argued that once beginning made the “focus of attention” and occupies the “foreground is no longer beginning” but

it has the status of actuality similar as precedence. As a result of this, Said distinguished between “thought that is beginning (established courses) and thought about beginning that is between the status of subject and object.”

Kinds of beginning

Finally, Said indicated two kinds of beginnings: “transitive and temporal” one, which anticipates, implies or implicates the end and expected continuity, which occurred when the search for it “pursued within moral and imaginative framework.” The other kind is “intransitive and conceptual” one, which has no object but retains for the beginning its identity as a radical starting point which occurred when the search is modest and less urgent. The two kinds of beginnings, according to Said, entail two styles of thought and of imagination: one projective and descriptive, the other tautological and endless by self-mimetic. Similar conclusion has, already, been indicated earlier in this study, therefore, one may conclude that beginning and criticism are interrelated and the former is a means for generating the latter.

I have so far tried to view the status of the concept beginning, as a starting point and as an idea, which entails a formative process that projects or endeavors to project an end. And how this concept propagates two tendencies of thought, as already indicated earlier, in criticism and history. In much the same way, the following discussion will be devoted to highlight the place of the concept beginning in architecture.

Beginning in architecture.

In what setting? and by what instruments architectural beginnings are formed? and what ends such beginning project? In the previous discussion, different historical interpretation of architecture has already been indicated each of which one may view it as a new beginning that projects a style as an end. Since modern architecture was the only approach that challenged the continuity of past architectural thought and practices as

already indicated. Therefore, one may interpret it as a conscious intentional beginning that accepts the risks and rupture with history or past architecture which endeavors as a “new architecture” (beginning) to designate its place in time and independent identity outside the stylistic interpretation, Gropius (1976). But it seems necessary, first, to point out the place of the concept beginning in architectural thought.

Beginning has been introduced to architecture in different terms. For instance, Wolfflin (1968), *Principles of Architectural History*, attempted in his book to find a starting point in architecture; Giedion (1964), *The Eternal Present, The Beginning Of Architecture*, indicated a starting point to architecture when he considered Mesopotamia is the birthplace of architecture. In a quick survey to the bibliography of this paper one finds many titles with the prefix “New” or “Neo”, which indicates a starting point. Other titles like: *Crises In Architecture, Failure Of Modern Architecture; “Death” of and “Retreat” from modern architecture; “Post” and “Late” modern architecture* maintain the need for a new beginning. Nevertheless, a more conscious interpretation to the concept beginning appears to have its place in architecture. For instance, the American architect Louis Kahn argued that “it is good for the mind to go back to the beginning because the beginning of any established activity of man is its most wonderful moment.”⁽¹⁵⁾ Such argument may appear modest but demonstrates and maintains consciousness of the concept beginning. Another conscious and imaginative interpretation demonstrated by Scully (1975), he argued that historians in their attempt to define the beginning of modern architecture, should return back in time until they reach a chronological point in which the image of architecture no longer bears a modern world image. Such interpretation indicates conditions and aspects of the concept beginning. In a Hegelian dialectic⁽¹⁶⁾, Bonta (1980 a)

considered beginning as a reinterpretation of architecture and argued that for such reinterpretation to occur it would have to consider a valid interpretation, then to ignore it, then challenge it. As a result of this process a work “departs” from an established one, “a change in focus [and] a switch to a new area of interest” ought to take place. Consequently, a collective effort needs to be maintained in order to form, establish and constitute a new course in architectural thought and practice.

Therefore a new beginning in architecture is not a modest personal choice - like the views of Venturi (1977) and the interpretation of Post-Modern, Jencks (1977a) so much so the interpretation of Deconstruction, Eisenman (1988) - but perhaps a cultural necessity which stems and performs within a moral framework. Gropius (1956) and Le Corbusier (1960) argued that modern architecture initiated a new beginning. The former in his book, *The New Architecture And The Bauhaus*, indicated a “breach” with past architecture in favor of “honesty of thought and feeling.” In achieving this, Gropius (1956) indicated that “a new scope for architecture had to be outlined.” Consequently, he argued that a modest individual architect cannot achieve such an attempt, but he maintained the need for the contribution of a well-trained generation of architects that would contribute, creatively, according to moral basis and social commitments. Gropius (1961), demonstrated his contribution to the concept beginning by indicating that “at the beginning of our movement [modern architecture] stood an idea”, not preoccupation of certain forms. In a similar way Le Corbusier (1960), *Towards A New Architecture*, interpreted the beginning of modern architecture as a revolution. He argued that for such a revolution to take place it must challenge the continuity of the past (history). Consequently, he indicated that such a challenge was underway and “architecture today [1923] is no longer conscious of its own beginnings.” Both were

consciously endeavored to arrive into an anti-stylistic end.

Having highlighted the concept beginning and indicating its role and place in the practice and interpretation of architecture, in the following discussion, I shall be highlighting the concept approach but after highlighting the label style.

Style

As indicated earlier that the division of architecture into styles was a result of the periodicity of history. But the term style according to Collins (1971 b), originated in literary studies; it meant or referred to a specific “feature of literary composition which belongs to the form and expression rather than to the substance of the thought or matter expressed.” He also indicated that architecture was practiced, before the awareness of history, as a straightforward matter and relied upon established “principles”, whereby architects imagination should be maintained within the limits of acknowledged rules (styles). Moholy-Nagy (1976), also indicated a similar attitude, she argued that architects of the past were unchallenged nor confused (like today’s architects) with technology, economy and “cultural aesthetic values.” Therefore, one may conclude that style, originality and creativity were in-conflict. Such conflict led to the beginning of modern architecture.

Ever since this conflict occurred⁽¹⁷⁾ advocates of the new beginning were faced with a dilemma as to whether they interpret its end product in accordance with stylistic establishment or outside such one. Those in favor of stylistic interpretation, Hitchcock and Johnson (1966), *The International Style*, argued that although modern architecture suppressed the “prestige of the styles, but it did not remove the implication that there was a possibility of choice between one aesthetic conception of design and another.” They argued that style has developed from a fixed mould to a frame of potential growth. Consequently, it reciprocates “new principles” such as “volume”, “regularity”

and “order” as alternatives to “mass”, “symmetry” and “rhythm.”

The others argued, together with founders⁽¹⁸⁾ of the new beginning, that the limited scopes and acknowledged rules of style stifle rather than stimulate creativity and bear limited consciousness. Therefore, they introduced two *labels*: namely school and movement to clarify and define their conscious beginning, Gropius (1956, 1961, 1976), Le Corbusier (1960) and Giedion (1978), as I shall be reviewing after indicating definitions of style.

Types of definitions

In so doing one is caught between two types of definitions, what one may call explanatory and the other conceptual. The former seems to be prone to indicate the process of working within a style, whilst the latter attempts to emphasize the meaning of style. The former appears to be adopted by founders and advocates of modern architecture. For instance, Le Corbusier (1960) has defined style on one occasion as a “lie” and on another as “the unity of principles animating all the work of an epoch.” In a similar manner Gropius (1956) indicated that “a style is a successive repetition of an expression which has become settled already on a common denominator for a whole period.” Giedion (1978) argued that style is a formalistic approach. Finally, Wolfflin (1950), argued that the style of closed composition is an architectural one.

The conceptual definition appears to be the corpus of art historians rather than both architects and architectural historians. For instance, Coomaraswamy (1956), indicated that the artist is innocent from the sequences of styles. Yet “styles are the accident and by no means the essence of art.” Scruton (1979), argued that style is “the natural crystallization of aesthetic endeavors”; it serves to grasp meaning that suggested to the aesthetic understanding of style’s characteristics. Another approach to the interpretation and definition of style was put forward by Pevsner (1975), he attempted to detach the term style from its

traditional meaning as indicated earlier and argued that contemporary style “must” be inclusive. Norberg Schulz (1967) and Jencks (1980 a) interpreted similar views.

Nevertheless, as indicated earlier a consequence of stylistic interpretation led to substitute the label of style with new terms such as: school and movement in order to label the endeavor end of the new beginning. For although none of the two terms has been directly interpreted like the label style or the concept beginning. But indirectly as in the attempts of introducing the phrase “international style” and the concept “approach” to substitute the term style. However the following discussions will be devoted to the concept approach.

Approach

The use of the adjective international, perhaps, meant to widen the limited scope of traditional style/s as indicated by Hitchcock and Johnson (1966). Whilst the literal meaning of the term approach as a proposal appears to be less formal than any of the terms that have been so far interpreted. It is for this reason, perhaps, that the term approach is used indiscriminately to interpret and cover individual practice, as well as established ones. For instance, a series of articles had been published in the *RIBA Journal* (1967), under the rubric “Architects Approach To Architecture”, emphasized individuals contributions to architecture. Gropius (1956), highlighted the established aspect of the concept approach, when he indicated that the endeavors of the Bauhaus⁽¹⁹⁾ were to find “a new approach.” Therefore, the term approach does not reveal a formal architectural characteristics or practice; nor does limited to a specific architectural discipline or interpretation. It is, in my view, a wide concept, neutral in its meaning, perhaps, like beginning and not just a specific label like school, which I shall be interpreting, in the following discussion.

School

The term school used in architectural interpretation in its abstract meaning as it has already been used and is used in many

other intellectual disciplines like literature, psychology and philosophy. Despite the wide range use of this term outside the architectural realm, but there has been no direct or specific interpretation to its concept, except short definitions in dictionaries and encyclopedias. In which the term appears to have wide usage in painting and philosophy. According to the many dictionaries I consulted, the term school applied to a body of intellectuals who share the belief in a system of views, principles and methods or are actuated by the same spirit and opinions, like the “Scotch school of philosophy.” Baldwin (1902), *Dictionary Of Philosophy And Psychology*, recorded two types of schools: one that is bounded and motivated with locality of opinion and allied by race and geography, like the “various groups of Greek thinkers.”⁽²⁰⁾ And the other is a more organized group connected with personal relationships, preoccupied by the ideas of a recognized founder, like Plato, and devoted to elaborate and defend these ideas. In much the same way, *The Penguin Dictionary of Art And Artists*, indicated that the term school applied to the collective work of artists of a province or nation at some particular time like the “Italian school of painting.” The term, according to the same dictionary, bears more sense when it is applied to a smaller territory. Consequently the term will be easily defined if it is referred to a painter rather than a place, *The Dictionary* indicated that the National Gallery Catalogues⁽²¹⁾, suggested “that school is best reserved for a geographical designation, while style of ... should be used to indicate the relationship to a particular painter.” The point at issue, therefore, is that the term school is, perhaps, wider than style. Such interpretation appears to imply the endeavor of modern architecture, despite the unconscious use of the term by historians Jencks (1980 a), but Gropius (1956), attempts to bring to bear a specific interpretation. He indicated that modern architecture includes different schools of design and each of which has its own representative. For although Gropius did

not nominate these schools, nor did he nominate their representatives but his analysis seems to offer a conscious place to the term school within architectural thought. Yet according to Gropius, each new approach to modern design (architecture) is a school, consequently, the Bauhaus was a school in both senses, as a professional institution and as an intellectual discipline. On this view, school is a label that covers specific contributions to architectural thought and practice initiates and reflects consciousness within the architectural realm. But in trying to unify the contribution of schools of design under an inclusive label that bears wide consciousness, one is introduced to the label movement that I shall be highlighting in the following discussions.

Movement

Similarly as school, the term movement covers the course of actions and endeavors of many intellectual disciplines like music and painting. It has been defined, according to the many dictionaries I consulted, as a course or series of actions and endeavors on the part of a body of persons tending more or less continuously towards some special end. In philosophy, movement is interpreted as the process or course of thought in reasoning. In painting movement is the quality of suggesting that the objects represented are moving. In architecture Murray (1980), *A New English Dictionary Of Historical Principles*, went on to define movement as the “harmonious variety in the lines and ornamentation of a building; freedom alike from monotony and incongruity.” The point at issue, here, is not as to whether one is to agree or not with this interpretation, but the fact that architecture is for the first time, categorized in a dictionary, side by side, with other intellectual disciplines and outside stylistic interpretation.

Gropius (1956) indicated that the endeavor of the Bauhaus was not to create a new style but a “movement” that “promotes a creative state of mind.” He agreed that a movement is a sequence of ideas

continuous actions and collective efforts that contribute towards a proposed endeavor. It is not by any means an obsession with specific forms and techniques. Bonta (1980 a) emphasized that the movement of modern architecture was not a “mishap” but a result of elaborated activities and collective efforts of clarification to its endeavors. He argued that “any” movement that tries to overlook these principles is condemned to be “short-lived.” Consequently, contributions to a movement should be maintained and followers should be encouraged to air their views rather than be described as formalistic imitators to the work of founders of such a movement. Thus, the term movement, (as in the case of modern movement - modern architecture) applies to a variety of approaches of architecture that contribute almost, to the same endeavor each in its own way. It is similar as in the case of the Bauhaus, organic⁽²²⁾ architecture and functionalism, so to speak, that modern movement is an inclusive one that includes different schools of design. Thus a movement as a label bears and reflects more consciousness than any of the preceding notions, concepts and labels.

Finally, in the course of discussions in this paper I tried to show that architectural key terms are vital part of the conscious process of architectural interpretation. I emphasized the need for appropriate employment of each notion, concept and label in this process.

Summary and conclusion

Discussions in this paper were devoted to clear the abuse use of key terms in architectural interpretation. It covered the notions: criticism, history and theory; concepts: beginning and approach; and labels: style, school and movement. Discussions also covered many topics in architectural thought like the concepts: precedence, generality, creativity and the label eclecticism.

In the course of discussions an attempt was made to define each key term, refine its meaning, explore its role and outline its

scope and place within architectural interpretation.

In the beginning discussions highlighted the notion of criticism, its literal meaning, origin and development from the spoken stage to the intellectual one. It proceeded to include the two tendencies of architectural criticism, restorative and supportive, and indicated the teleological theme of the former and the ideological one of the latter. Discussions highlighted the concept of generality together with the descriptive and prescriptive techniques of criticism. It recorded the types of criticism and drew the relation between criticism and history. Discussions concluded that the role of the notion of criticism in architecture is a means of interpretation and refinement of knowledge.

The discussions that followed extended to highlight the notion of history as a research or inquiry that attempts to extract self-knowledge about actions of human beings that have been done in the past. It reviewed the interpretation of antiquity, revivalist ... and modern architecture. Discussions proceeded to indicate the explanatory role of historical studies and emphasized its relation with criticism and influence upon the theory of architecture, so much so upon the concepts of creativity and originality. Discussions developed to highlight the purpose of historical studies in architecture that was viewed to be as an acute self-consciousness, knowledge about architecture and sense of direction. It concluded that the notion of history should not be limited to the classical architecture, but to operate in a wider sense as a record for the conceptual world of architecture and source for disseminating its knowledge.

Discussions turned to highlight the notion of theory as a means of explaining and doing practice; it proceeded to mark the contrast between history and theory on the one hand, creativity and originality on the other hand. Discussions also highlighted its status and types and concluded that the status of theory is not a fixed formula it rather an open organized body of ideas that

work as a guidance assumption to the work of architecture.

Discussions proceeded, to highlight the concept beginning as the first point in time that has duration and meaning; and delineated the active meaning of beginning (as a creative process) and the passive meaning of origin. Discussions went on to record the two kinds of beginning: the transitive one that implicates its end and the intransitive one as a radical starting point. Discussions extended to indicate the concept beginning in architecture, by delineating the elaborated beginning of modern architecture that challenged the continuity of past architecture (taught and practice) and accept the risks and rupture with it.

Discussion then turned to highlight the label of style its literary origin, limited scope as a successive repetition and limited consciousness. The discussion that followed centered upon the concept approach interpreting it as a wide one that does not reveal a formal architecture. Discussions turned to highlight the labels school and movement. The former was interpreted as a group of persons who share the same belief in any intellectual discipline, whilst the latter was interpreted as a wide label that included more than one school.

In conclusion discussions emphasized that architectural interpretation is not interplay with words as "self-appointed critics" believed, Gropius (1956). It is rather an elaborated conscious process, as this paper attempt to demonstrate in the course of discussions via emphasizing the role and place of each notion, concept and label in this process. Discussions concluded that criticism is a means for refinement of knowledge about architecture; history is a record for the conceptual world of architecture and source for disseminating of knowledge about it; and theory is an open organized body of ideas, work as guidance assumption to the work of architecture. The concept beginning is the first stage in any conscious architectural process. And when beginning occupies the foreground, it enters

its formative stage, therefore, it loses its status (as the first point in the conscious process) and endeavors to an establishment. The result of this intellectual process may be labeled as an approach, a school or a movement. Finally this paper maintains the need to clear the indiscrimination and abuse use of the previous architectural key terms in architectural interpretation via instrumenting and employing them appropriately on the light of their interpretation in this paper.

Notes:

1-The definition deduced after consulting the following dictionaries and Encyclopedias:

Al-B'alabki, M. (1981). *Al-Mawrid English Arabic Dictionary*, Dar al-'Alem Lilmalaiyyin, Beirut.

Burchfield, E.W. (1972). *A Supplement Of The Oxford English Dictionary*, Oxford University Press, U.K.

Baldwin, J. M. (1902). *Dictionary Of Philosophy & Psychology*, Vol. 2, The Macmillan Co. London.

Edwards, P.(1967). *The Encyclopedia Of Philosophy*, The Macmillan Co.,Vol. 5, London.

Fleming, J. Honour, H., Pevsner, N. (1976). *The Penguin Dictionary of architecture*, Penguin Books, England.

Guralnik, D. B. (1977). *Webster's New World Dictionary*, Collins World Publishing Co.

Little, W. (1934). *Shorter Oxford Dictionary*, Oxford University Press, U.K.

Morris, W. (1978). *The American Heritage Dictionary Of The English Language*, Houghton Mifflin Co., Boston, USA.

Murray, A. H. (1980). *A New English Dictionary Of Historical Principles*, London.

Murray, P. & L. (1979). *The Penguin Dictionary Of Art & Artists*, Penguin Books, England.

Sills, D. L. (1968). *International Encyclopedia Of The Social Sciences*, Vol.7, The Macmillan Co., The Free Press USA.

William, B. (1974). *The New Encyclopedia Britannica*, Vol. 16.

Williams, R. (1980). *Keywords*, Fontana / Croom Helm, Glasgow, U.K.

2-Alexander, C., *Notes On The Synthesis Of form*, (1979:36) indicated:

"In the unself-conscious culture the same form is made over and over again; in order to learn form-making, people need only learn to repeat a single familiar physical pattern. In the self-conscious culture required to deal with problems that are either entirely new or at best modifications of old problems. Under these circumstances, it is not enough to copy old physical patterns. So that people will be able to make innovations and modifications as required, ideas about how and why things get their shape must be introduced. Teaching must be based on explicit general principles of function, rather than unmentioned and specific principles."

3-Said, E., *Beginnings Intention And Method*, (1978:199), introduced two terms: restorative and supportive to literature criticism as follows: "Outside the Judeo-Christian textual tradition- in the Arab-Islamic for instance rather different conditions prevail. One of them is *Cidjaz*, a concept. Which describes the uniqueness of the Koran as rendering all other texts impotent by comparison. Thus since the central text is in Arabic and since, unlike the Gospels or even the Torah, it is given as unitary and complete, textual traditions are essentially supportive not restorative. All texts are secondary to the Koran, which is inimitable. (Note the absence of the problems of the formal imperfections of scripture of mixed styles of incomplete or partially transmitted texts, and so an all of which obtain in Christian Europe that Vico described)."

4-Hatje, G.(1975). *Encyclopedia Of Modern Architecture*, indicated the entry of functionalism:

"Functionalism. 'Form follows function' is the catchphrase that spells modern architecture to most laymen.... It grew directly out of this credo that form must reflect function-or 'express' function, as architects like to say. This was paraphrased to mean that all the different elements in a building should be separately 'expressed': for example, visible in-side and out, and separated from nonstructural wall panels and partitions, so that the structural frame would clearly 'express' its function of holding up the floors and the roof."

See also:

Fleming, J. (1976). *The Penguin Dictionary of architecture*. Jordy, W. (1972). *American Buildings And Their Architects*, Vol. 3 pp. 83-180.

Giedion, S. (1978). *Space, Time And Architecture*. 5-Giedion (1964:499-526) interpreted the spatial doctrine as follows:

“Consideration of space as a material for artistic representation arose in the Renaissance, the moment rationally scientific perspective drawing made it possible to bring space onto two-dimensional picture plane. Although this posse consideration had the task of submitting the reception of perspective to a subtly intuitive refinement, it always dealt in perspective in depth. In a University lecture Hans Jantzen followed this development through four hundred years (1936) throughout which interest centered upon the representation of space in painting. But in (1890) a strong impetus arose to bring architectural space into consideration. Leading art historians Alois Riegl (1856-1905), Heinrich Wölfflin (1864-1946) and August Schmarsow (1858- 1936) began to find the analysis of formal shapes insufficient and too coarse. They recognized Plato’s space as a receptacle of all becoming, to be an essential ingredient of architectural expression.”

Consequently, Giedion categorized architectural space conception in three stages. The first space conception, was concerned with emphasizing the relations between volumes and restricted the earlier freedom of individual objects in space. The second space conception, was concerned with relating the symbolic of interior space to the cosmos. The third space conception is concerned with transparency and dematerialization of the solid volume to allow fluidity of space.

Giedion (1978), *Space Time And Architecture*, went on to consider the previous space conception of the Renaissance as Euclidean geometry and put forward a fourth dimension, namely, Space -Time. He argued that Space-Time achieved via extensive transparency to allow maximum fluidity of space. As in the case of Villa Savoi, where maximum transparency achieved via the continuous horizontal windows and from down and up through the hollowed body of the villa (the ramp and the stairway).

See: Giedion, S. (1964: 499 - 526). *The Eternal Present: The Beginning Of Architecture*,

Wölfflin, H. (1950). *Principles Of Art History*.

_____. (1968). *Principles Of Architectural History*.

Collins, P. (1971b: 285-93). *Changing Ideals In Modern Architecture*.

6-According to *The Penguin Dictionary Of Art & Artists* (1979) proportion is:

“The relation of one part to a whole or to the other parts. In the arts it usually means a will-o'-the-wisp search for significant mathematical relationships between the parts of the human body. Such a search certainly began in classical times evidence is in much Greek sculpture-and the codified rules given in Vitruvius’ *Treatise on Architectural* (early in the 1st century A.D.) led to much theorizing in the Renaissance. Leonard da Vinci and Durer were the two artists who devoted the most energy to these studies (There is no excellent beauty that hath not some strangeness in the proportion. A man cannot tell whether Apelles or Albert Durer were the more trifler; where of the one would make a personage by geometrical proportions: the other by taking the best parts out of diverse faces to make one excellent: Bacon, ‘of Beauty’). In practice, the normal human body is about (7or7.5) times as tall as the height of its own head, and the total height is also roughly equal to the width of the outstretched arms. In IDEAL ART, therefore, its usual to make the height equal to the full width of the arms; and further to gain mathematical harmony by elongating the body so that the total height becomes (8) heads. This gives a body which can be inscribed in squares and circles and also the Convenient divisions so beloved of classically minded artists - e.g. the groin becomes the exact halt the legs can be again halved at the knees, and so on.”

7-John Ruskin, according to *The Penguin Dictionary Of Art & Artists*, (1979), was the most influential art critic of the nineteenth century. He also a draughtsman in architecture. The following prose was his contribution to architectural criticism as it was quoted in Collins (1971b: 259), *Changing Ideals In Modern Architecture*:

“A multitude of pillars and white domes, clustered into a long low pyramid of Colored light; a treasure heap, it seems, partly of gold, and partly of opal and mother-of-pearl hollowed beneath into five great vaulted porches, ceiled with fair mosaic, and beset with sculpture of alabaster, clear as *amber* and, delicate ivory-sculpture fantastic and involve, of palm leaves and lilies, and grapes and pomegranates, and birds clinging and fluttering

among the branches, all twined together into an endless network of buds an plumes; and in the midst of it, the solemn form of angels sceptred and, robed to the feet, and leaning to each other across the gates, their figures indistinct among the gleaming of the golden ground through the leaves beside them, interrupted and dim like the morning light as it faded back among the branches of Eden, when first its gates were angel-guarded long ago. And round the walls of the porches there are set pillars of variegated stones, jasper and porphyry, and deep-green serpentine spotted with flakes of snow, and marbles, that half refuse and half yield to the sunshine, Cleopatra-like, "their, bluest veins to kiss"-the shadow as it steals back from them, revealing line after line of azure undulation, as a receding tide leaves the waved sand; their capitals rich with interwoven tracery, rooted knots of herbage, and drifting leaves of acanthus and vine, and mystical signs, all beginning and ending in the Cross and above them, in the broad archivolts, a continuous chain of language and of life-angels, and the signs of heaven, and the labors of men, each in its appointed season upon earth; and above these, another range of glittering pinnacles, mixed with white are edged with scarlet flowers, a confusion of delight, amidst which the breasts of the Greek horses are seen blazing in their breadth of golden strength, and the St. Mark's Lion, lifted on a blue field covered with stars, until at last, as if in ecstasy, the crests of the arches break into a marble foam, and toss themselves far into the blue sky in flashes and wreathes of sculptured spray, as if the breakers on the Lido shore had been frost-bound before they felt and the sea-nymphs had inlaid them with coral and amethyst."

8-Leicester Engineering Building, was designed in 1964, by the English architects James Sterling and James Gowan, for Leicester University, England,

See: Bonta (1980a:15).

9-According to *Chamber's Encyclopedia*, (1968). Vol.13, James Stuart (1713-88), was an English architect, who together with the architect Revett, N. were measured and drew the architectural remains of Athens; and their work was published in a book, namely, *Antiquities of Athens*, 1762.

10-According to *Chamber's Encyclopedia*, (1968). Vol. 13, J. G. Saufflot (1713-80), was

remarkable French architect and historian in the classical revival of French architecture.

11-According to Collins (1971b: 30), *Changing Ideals In Modern Architecture*, Medieval scholars were introduced two concepts into historiography, those are:

"... the notion of historical periods, the other was the idea that the past and the future both form some intelligible sequential pattern of events. These historical periods were based on religious foundations.... But once history was divided into periods, these led the way to a division of architecture into styles."

12-Baroque style, according to *The Penguin Dictionary Of Architecture* (1976), was dominated in the seventeenth century and part of the eighteenth century.

"It is characterized by exuberant decoration, expansive curvaceous forms, a sense of mass, a delight in large-scale and sweeping vistas, and preference for spatially complex compositions."

13-Rococo style, according to *The Penguin Dictionary of architecture*, (1976), was the late style of the Baroque It recognized from the Baroque style by its light and colors and great spatial complexity.

14-Tafuri, (1980: 104), quoted the Spanish painter Picasso as follows: "I don't look for, I find."

15-Quoted in Collins, (1971 a: 32), *Architectural Judgment*.

16-Hegel's dialectic was viewed by Collingwood, R. G. (1976: 118), *The Idea Of History* as follows:

"... Hegel in his theory of dialectic, which describes the way in which any concepts stands in a necessary relation to its own opposite, generating it at first and then negating it, so that the way in which the concept lives is by creating and overcoming oppositions. But individuals things which are instance of concepts are never related to each other by way of opposition, only by way of distinction: consequently the relations between them are not dialectical and in history which is history of individual actions and persons and civilizations, there is consequently no dialectic, whereas Hegel's whole philosophy of History turns on the principle that every historical process is a dialectical process in which one form of life, for example Greece, generates its own opposite, in the case Rome...."

See also: Sabin, G.H. (1973: 570-508), *A History Of Political Theory*, Brydin Press, U.S.A.

17-The remarkable advocates according to their writings are: Giedion, Pevsner and Scully.

See: Giedion, S. (1978), *Space, Time And Architecture*.

Pevsner, N. (1975), *Pioneers of modern Design*.

Scully, V. (1975), *Modern Architecture*.

18-The remarkable founders according to the advocates are: Gropius, Le Corbusier, Mies, and Wright.

See: Gropius, W. (1956). *The Scope of Total Architecture*.

_____ (1976). *The New Architecture And The Bauhaus*.

Le Corbusier (1960). *Towards A New Architecture*. (1978),

_____ (1978 a). *The City Of Tomorrow*.

Wright, F. L. (1954). *The Natural House*.

_____ (1974). *Frank Lloyd Wright Writings And Buildings*.

Blake, P. (1976). *The Master Builders*.

Hoag, E & J. (1977). *Masters Of Modern Architecture*.

19-Bauhaus was a school of design, building and craftsmanship founded 1919 in Germany by Gropius and closed in 1933. The Bauhaus played a remarkable role in architectural practice and thought of the 20th century. Its profound endeavor was to unite arts and crafts and to create a new architecture. Its original and creative theme was a major contribution to modern architecture. It was the first school of architecture in the world, according to Gropius (1956), to embody a definite curriculum that integrated with the industrial society at the time. Gropius was the founder and ideologist of the Bauhaus, he published many books as mentioned in note 18.

See also: Gropius, W. & Mayer, H. (1979), *Bauhaus, 1919-1928*.

20-The three leading figures of Greek thinkers are: Socrates (469-399), Plato (429-348) and Aristocles. The three of them were philosophers, all their work was categorized in the *Dictionary Of Philosophy And Psychology* and *The Encyclopedia of Philosophy*, Vols. 1, 6 and 8.

21-The *Penguin Dictionary* did not indicate which National Gallery who marked the differences.

22-According to Hatje, (1975), *Encyclopedia Of Modern Architecture*, organic architecture interpreted and conceived in different ways. One view claimed that the theory originated in ancient Greek and Roman architecture and developed during the Renaissance. Its

theme is based upon the relation between human body and architecture. Therefore, architecture should have natural characteristics in its appearance similar to a natural organism as in the work of the architects Henry van de Velde and Erich Mendelsohn. The other view adopted a theme based upon the "notion of organic unity." It argued that building should be a unity with its surroundings, especially with the site and the earth on which it stands. Frank Lloyd Wright was the spokesman of this view. He argued that buildings should grow from inside to outside and buildings should integrate with nature. See also: Wright's books in note 18

BIBLIOGRAPHY

Akin, O. (1979). A Style Named Post - Modern, *Architectural Design*, Aug.\ Sept., pp. 224-226.

Alexander, C. (1979). *Notes On The Synthesis Of Form*, Harvard University Press, Cambridge, Mass. USA.

Allsopp, B. (1970). *The Study Of Architectural History*, Studio Vista, London, UK.

Baldwin, J. M. (1902). *Dictionary Of Philosophy And Psychology*, The Macmillan Co., London.

Banham, R. (1966). *The New Brutalism Ethic Or Aesthetic*, The Architectural Press, London.

_____ (1969). *The Architecture Of The Well-Tempered Environment*, The Architectural Press, London.

_____ (1976). *Meagastucture*, Thames & Hudson Ltd., UK. (1978 a). *Age Of The Masters*, The Architectural Press, London.

_____ (1978 b). Modern Architecture Is Undecorated, in *The Rationalists, Theory & Design Of Modern Movement*, (Sharp, D. edit.), Architectural Press, London, pp. 27-33.

_____ (1980). *Theory And Design In The First Machine Age*, The Architectural Press, London.

Bennett, C. (1977). *Space For People, Human Factors In Design*, Prentice-Hall, NJ., USA..

Blake, P. (1974). The Rise Of Modern Architecture, *Dialogue*, Vol. 7, No. 3, pp. 22-33.

_____ (1976). *The Master Builders*, The Norton Library, USA.

_____ (1977). *Form Follows Fiasco*, The Atlantic Monthly Press Books, USA.

Bonta, J. P. (1980 a). *Architecture And Its Interpretation*, Lund Humphries, London.

_____(1980 b). Notes For A Theory Of Meaning, in *Signs, Symbol & Architecture*, (Broadbent, Bunt & Jencks eds.), John Wiley & Sons, Ltd., pp. 275-311.

Boyd, R. (1967). The Sad End Of New Brutalism, *Architectural Review*, July, pp. 9-11.

Brewer, M. (1978). Where Do We Stand, in *The Rationalist, Theory & Design Of The Modern Movement*, (Sharp, D. edit.), The Architectural Press, London, pp. 84-90.

Broline, B. C. (1976). *The Failure Of Modern Architecture*, Van Nostard Reinhold Co. N.Y.

Butterfield, H.(1969). *Man On His Past*, Cambridge University Press, UK.

Collins, P. (1968). The Philosophy Of Architectural Criticism, *AIA Journal*, Jan., pp. 46-49.

_____(1971 a). *Architectural Judgment*, McGill-Queens University Press, Montreal Canada.

_____(1971 b). *Changing Ideals In Modern Architecture*, Faber & Faber, London.

Collingwood, R. G. (1976). *The Idea Of History*, Oxford University Press, N.Y.

Cook, J. W. & Heinrich, K. (1976). *Conversation With Architects*, Praeger Publisher, N.Y.

Coomaraswamy, A. K.(1956). *Christian & Oriental Philosophy Of Art*, Dover Publication, N.Y.

Cowan, H. J. (1977). *An Historical Outline Of Architectural Science*, Applied Science Publishers Ltd. London.

Eisenman, P.(1963). Towards An Understanding Of Form In Architecture, *AD*, Oct., pp. 436-58.

_____(1976). Post-Functionalism, *Opposition*, Fall, pp.1-3.

_____(1989). En Terror Firma: In Trials Of Grotexes, *AD*, Vol. 58, 1\2, pp. 40-43.

_____(1988). The Blue Line Texts, *AD*, Vol.58, No. 7/8, pp. 5-9.

Frampton, K. (1974). Apropos Ulm: Curriculum And Critical Theory, *Opposition*, May, PP. 17-36.

_____(1975). Frontality Verses. Rotation, in *Five Architect*, (Eisenman & Others), Oxford University Press. N.Y.

_____(1980). *Modern Architecture A Critical History*, Thames & Hudson Ltd., London.

Friedman, Y. (1980). *Towards A Scientific Architecture*, The MIT Press, Cambridge, Mass., USA.

Giedion, S (1963). Architecture In The 1960's, Hopes & Fear, *Zodiac*, No. 11, pp. 24-35.

_____(1964). *The Beginning Of Architecture*, Princeton University Press, NJ. USA.

_____(1978). *Space Time And Architecture*, Harvard University Press, Cambridge, Mass., USA.

Gloag, J. (1975). *The Architectural Interpretation Of History*, A & C Black Ltd., London.

Goldberger, P. (1977). Post-Modernism: An Introduction, *AD*, April, pp. 256-260.

Grillo, P. J. (1975). *Form Function And Design*, Dover Publication, N.Y.

Gropius, W. (1956). *The Scope Of Total Architecture*, Allen & Unwin, London.

_____(1961). The Architect In Society, *RIBA Journal*, Sept., pp.435-36.

_____(1976). *The New Architecture & The Bauhaus*, The MIT Press, Mass., USA.

_____ & Mayer, H. (1979). *Bauhaus 1919-1928*, The Museum Of Modern Art, N.Y.

Hatje, G. (1975). *Encyclopaedia of Modern Architecture*, Thames & Hudson, London.

Hitchcock, H. R. & Johnson, P. (1966). *International Style*, The Norton Library, N.Y.

Hoag, E. & J.(1977). *Masters Of Modern Architecture*. The Bobbs-Merrill Co., Indianapolis, N.Y.

Jencks, C.(1977 a). *The Language Of Post-Modern Architecture*, Rizzoli, USA.

_____(1977b). A Genealogy Of Post-Modern Architecture, *AD*, April, London, pp. 269-274.

_____(1980 a). Introduction, *Architectural Design*, 5/6, London.

_____(1980 b). *Late-Modern Architecture*, Academy Edition, London.

_____(1980 c). *Modern Movement In Architecture*, Penguin Books, London.

_____(1982). *Current Architecture*, Academy Edition, London.

_____(1985). *Symbolic Architecture*, Academy Edition, London.

_____(1988). Deconstruction: The Pleasure Of Absence, *AD*, Vol. 58, No. 3/4, pp. 17-31.

_____(1990 a). Death For Rebirth, *AD Profile*, No. 88, pp. 6-9.

_____(1990 b). Post-Modernism Between Kitsch And Culture, *AD Profile*, No. 88, pp. 25-35.

Jordy, W. (1972). *American Buildings And Their Architects*, Vol. 3, Anchor Books, N.Y.

Le Corbusier, (1960). *Towards A New Architecture*, Prager Publishers Inc., N.Y.

_____(1978 a). *The City Of Tomorrow*, The Architectural Press, London.

- _____ (1978b). Personal View, in *The Rationalists, Theory & Design Of Modern Movement*, (Sharp, D. edit.), The Architectural Press, London.
- MacEwen, M. (1974). *Crises In Architecture*, RIBA publication, London.
- Martin, L. (1967). Architects' Approach To Architecture, *RIBA Journal*, May, pp. 191-200.
- Maxwell, R. (1977). Architectural Language & Process, *AD*, March, pp. 190-198.
- Miller, J. H. (1971). George Poulet's "Criticism Of Identification", in *The Quest For Imagination*, (Hardison, O.B. edit.), The Press Of Case Western University, Cleveland, Ohio, USA., pp. 191-225.
- Moholy-Nagy, S. (1957). Architecture -Art Or Design, *Progressive Architecture*, Jan., Vol. 38, PP. 13-16, 22-23.
- _____ (1976). *Native Genius In Anonymous Architecture*, Schecken Books, USA.
- Murray, A. H. (1960). *A New English Dictionary Of Historical Principles*, London
- Murray, P. L. (1979). *The Penguin Dictionary Of Architecture*, Penguin Books, England.
- Newman, O. (1961). *CIAM 59 In Otterlo*, Alec Tiranti Ltd., London.
- _____ (1980). *Defensible Space*, Architectural Press, London.
- Norberg-Schulz, C. (1967). Pluralism In Architecture, *RIBA Journal*, June, Vol. 74, pp. 244-246.
- _____ (1980). Spirit Of Place, Towards A Phenomenology Of Architecture, *AD*, July/August, PP. 85-88.
- _____ (1988). The Two Faces Of Post-Modernism, *AD*, Vol. 58, No. 7/8, pp. 11-15.
- Oakley, D. (1970). *The Phenomenon Of Architecture In Culture In Change*, Pergamon Press, London.
- Pevsner, N. (1961). Modern Architecture & The Historian Or The Return Of Historicism, *RIBA Journal*, April, pp. 230-240.
- _____ (1967). The Anti-Pioneers, *The Architects Journal*, Feb., pp. 269-280.
- _____ (1975). *Pioneers Of Modern Design*, Penguin Books, London.
- Sabine, G. H. (1973). *A History Of Political Theory*, The Dryden Press, Hinsdale, Illinois.
- Said, E. (1978). *Beginnings Intention & Method*, The John Hopkins University Press, N. Y.
- Schulze, F. (1970). Chaos As Architecture, *Art In America*, Jan., pp. 88-96.
- _____ (1974). Towards An "Impure" Architecture, *Dialogue*, Vol. 7, No. 3, pp. 54-63.
- Scruton, R. (1979). *The Aesthetic Of Architecture*, Princeton University Press, NJ. USA.
- _____ (1981). Viewpoint, Recent Aesthetic Of Architecture In England And America, *Architectural Association Quarterly*, Oct., Vol. 113, No. 1, pp. 51-54.
- Scully, V. (1975). *Modern Architecture*, G. Braziller, N.Y., USA.
- _____ (1977). Introduction, in *Complexity And Contradiction In Architecture*, (Venturi, R.). The Museum Of Modern Art, N.Y.
- Sharp, D. (1978). Introduction, *The Rationalists, Theory And Design Of Modern Movement*, Architectural Press, pp. 1-5.
- Smith, I. (1967). Architects' Approach To Architecture, *RIBA Journal*, July, pp. 271-280.
- Stern, R. (1977a). *New Direction In Contemporary Architecture*, G. Braziller, N.Y.
- _____ (1977b). At The Edge Of Post-Modernism, *AD*, April, pp. 275-79.
- Tafuri, M. (1980). *Theories And History Of Architecture*, Granada Publishing, UK.
- Venturi, R. & Rauch, J. (1967). The Architecture Of Allusion, *Progressive Architecture*, Jan., 144 -154.
- Venturi, R. & Brown, D. S. (1971). Ugly And Ordinary Architecture Or The Decorated Shed, *Architectural Fourm*, Vol. 135, No. 5, Dec., pp. 48-53.
- Venturi, R. Brown, D. S. & Izenours, S. (1972). *Learning From Las-Vegas*, The MIT Press, Cambridge, Mass., USA.
- Venturi, R. (1977). *Complexity & Contradiction In Architecture*, The Museum Of Modern Art, N.Y.
- Watkin, D. (1978). *Morality And Architecture*, Oxford University Press, UK.
- _____ (1983). *The Rise Of Architectural History*, The Architectural Press, London.
- Williams, R. (1980). *Keywords*, Fontana/Croom Helm, Glasgow, UK.
- Wolfflin, H. (1950). *Principles Of Art History*, Dover Publications Inc., USA.
- _____ (1968). *Principles Of Architectural History*, The MIT Press, Cambridge, Mass., USA.
- Wright, F. L. (1954). *The Natural House*, Horizon Press, USA.
- _____ (1974). *Frank L. Wright Writings And Buildings*, New American Libraries, USA.

حب متجمد



بفلم

أسماء صلاح

كاتبة وباحثة في علم الاجتماع
المشرف الفني على دورية كان التاريخية
wasma_art@yahoo.com

في حالة شعورية فريدة تأخذنا تلك اللوحة إلى عالم خفي أقرب إلى عالم الأحلام ، وهو ما يميز الفن الرؤيوي الذي يرتفع فيه الفنان فوق العالم المادي الملموس مقدماً رؤى أوسع للوعي مستمدة من خبراته الذاتية والروحية ، ويقال أن الفن الرؤيوي هو طريق الفنان للبحث عن رؤى ذاتية يُعبّر عنها باستخدام لغة بصرية تعينه على رؤية ما لا يراه في الواقع. فنرى في لوحات الفنانين الرؤيويين صوراً لممرات ومناهب غامضة ، وانكسارت ضوء وهالات نور متداخلة ، وطبيعة مليئة بالصخور ، ومعابد ، وأطلال وبقايا حضارات سادت ثم بادت.. إلى آخره. كما تحدت موضوعات لوحاتهم في الجنة والنار ، والموت ، والبعث ، والماضي السحيق ، والمستقبل البعيد ، والمخلوقات الأسطورية ، والأبطال القدامى ، وطقوس السحر ، والأماكن الغامضة إلى غير ذلك.

ومن أشهر فناني الرؤيا الفنان "جان بول ايفيس Jean-Paul Avisa" ، وهو رسام فرنسي علم نفسه بنفسه وأقام عدة معارض في اليابان وأمريكا الشمالية وسويسرا. وقد أصبح اسماً معروفاً في أوساط الفن التشكيلي العالمي منذ عام ١٩٩٠ ، بعد عرض بعض أعماله في جاليري بريستيج للفن بشيكاغو. وتكثر في لوحاته صور لنساء ، وطيور ، وورود ، وفراشات ، وغابات ، وستائر ملونة ، وأزهار لوتس ، وبلورات كريستال ، وفي بعض الأحيان يوظف بعض تقنيات التصوير الرقمي والجرافيكس في رسم بعض التفاصيل والأجزاء داخل لوحاته.

وفي هذه اللوحة قدم ايفيس عام ١٩٨٠ حالة من الحب ، أطلق عليها "حب متجمد" صور فيها فتاة تجلس وحيدة على ما يشبه أطلال قلعة قديمة ، نظرات الفتاة المستغرقة وتعابير وجهها تعطي انطباعاً هو مزيج من التوق والانتظار والحزن. فربما جاءت إلى هذا المكان البارد كي تتلمس في رحاب الطبيعة ما ينسيها مرارة تجربة حب قديم أو علاقة ما لم تكتمل. وقد تكون الفتاة في انتظار حبيب أو قريب أمعن في الغياب حتى فقد الجميع الأمل في عودته إلا هي ، وقد عبر الفنان عن هذا الأمل بتلك الشمس التي انبثقت في الأفق مبددة بأشعتها سحائب اليأس وملل الانتظار وتعطي وعداً بحياة جديدة دافئة.

تشتمل اللوحة على مجموعة من التباينات أشبه بالتضاد في لغتنا الجميلة حين يبرز المعنى ويوضحه ، فالنباين ما بين الهيئة العصرية للفتاة وشكل المعابد والأعمدة التي ترمز لماضي موغل في القدم ، يعطي مفارقة توحي بأن ما يعتري الإنسان من مشاعر الفقد والحزن وغيرها من الأحاسيس المختلفة لها صفة أزلية وسرمدية لا تتأثر بتقادم الزمن أو تغير الظروف. وكذلك التباين بين الطبيعة الثلجية ذات الجو البارد وملابس الفتاة التي تظهرها عارية الصدر والكتفين ، يعبر عن فائزيا الطبيعة الغامضة التي أخذت تلك الفتاة أسيرة الذكريات المتجمدة في قلبها ، ولعل تجسد المكان حولها إشارة إلى أن تلك الذكريات تحيط بها أين ذهبت. وعلى أي حال مهما كان قصد الفنان فقد قدم لنا لوحة جميلة ومنظر شاعري متناسق الألوان.



كان التاريخية

The first Arabic Referred Journal Published in Electronic Format,
Specialized in Historical Studies and Research.

ISSN: 2090 - 0449

Third Year - Issue (10) December 2010 | Thu Al-Huijjah 1431

Historical Kan Periodical



www.historicalkan.com

The Journal Issued Quarterly By : Junior Historian Series